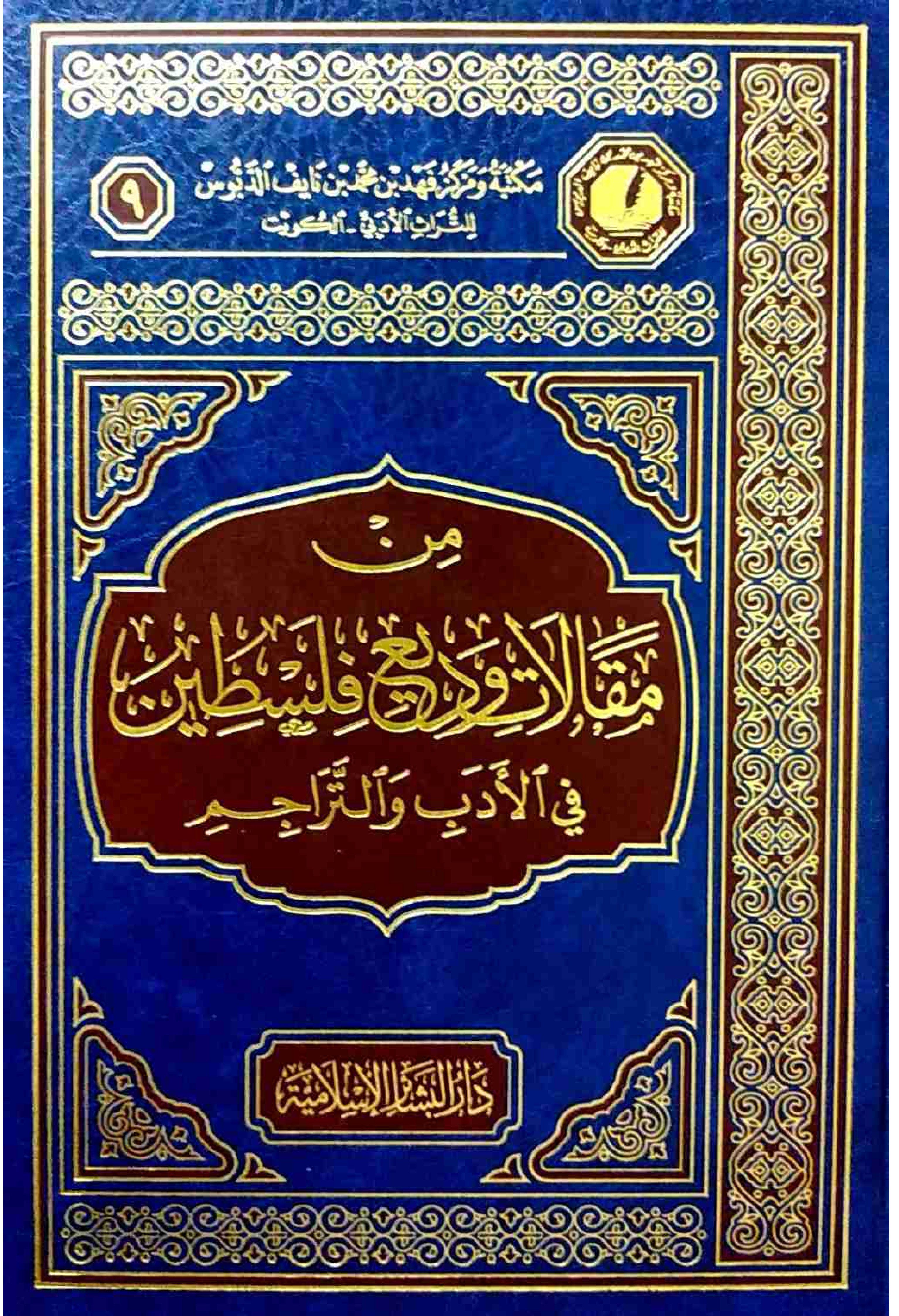

مكتبة ومركز فهد بن محمد بن نايف الدبوس
للتراث الأدبي - الكويت
٩
من
مقالات وديع فلسطين
في الأدب والتراجم
دار البشائر الإسلامية

من

مقالات وديع فلسطين

في الأدب والتراجم

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

مكتبة ومركز فهد بن محمد بن نايف الدبوس
للتراث الأدبي
للمراسلة: الكويت - حولي - ص.ب: ٦٠٠٥ حولي
Email: fahad_aldabbos@hotmail.com

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى
سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
هاتف: ٠٠٩٦١١/٧٠٢٨٥٧ فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
email: info@dar-albashaer.com \ bashaer@cyberia.net.lb
website: www. dar-albashaer.com





من مقالات وديع فلسطين

في الأدب والتراجم

دار البشائر الإسلامية





مقدمة

هذه فصول اخترتهاخبط عشواء من مقالات نشرت في مجلات وصفحات شتّى.

وهي في مجموعها تمثل تجاربي وآرائي التي سقتها متذرّعاً قدر المستطاع بالأمانة الأدبية.

وإذا عنَّ لقارئ أن يراجعني في قضية أدبية تناولتها أو يستوضحني أمراً غمض عليه، فلا حرج عليه إذا تواصل معي في عنواني المدون أدناه.

وديع فلسطين

عنوان المؤلف:
٦ شارع الإمام علي
مصر الجديدة - مصر القاهرة ١١٣٤١
هاتف ٢٤١٥١٠٥١



باكثير.. إخاء ربع قرن

عاش باكثير في مصر بين عامي ١٩٣٤ و١٩٦٩ وشعوره بالغربة لم يفارقه أبداً لأنه كان يجد عناء شديداً في التأقلم مع البيئة الجديدة التي قرر أن يعيش في خضمها سابحاً دائماً ضد التيار، ولولا أنه وجد في مصر عملاً ونافذة لنشر آثاره، فلعله كان يغادرها إلى بلد آخر في الغرب أو يعود إلى موطنه الأصلي حضرموت، على الرغم من أن الأوضاع الاجتماعية في هذا الوطن القديم لم تكن لتوفر له ما كان ينشده من استقرار لمتابعة إنتاجه الأدبي.

في عام ١٩٤٣ أنجزتُ ترجمة لمسرحية «الأب» للأديب السويدي «أوجست سترندبرج» ولم أدر ماذا أصنع بها، فلم أكن في هذه الفترة المبكرة أعرف ناشراً لها أو مسرحياً يهتم بها ويخرجها على مسرحه. ولكن استرعى انتباهي إعلان كان يتكرر في اليوم الأول من كل شهر في الصفحة الأولى من جريدة «الأهرام» يجرى بنفس النص مع اختلاف في مضمونه، وهو «لجنة النشر للجامعيين تقدم رواية «رادوبيس» للأستاذ نجيب محفوظ عبد العزيز، الثمن عشرة قروش، الناشر مكتبة مصر بالفجالة». وفي الشهر التالي إعلان عن صدور رواية «أحمس» للأستاذ عبد الحميد جودة السحار، وبنفس الصياغة يورد الشهر التالي إعلاناً عن صدور رواية «ويك عنتر» للأستاذ عادل كامل، ثم إعلان تال عن صدور رواية «إخناتون ونفرتيتي» للأستاذ علي أحمد باكثير.

وقلت لنفسي: هذه لجنة نشر للجامعيين، وأنا جامعي وإن كنت أنتمي إلى الجامعة الأمريكية لا إلى جامعة فؤاد الأول، ثم إن كل هؤلاء المؤلفين مجهولون، ومؤكد أنهم من الشباب مثلي، فلمَ لا أجرب حظي معهم؟

وحملت مخطوطة المسرحية المترجمة وتوجهت إلى مكتبة مصر بالفجالة حيث استقبلني صاحبها سعيد جودة السحار، وسألته عمن يكون مسؤولاً عن

لجنة النشر للجامعيين وكيف السبيل إلى لقياه. فقال: إن المسؤول هو شقيقه عبد الحميد جودة السحار، وإن جميع أعضاء اللجنة يجتمعون في المكتبة بعد ظهر كل ثلاثاء، وفي وسعي أن أقابلهم، وفي أول ثلاثاء توجهت إلى المكتبة حيث استقبلني عبد الحميد جودة السحار وأوضحت له غايتي من اللقاء وهو إمكانية نشر مسرحيتي المترجمة، فرحب بالاطلاع عليها ثم دعاني للتعرف بزملائه في اللجنة وهم نجيب محفوظ عبد العزيز الموظف بوزارة الأوقاف وعلي أحمد باكثير مدرس اللغة الإنجليزية في المدارس الثانوية وعادل كامل الذي كان يتدرب في مكتب محام، أما عبد الحميد جودة السحار، خريج كلية التجارة، فكان يعمل محاسباً في وزارة الدفاع. ورحب بي أعضاء اللجنة من أول لقاء، وقدم لي كل منهم ما صدر من كتبه مطرزة بإهداء كريم، ورأيت أن من واجبي أن أعرف بهم، فعقدت فصولاً نشرتها عن آثار هؤلاء الشبان جميعاً مما زادني اقتراباً منهم.

كان انطباعي الأول عن باكثير في هذه اللجنة أنه شبه إنطوائي، لا يتكلم إلا بمقدار، ولا يشارك في القهقهات بل يتحفظ قانعاً بابتسامة عابرة، وأكاد أجزم بعد هذا العمر بأنه وإن كان انتمى إلى المجموعة الأساسية للجنة النشر للجامعيين إلا أنه لم يندمج فيها اندماجاً كاملاً بسبب حالة القلق التي كانت تستبد به دائماً، ولعل تعليلها أنه لم يكن مصرياً صميماً حيث ولد في إندونيسيا في عام ١٩١٠ لأسرة من حضرموت وتنقل في الجزيرة العربية وزار الصومال والحبشة (إثيوبيا) قبل أن يحط رحاله في مصر في عام ١٩٣٤ لدراسة اللغة الإنجليزية في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، واستقراره في مصر ـ ولو بصورة مؤقتة بعد تخرجه ـ حيث عين مدرساً للغة الإنجليزية في المدارس الثانوية في أنحاء مصر، ومنها مدرسة الرشاد بالمنصورة.

ولئن تجنس باكثير بعد ذلك بالجنسية المصرية، فقد كان يحس في قرارة نفسه بأنه غريب، يرين الحزن على قلبه منذ ما توفيت زوجته الأولى في وطنه، فأهدى إليها كتابه الأول وهو مسرحية «همام في بلاد الأحقاف» التي نشرت قبل مجيئه إلى مصر.

كان باكثير يعتقد أنه «مختلف» عن بقية زملائه في لجنة النشر للجامعيين، فإذا كان نجيب محفوظ يحشد في رواياته شخصيات غير سوية مثل الغوازي والبلطجية والقوادين والحشاشين واللصوص، فإن باكثير كان يستلهم في آثاره قيم الوطنية والأخلاق والشهامة والعدالة الاجتماعية، مما «ورطه» في كتابات كثَّرت من مناوئيه لأنه في «حبل الغسيل» و«حمدان قرمط» اكتسب عداوة «المياسرة» الذين كانوا وقتها يهيمنون على كل النشاط الثقافي. كما أن روايتيه «سر الحاكم بأمر الله» و«الزعيم الأوحد» وغيرهما كانت تمثل صيحة ضد الطغيان، وقيل وقتها إنها تنطوي على إسقاطات على أنظمة قائمة في العالم العربي.

وحتى مسرحية «تاجر البندقية» المستوحاة من شكسبير لم تسلم من «شوشرات» صحفية مؤخراً عندما اختارتها طالبة في كلية الألسن بجامعة عين شمس اسمها «الشيماء محمود عواض خليفة» كموضوع لرسالة دكتوراه في الأدب المقارن. فباكثير «شبه مطارد» في الماضي والحاضر ممن يعتبرونه رجعياً لأنه يدير أعماله حول موضوعات دينية ووطنية وعروبية مثل «مسمار جحا» و«واإسلاماه» و«إبراهيم باشا» و«دار ابن لقمان» و«إله إسرائيل» و«شعب الله المختار» وهي روايات لا يكتب لها نجاح جماهيري لو قدمت على خشبة المسرح أو في فيلم سينمائي كما هو الشأن في روايات الحب والغرام والعشق والمجون.

كان باكثير قصير القامة غليظ العوينات لا يفارقه غليونه ولا يعرف الحياة الاجتماعية ـ ودع عنك المخملية! ـ ولا يغشى السهرات ولا يجمع حوله رواداً في المقاهي كما كان نجيب محفوظ يفعل، وعندما اختيرت رواية «سلامة القس» لكي تمثلها أم كلثوم، سألَتْ عمن يكون مؤلف هذه الرواية، فقيل لها إنه علي أحمد باكثير. ولم تكن قد سمعت باسمه من قبل، فطلبت دعوته لمقابلتها، ولما رأته بقامته القصيرة داعبته بقولها: أنت باقليل لا باكثير!

ويروي صديقنا الأديب السعودي عبد الله بلخير الذي كان يرافق الملك سعود في زيارة رسمية لمصر، أنه رغب في مفاجأة صديقه باكثير بزيارة،

فتوجه بسيارته الرسمية مع حراسه إلى حي المنيل، وكلف واحداً من الجنود الصعود إلى الطابق الثالث للتأكد من أن باكثير موجود. وفوجىء باكثير بجندي يقف ببابه ويسأل عنه، فتوجس شراً وخشي أن تكون وراء هذه الزيارة «كبسة» من الشرطة تفقده حريته، وقبل أن يستردّ أنفاسه من هول الصدمة فوجىء بعبد الله بلخير يندفع إليه ويحتضنه ويقبله، فهو رجل مسالم يفزع من رؤية رجل شرطة.

عاش باكثير عيشة يمكن وصفها بالكفاف، فهو موظف يتقاضى راتباً حكومياً محدوداً سواء عندما كان يعمل بالتدريس أو عندما ضمّه الأديب يحيى حقي إلى مصلحة الفنون عند إنشائها، وهي التي تحولت فيما بعد إلى وزارة الثقافة. ولم تعرف آثاره طريقها إلى المسرح أو أفلام السينما إلّا قليلاً، عساه يحصل منها على جنيهات إضافية يستعين بها على مواجهة أعباء الحياة، ولا سيما لأنه كان قد تزوج من أرملة وتبنّى ابنتها ثم زوجها بعد ذلك. وعاش ولا هم له من كل الدنيا إلا كتابة الروايات والمسرحيات ونظم الشعر، سواء وجد له ناشراً أو أدار له الناشرون ظهورهم؛ لأن آثاره كانت تفتقر إلى «المشهّيات» التي تطلب لرواج أي عمل روائي.

ومع أنني لست متابعاً متابعة حثيثة لحركة ترجمة الآثار العربية إلى اللغات الأجنبية، فلعلّي أشك في أن تكون أي من آثار باكثير قد ترجمت إلى أي لغة، ولهذا قرر هو أن يضطلع بهذه المهمة بنفسه، فترجم إحدى مسرحياته إلى اللغة الإنجليزية وأطلعني عليها حيث أبديت له أنها ترجمة جيدة، ولم أعرف بعد ذلك أنها عرفت طريقها إلى النشر.

استمرت صداقتي بباكثير على مدى ربع قرن، نتواصل هاتفياً إن تعذر اللقاء الشخصي، ولهذا انتهز فرصة اعتزامه تكريم أديب عراقي دعاه مع مجموعة من الأصدقاء لتناول الغداء في جزيرة الشاي بحديقة الحيوان، ورجاني أن أبكر بالمرور عليه لرغبته - ورغبتي أيضاً - في أن نفضفض عمّا في نفسينا. وعندما خلونا إلى نفسينا في الجزيرة صارحني بأنه يفكر جدياً في الهجرة إلى إنجلترا للعمل والإقامة هناك، ولا سيما لأن المستشرق أربري

وعده بأن يهيىء له عملاً هناك ويعرفه بالمشتغلين بالحركة المسرحية عساه يتعاون معهم. ومن ناحيتي، كنت قد ضقت بانكشاريات الحياة التي تغالظت معي وأشدّها البطالة المذلّة، فقبلت عرضاً للعمل خارج مصر ربما بغير عودة، وقلت لباكثير لعلنا نلتقى بعد ذلك في إحدى العواصم الأوروبية أو العربية لنجدد عواطف الودّ إن تعذر علينا اللقاء في القاهرة.

ولكنني قرأت في مهجري منعاه، إذ توفي في ١١ نوفمبر ١٩٦٩ قبل بلوغه سن التقاعد القانوني. وسمعت بعد ذلك أن صاحب العقار الذي كان يقيم فيه استصدر حكماً بإخلاء شقة باكثير من سكانيها ـ وهم ابنته المتبناة وزوجته وزوج ابنته ـ وتم تنفيذ الحكم بالقوة الجبرية وألقيت أمتعته وكتبه خارج الشقة وعلى سلالم العقار، فاستطاع زوج ابنته جمعها قبل أن تتعرض للنهب أو الإهمال.

ومع أن باكثير يكاد يكون الآن منسياً في مصر، فإن حضرموت لم تنس ابنها البار، حيث انبرى مواطنه الدكتور محمد أبو بكر حميد لتخليد ذكرى باكثير بصورة دائمة، فأقام في حضرموت مركزاً ثقافياً باسم باكثير ضمّ مكتبته الخاصة التي تم إنقاذها وجميع آثاره المنشورة والمخطوطة، كما قام بنشر ديوانه وبعض آثاره التي لم يسبق نشرها وما نفد منها. وهكذا تحوّل اسم «حضرموت» بفضل باكثير إلى «حضر حياة» فلا موت للقيم الوطنية والأدبية والدينية والخلقية التي حرص عليها باكثير في كل حياته.





طه حسين..
بين راضٍ وساخط

تعرض الدكتور طه حسين في حياته لكثير من الحملات التي لم يخل بعضها من تحامل وعنف ولكنه ظل صامداً أمامها، ينهى نفسه عن اتخاذ موقف الدفاع مؤثراً عليه الصمت البليغ.

في عام ١٩٤٥ توافق آل هراري - وهم يهود مصريون يملكون داراً تحمل اسم «الكاتب المصري» تشتغل ببيع مهمات المكاتب من أوراق ودوسيهات وما إليها - مع الدكتور طه حسين على إصدار مجلة شهرية ثقافية تحمل نفس اسم الدار طبقاً لشروط لم يعلن شيء منها، ولا عرف شيء عن المرتب أو المكافأة التي تقرر أداؤها لطه حسين مقابل هذا العمل، وعلى الفور، اختار طه حسين صديقه المترجم حسن محمود سكرتيراً لتحرير المجلة، وحشد أصدقاءه وتلاميذه لتحرير «مجلة الكاتب المصري» كان من جملتهم الدكتور محمود عزمي ومحمد عبد الله عنان وسلامة موسى ولويس عوض وسهير القلماوي والدكتور حسين فوزي وغيرهم.

وصدرت المجلة شهرياً، ثم توسعت في نشر مجموعات من الكتب المؤلفة والمترجمة، لعل من أهمها كتاب «مدونة جستينيان» لشيخ القضاة عبد العزيز فهمي باشا.

واحتلت المجلة منزلة رفيعة بين القراء، وحققت نجاحاً كبيراً دون أن يرصد أحد طوال تاريخ هذه المجلة الذي لم يزد على ٣٢ عدداً أنها نشرت أي مقال يشتم منه أن فيه دعاية سواء لأصحاب الدار أو لمعتقدهم.

ولكن إسماعيل مظهر محرر مجلة «المقتطف» انتهز فرصة إعلان إسرائيل (المزعومة) عن قيامها في شهر مايو ١٩٤٨ فشن حملة شعواء على طه حسين

لقبوله التعاون مع هؤلاء الصهاينة، ولا سيما لأن آل هراري كانوا يعملون وقتها على تصفية أعمالهم في مصر للنزوح إلى الخارج. فتوقفت الملة عن الصدور بعد عدد مايو ١٩٤٨ متزامنة في هذا مع قيام هذه الدولة المزعومة.

وقد فزع الدكتور فارس نمر باشا، الوحيد الباقي على قيد الحياة من أصحاب مجلة «المقتطف» ـ حيث توفي شريكاه الدكتور يعقوب صروف في عام ١٩٢٧ وشاهين مكاريوس في عام ١٩١٠ ـ من هذه الحملة لأن إسماعيل مظهر خالف سياسة مجلة «المقتطف» بخوضه في أمور سياسية وهجومه على الدكتور طه حسين زميل الدكتور نمر في مجمع فؤاد الأول للغة العربية، وبادر بإعفاء مظهر من رياسة تحرير «المقتطف» واختار العلامة نقولا الحداد مترجم نظرية النسبية لإينشتين خلفاً له في رياسة التحرير. ونمر باشا مد الله في عمره وتوفي في عام ١٩٥١ عن ٩٥ عاماً.

وإذا كان عمر مجلة «الكاتب المصري» أطول قليلاً من عامين، فإن مجلة «المقتطف» عاشت ٧٧ عاماً وتوقفت عن الصدور في عام ١٩٥٢.

زكي مبارك

كان «الدكاترة» زكي مبارك يعتقد أن طه حسين هو عدوه الأول لأنه يقف في وجه تعيينه أستاذاً للأدب العربي في جامعة فؤاد الأول، وكان قصاراه أن يعمل مفتشاً للغة العربية على المدارس الثانوية في وزارة المعارف العمومية، وإن كان الحظ ابتسم له مرة واحدة عندما اختارته حكومة العراق للعمل أستاذاً في دار المعلمين العليا في بغداد، ولكن هذا العمل لم يستمر إلا سنة دراسية واحدة بحجة أن الحكومة العراقية قررت إغلاق هذه الدار توطئة لإنشاء جامعة عراقية.

ومن آيات تجنّي زكي مبارك على طه حسين قوله عنه إنه «لا يقرأ ولا يكتب» مشيراً إلى أنه مستعين بغيره في القراءة والكتابة بسبب علة فقد البصر ـ وقوله: «لو جاع أطفالي لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه، إن جاز أن أقدم إلى أطفالي لحوم الكلاب!!» وقد وردت هذه العبارات في ديوان زكي مبارك الموسوم «ألحان الخلود».

وقد تحمل طه حسين هذا الهجاء الغليظ من جانب زكي مبارك. ولو أن شخصاً في يومنا هذا تعرض لمثل هذه الأقوال من زكي مبارك لبادر إلى مقاضاته بتهمة السب والقذف في حقه!

حتى لطفي السيد باشا لم يسلم من قلم زكي مبارك فقال عنه: «إن المقادير أصارته رئيساً للمجمع»!

قذائف النشاشيبي

ومن الحملات الجائرة على طه حسين تلك القذائف الطائشة التي وجها إليه الصحفي الفلسطيني ناصر الدين النشاشيبي في كتابه «حضرات الزملاء المحترمين» حيث زعم أنه عندما كان ضمن المعينين رؤساء لتحرير جريدة «الجمهورية» وعلى رأسهم طه حسين، فإن طه حسين كان يتقاضى راتباً ضخماً دون أن يعمل شيئاً. وواقع الأمر أن طه حسين كان يكتب في تلك الجريدة مقالاً أسبوعياً، سواء عن الآثار الأدبية لبعض الأدباء الشبان أو عن موضوعات ثقافية عامة.

ولما عين حلمي سلام رئيساً لتحرير هذه الجريدة، أطاح بجميع رؤساء التحرير ومنهم طه حسين لكي ينفرد وحده بسلطات التحرير. ولكن هذه السلطات لم تدم له طويلاً، إذ سرعان ما أزيح من منصبه بعد تورطه في نشر وقائع جلسة سرية لمجلس الأمة!

الزجالون اللبنانيون

فإذا انتقلنا من حملات الهجاء على طه حسين إلى عبارات الترحيب والحفاوة به عندما زار لبنان وأمَّ ندوة من ندوات الزجل، فلسنا نستغرب أن يكون طه حسين مكرماً عزيزاً من أعلام الزجالين في لبنان الذين كانوا يرتجلون الزجل بداهة باللهجة اللبنانية اللطيفة مما كان مفاجأة لطه حسين.

وقد سجل صديقنا الدكتور ميشال جحا في موسوعته «أعلام الشعر العامي في لبنان» وقائع هذه الندوة وفيها انبرى أسعد الخوري الفغالي المعروف بـ «شحرور الوادي» بالترحيب بطه حسين قائلاً:

أهــلا وســهــلا بــطــه حـــســيــن
ربــي أعــطــانــي عــيــنــيــن
الــعــيــن الــواحــدة تــكــفــيــنــي
خــدلــك عــيــن وخــلــي عــيــن

فعقَّب زجال آخر اسمه أنيس روحانا قائلاً:

أهــلا وســهــلا بــطــه حـــســيــن
بــيــلــزمــلــك عــيــنــيــن اثــنــيــن
تـــبـــرع شـــحـــرور الـــوادي
مـــنـــو عـــيـــن ومـــنـــي عـــيـــن

وقال الزجال علي الحاج القماطي:

لا تــقــبــل يــا طــه حـــســيــن
مــن كــل واحــد تــاخــد عــيــن
بــقــدمــلــك جــوز عــيــونــي
هـــديـــة، لا قـــرضـــا ولا ديـــن

وهنا قال الزجال طانيوس عبده:

مــا بــيــلــزمــلــو طــه حـــســيــن
عــيــن ولا أكــثــر مــن عــيــن
الله اخــتــصــوا بــعــيــن الــعــقــل
بــيــقــشــع فــيــهــا عــلــى الــمــيــلــيــن

وسيظل طه حسين مالئ الدنيا وشاغل الناس، بين راضٍ عنه وساخط عليه، وهو في الحالين صامت لا يرد.





ذكريات أدبيّة

البقر المحسود

عرفت الشاعر المهجري رشيد سليم الخوري (١٨٨٧ ـ ١٩٨٤) المكني بالشاعر القروي بالمراسلة أولاً، وهو لم يزل في سان باولو بالبرازيل (وقد عرب اسم العاصمة إلى صنبول)، ثم عرفته بالمشافهة عندما زار مصر للمرة الأولى والأخيرة في زمن الوحدة المصرية السورية، ثم بالمراسلة بعد ذلك بعدما استقر في قريته «البربارة» في لبنان.

وكان القروي شاعراً عربياً لم تلون الهجرة نصاعته ولا التوت بلسانه، حتى أصبح يمثل بحق أعلى المنازل في ديوان العرب. وهو قد حمل منذ يفاعته قضية أمته، فسخر شعره للوطنيات والقوميات، حتى وصف نفسه بأنه «بوق العروبة»، وإن كان هذا لم يمنعه من تناول الأغراض المتباينة للشعر.

وعند هجرته إلى البرازيل، حيث أقام نصف قرن كامل، افتتح لنفسه مصنعاً لربطات العنق (وكان يسميها الأرب) ولكنه كان دخيلاً على دنيا الصناعة والتجارة دون خبرة سابقة فأفلس وأغلق مصنعه، فكان لا غنًى له عن أن يطلب الرزق كسائر المهجريين بحمل «الكشة» (وهي صندوق يحتوي على عينات من البضائع يجتهد في بيعها لطالبيها من الزبائن كأي «قومسيونجي») وكان مضطراً إلى السفر مسافات طويلة قاطعاً الفيافي والغابات والمستنقعات من مدينة إلى أخرى في سبيل كسب القوت.

وكان في أثناء رحلاته يرى البقر البرازيلي سارحاً في المروج آمناً على نفسه من غدر السفاكين، فلم يملك إلا أن يحسد البقر على حريته

وأمنه، وعبر عن ذلك في قصيدة قابل فيها بين البقر والبشر حيث قال:

طوباك سارحة في القفر طوباك — إن كنت أحسد مخلوقاً فإياك

* * *

الزهر مثلك في الآفاق تنتشر — تغشى مروج العلى والليل معتكر

تالله كم يتمنى عيشك البشر — ماذا تخافين في البيداء يا بقر؟

إن كنت تخشين من أنياب فتاك — طوباك، فالجلد غير العرض طوباك!

* * *

سيري الهوينا معاً في السهل والجبل — الرزق حولك موفور فلا تسلي

يا ليت لي في صحارى الجد والعمل — بعض الذي لك ميسوراً على مهل

إن كنت تشكين من صخر وأشواك — طوباك، فالقفر غير الفقر طوباك!

* * *

طوباك في الصيف والرمضاء تتقد — والحر منه يذوب الجلد والجلد

هذا اللهيب الذي يُشوى به الجسد — أشد منه على أكبادنا الحسد

إن كان منه الذي سواك نجاك — طوباك في لفحة الرمضاء طوباك!

* * *

تشكين فصل الشتاء البارد القاسي؟ — ماذا أقول أنا في عشرة الناس؟

نامي على الثلج نامي، ليس من باس — فالثلج غير فؤاد دون إحساس

وإن تكن هاطلات الغيث تغشاك — طوباك، فالقطر غير الدمع طوباك!

* * *

طوباك في مربع الحرية الخصب — بين الأزاهر والأمواه والعشب

لو تعلمين عن الإفرنج والعرب — وما يلاقيه في الأوطان كلّ أبي

ما كنت تخشين من سكين سفاك — طوباك، فالموت غير الذل طوباك!

وهكذا طوع الشاعر القروي حياة البقر لخدمة أغراضه القومية والتنديد بالإفرنج الذين ما زالوا يسومون العرب ألواناً من الذل والاستغلال والتعالي.

خروف العيد وتوابعه

كان خروف العيد أهم «شخصية» في عيد الأضحى الماضي، حيث تكالب المقتدرون على شرائه والتضحية به في مناسبة عيد الأضحى المبارك، وكان الخروف ـ ويسميه إخواننا التوانسة بالكبش ـ باباً من أبواب الشعر الكثيرة، طرقه الشعراء في منظوماتهم، ومثله البقر والأوز وكذلك القطط والكلاب.

ومن المستطرفات الشعرية التي دارت حول خروف العيد ما سجله الشاعر محمد الأسمر (١٩٠٠ ـ ١٩٥٧) في ديوانه الضخم راوياً فيه المطارحات الشعرية التي جرت بينه وبين الشعراء: محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥)، وعلي الجندي (١٩٨٩ ـ ١٩٧٣)، والضابط عبد الحميد فهمي مرسي (المتوفى في ٢٩ يوليو ١٩٩١).

وقد عرفت الأسمر وعبد الغني والجندي، ولكن الظروف لم تهيىء لي معرفة رابعهم الضابط.

أما الأسمر فكان أزهرياً حافظ على السمت الأزهري في هندامه ولم يتفرنج كغيره من أبناء الأزهر. وكان زينة المجالس، بسبب روحه الفكهة وحديثه الشهي وقدرته على استعادة النوادر والمستطرفات من الأدب القديم والحديث. تراه يتصدر ندوة أنطون الجميل باشا (١٨٨٧ ـ ١٩٤٨) في جريدة الأهرام، أو في بار الأنجلو حيث يجتمع رجال السياسة والأدب والفن، بل تراه في بيت الزعيمة النسائية هدى شعراوي (١٨٧٩ ـ ١٩٤٧) وفي جريدة «الزمان» المسائية التي كان يشرف فيها على الصفحة الأدبية ويشجع ناشئة الأدب وبراعم الشعراء بما يقدمه لهم من الجوائز.

وصفه صديقه محمد عبد الغني حسن بقوله: إن الأسمر هو خير من ينطبق عليه القول الحكيم: «تحسبهم أغنياء من التعفف»، فهو لم يكن غنياً ولكنه كان ذا أنفة وكبرياء، تحسبه واحداً من الباشوات وهو في مجلسهم، وإن كان حظه من الدنيا حظ المدرس ليس إلا. وقد سرني أن أرى موطنه

دمياط يطلق اسمه على مدرسة تصافح المسافر وهو يهم بدخول هذه المدينة التي أنجبت كثيراً من الشعراء.

أما محمد عبد الغني حسن فقد عرف «بشاعر الأهرام» لأن أنطون الجميل باشا كان يحتفي بشعره في الجريدة، بل قدم ديوانه الأول «من نبع الحياة». كان أديباً أصيلاً متمكناً ومجمعياً فذّاً ومفكراً موسوعياً، تشهد على ذلك كتبه في السيرة الأدبية والنقد الأدبي وتحقيق التراث والدين والترجمة، وما إليها.

وأما علي الجندي فهو درعمي كزميله محمد عبد الغني حسن، تولى العمادة في دار العلوم، وعرف بأسلوبه العربي البليغ المبين في كل كتاباته (وقد نشر فصولاً كثيرة في مجلة «الهلال»)، وكان يعيش بروحه في العصور الذهبية للأدب واللغة، فتأثر بها حتى في عناوين كتبه التي حاكى فيها كتب الأولين ككتابه الجميل «الشذا المؤنس في الورد والنرجس».

وكان علي الجندي قد زار دمشق الفيحاء في أيام الوحدة المأسوف على شبابها ضمن وفد من الأدباء المصريين، وهناك نعمت شيخوخته برعاية الشاعرة السورية الحسناء عزيزة هارون (توفيت في ١٣ فبراير ١٩٨٦) فألهمت خياله شعراً ونثراً مما سجله غب عودته إلى القاهرة في كتاب عنوانه: «خمسة أيام في دمشق الفيحاء»، حفل بآيات التغني بهذه الشاعرة الشقراء، فانبرى له أحمد رشدي صالح (١٩٢٠ ـ ١٩٨٠) منتقداً إياه في جريدة «الجمهورية» على اعتبار أن هذا الغزل لا يليق بشيخ جليل مثل علي الجندي.

أما الضابط عبد الحميد فهمي مرسي، فقد كان بدوره شاعراً، وإن كنت لا أدري هل جمع شعره في ديوان منشور أو تراخى في ذلك.

وقد تحلق الشعراء الأربعة حول خروف العيد في أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) حيث تفاقم الغلاء وعز على الكثيرين أن يظفروا بهذا الخروف بسبب ضيق ذات اليد وارتفاع سعره.

وكان الشاعر محمد الأسمر يعرف أن لصديقه الضابط عبد الحميد فهمي مرسي ضيعة في المنيا يربي فيها الخراف والماشية، فهداه تفكيره إلى مناشدة هذا الصديق الأريحي إعارته خروفاً له وآخر لعبد الغني وثالثاً للجندي يتباهون بها أمام الجيران في العيد، ثم يردونها إلى صاحبها كأي قرض حسن! فليس

يطلب من خروف العيد إلا أن يثبت وجوده «بالمأمأة» فتعرف الدنيا أن صاحب الخروف على يسار، وليس يهم بعد ذلك أن يذبح هذا الخروف في العلن أو في السر ما دام قد أدى وظيفته التمثيلية أمام الملأ!

فوجه الأسمر رسالة شعرية إلى الضابط عبد الحميد مرسي جاء فيها:

عبد الحميد، وأنت معوان إذا ... هز الخدين حبال ود خدينه
إن كان «ذو القرنين» عندك حاضراً ... فابعث به لنرى ضياء جبينه
ولكي نشاهد حسنه وجماله ... ونرى اقتدار الله في تكوينه
ولكي يجاوب ـ لو يمأمىء مثله ... في بيت جاري ـ مأمآت قرينه!!
وليعلم الجيران أجمع أنني ... إن جاء عيد لم أضق بشؤونه
ولكي يراه من أساء ظنونه ... بدراهمي، فأنال حسن ظنونه!!
وليطمئن الدائنون ويعلموا ... أني امرؤ يقضي جميع ديونه
ولكي يشرفنا بطيب حضوره ... فبه من التشريف كل فنونه
ونرده لك بعد ذلك سالماً ... بدمقس فروته، وعاج قرونه!!
وأنا الأمين عليه وهو بمنزلي ... من كل جزار، ومن سكينه
يغدو غداة النحر لم يمرر على ... (سفود) عند النحر أو (طجينه)
يمسي ويصبح وهو عندي آمن ... من فلفل الطاهي ومن كمونه
فابعث به عبد الحميد فإنه ... شيء يرد إليكم في حينه
لسنا نميل إلى نعاجك بل إلى ... كبش لك التفويض في تعيينه!!

وبمجرد أن تلقى الشاعر الضابط هذه الرسالة، كلف قريباً له اسمه عبد العزيز سلطان بأن يبعث من ضيعته في الصعيد بأربعة خراف توزع بالقسطاس بين الشعراء الثلاثة، أما الخروف الرابع فهو لصاحب الضيعة الضابط.

وتم شحن الخراف بسكة الحديد، ووصلت إلى وجهاتها في آخر المطاف.

ولكن الشاعر الأسمر رأى أن الخراف هزيلة تشبه الهرة في حين أنه كان يتوقع كبشاً مسمناً غزير اللحم والشحم، فبعث إلى صديقه الضابط بقصيدة عتاب جاء فيها:

ويح عبد العزيز أرسل هرات ... إلينا وقال عنها خراف!!

لم تمأميء، بل نونوت فضحكنا   ثم قلنا: ما ذلك الإسراف؟

أهدايا، أم تلك بعض الرزايا   رب سلم ونج مما نخاف!

* * *

أربع أقبلت، فقلت خراف   ما تراه العيون، أم أطياف؟!

كان منها لنا خروف عجيب   هو من فرط ضعفه شفاف!

لاح كالوهم، بل هو الوهم يمشي   لا خروف جاءت به الأرياف

هو بين الكباش كبش صناعي   وزيف أدقه المزياف

أثريّ من عهد يوسف موميا   خلفته لنا السنون العجاف!

ليس فيه من الخراف التي نعـ   ـرف إلا القرون والأظلاف!

كم تمنى أطفالنا أن يروه   ورأوه، فأنكروه وخافوا

* * *

يا صديقي عبد الحميد أهذا   ما رجونا، وعندك الإنصاف؟!

إن عبد العزيز مال عن الحـ   ـق فأين الوفاء والإنصاف؟!

كبشه وهو كبشكم حين وافى   حار فيه الجزار والعلاف

أبصرته القدور عندي فمالت   ضاحكات، وفرت الأضياف

خذه عبد الحميد خذه، وحسبي   هبه حكماً أما له استئناف؟!

أما الشاعر عبد الغني حسن، فقد قنع بحظه المقدور من خروف العيد، على اعتبار أن أي خروف خير من لا خروف! فبعث إلى صديقه الضابط بأبيات شكر جاء فيها:

وصل الخروف وقد حسبتك مازحاً   فإذاك قد بالغت في تسمينه!

الله زيّنه بكل جميلة   وجميل صنعك زاد في تزيينه

للأسمر المحبوب فضل وصوله   لا تتخذ لك صاحباً من دونه

هو واحد متفرد في شعره   وجماعة في ظرفه وفنونه!

قد دلني يوماً عليك ولم يكن   إلا دليل الخير في تبيينه

* أما الشاعر علي الجندي، فقد سكت عن الكلام المباح، فلا عاتب المهدي ولا شكره على هديته.

وهكذا دخل خروف العيد في ديوان العرب!

والأوز تنضم إلى ديوان العرب

درج الشاعر التونسي محمد الشاذلي خزنة دار (١٨٨١ ـ ١٩٥٤) ـ ويطلقون عليه في بلاده لقب «أمير شعراء الخضراء» ـ على أن يقتني في بيته أسراباً من الأوز، يربيها ويحتفي بها على مائدته لأنها طعامه المفضل. فلما تعرض للسجن على أيدي السلطات الفرنسية، بعث إلى زوجته برسائل يطمئنها على أحواله ويوصيها بما يتراءى له، ويشجعها على احتمال لوعة الفراق، لأن حياة السجن لن تلبث أن تنقضي، ولم ينس الشاعر أن يوصي زوجته بقطيع الأوز الذي يقتنيه، ربما لخشيته من أن تنتهز زوجته فرصة غيابه، وتستأثر بمأدبة الأوز لها ولصويحباتها! فوجه إليها أبياتاً قال فيها:

كوني معي قرباً وبعداً وإنني	أهوى عفافك، فالعفاف ردائي
فيك الفضائل كلها جمعت فما	حسناء فيهم شابهت حسنائي
صوني الأوز، وبشريه بأنني	في يوم إطلاقي من الطلقاء!

وطبيعي أن إطلاق سراح الأوز لن يعفيه من احتلال مكانه العتيد على موائد أمير شعراء الخضراء!

والقطط والكلاب في ديوان العرب

وقد نظم عدد من الشعراء قصائد في مقتنياتهم الأليفة من القطط والكلاب، ولا سيما عند فقدها.

فقد رثى العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) كلبه «بيجو»، ورثى أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) قطته، ورثى الشاعر حسن كامل الصيرفي (١٩٠٨ ـ ١٩٨٤) قطته.

وهي نماذج ثلاثة تغني عن رصد نماذج أخرى كثيرة في دواوين الشعراء.



نشيد أمير الشعراء

ليس من باب الحسد أن أتناول موضوع الجوائز الأدبية التي تعددت في هذه الأيام وظفر بها من ظفر ولم يحظ بها من عانده الحظ، والجائزة الوحيدة التي استطعت اقتناصها في مرحلة الحياة هي جائزة فاروق الأول للصحافة الشرقية وقد منحتها في عام ١٩٤٩ ولم تزد قيمتها على خمسين جنيهاً!

وللجوائز الأدبية تاريخ قد تكون في استذكاره عبرة لمن تداعبهم أحلام الحصول على الجوائز المادية السخية التي تقوّم بعملات الدولار والإسترليني والدرهم والريال واليورو وأحياناً بالجنيه المصري.

في عام ١٩٢٠ أو نحوه أعلنت «لجنة الأغاني» عن مسابقة بين الشعراء لنظم النشيد القومي المصري، فتقدم إليها نحو خمسين شاعراً منهم مصطفى صادق الرافعي ومحمد الهراوي وعبد الرحمن صدقي وغيرهم. أما الشاعر أحمد شوقي فقد تخلف عن المشاركة في هذه المسابقة في الموعد المقرر لإغلاق الباب. وعز على لجنة الأغاني برياسة جعفر والي باشا أن يتخلف أمير الشعراء عن المشاركة في هذه المسابقة، فقررت مد الأجل المضروب كيما تتهيأ لشوقي فرصة التقدم بنشيد من شعره. ولم يخيب شوقي ظن اللجنة فتقدم بنشيد مطلعه:

بني مصر مكانكمو تهيّا ... فهيّا مهدوا للملك هيا

في حين كان مطلع نشيد الرافعي ـ الذي سحبه عندما أدرك أن شوقي خاض المعمعة:

إلى العلا إلى العلا بني الوطن ... إلى العلا كل فتاة وفتى

أما قصيدة الشاعر عبد الرحمن صدقي فكان مطلعها:

يا بني النيل وأحفاد الألى   أطلعوا الفجر لتاريخ قديم

وبعد فحص القصائد المقدمة للجنة الأغاني قررت اختيار قصيدة الشاعر شوقي ومنحتها الجائزة وهي مائة جنيه، فبادر شوقي بالتبرع بقيمة الجائزة إلى نادي الموسيقى.

فلم يكن شوقي في حاجة مادية إلى هذه الجائزة في حين كان الرافعي أحوج ما يكون إليها، وهو ما أثار غيظه من الشاعر ومن لجنة التحكيم.

وكيف لمصطفى صادق الرافعي أن يسكت على هذه «المهزلة»، فأصدر كتاباً من مائة صفحة ـ لأن قيمة الجائزة مائة جنيه! ـ حمل فيه حملة شعواء على لجنة التحكيم وأوضح ما في قصيدة شوقي الفائزة من عيوب شعرية، وأكد أن نشيده هو وحده الأحق بهذه الجائزة، ولم يكتف بذلك، بل مضى ينظم أناشيد أخرى ليبرهن على تميزه في هذا الميدان وكانت مطالعها:

حماة الحمى، يا حماة الحمى
هلموا هلموا لمجد الوطن
بلادي هواها في لساني وفي دمي
يمجدها قلبي ويدعو لها فمي
اسلمي يا مصر إنني الفدا
ذي يدي إن مدت الدنيا يدا

وكان صديقي الأديب محمود أبو رية على صلةٍ وثيقة بمصطفى صادق الرافعي بل كان يعد نفسه تلميذاً له وقام بنشر رسائله. وحتى يلقي ظلالاً على هذه المسابقة بعث إليَّ برسالة قال فيها: «أخبرني نجيب أفندي الغرابلي المحامي، وهو من أعضاء لجنة التحكيم، أن نشيد الشاعر محمد الهراوي ليس له، وإنما هو للشيخ محمد عبد المطلب (المعروف بالشاعر البدوي) وهذا شائع في مصر، فلعن الله مثل هذا الأديب وأهله!».

ومع أن عباس محمود العقاد ـ وهو أيضاً شاعر، لم يشترك في هذه المسابقة، فقد اعترض بدوره على قرار لجنة الأغاني وانحاز إلى تلميذه عبد الرحمن صدقي حيث قال في كتابه «الديوان في الأدب والنقد»:

«قصرت لجنة الأغاني للحكم في أناشيد الشعراء، وأولت نفسها هذه الكفاءة، وإنها لكفاءة تتطلب الإحاطة بأشياء جمة، قلَّ بين أعضاء اللجنة من يعدّ ثقة في واحد منها». واستطرد فقال: «كان من جملة المحكمين أعضاء من المغنين والعوادين جيء بهم ليحكموا في أي الأناشيد أصلح للفخر القومي وأشد اعتلاجاً في النفس وانبعاثاً للحمية ومطابقة لنفسية الأمة. ولا تنس أن اللجنة حكمت المويلحي، وهو رجل تصل إليه هدايا شوقي، وحكمت الشاعر حافظ إبراهيم وقد عرف أصحابه أنه يتقي أن يُرمى بالحسد إن أومأ بالنقد إلى قرينه (يقصد الشاعر شوقي). وانتهى العقاد إلى تفضيل نشيد الشاعر الشاب عبد الرحمن صدقي على نشيد شوقي الفائز بالجائزة.

ولكن، إذا كانت الجائزة «طارت» من مصطفى صادق الرافعي في مسابقة لجنة الأغاني، فقد اقتنصها في مسابقة أخرى جرت في عام ١٩٢٨ عندما نظمت جمعية الشبان المسلمين مسابقة بين الشعراء لاختيار نشيد لها، فكتب الرافعي إلى تلميذه أبي رية يقول: «رجعت بالأمس من مصر وقد فزنا والحمد لله فوزاً عظيماً في جمعية الشبان المسلمين، إذ عرضت الأناشيد كلها، فقرروا اتخاذ النشيد الذي مطلعه «ربنا إياك ندعو» وكان القرار بالإجماع وطبع النشيد في كراسة صغيرة وطرح للتلحين وأرسل لجميع صحف العالم العربي، والحمد لله على هذا التوفيق».

وكان الشاعر أحمد شوقي قد تقدم بنشيد في هذه المسابقة ولكنه لم يفز بالجائزة.

وأياً كان الحكم في الجوائز الأدبية، ولمن تمنح جوائزها المالية، ففي رأيي أن كل مال يؤول إلى الأدباء تقديراً لمنجزاتهم أو لشخصياتهم هو مال حلال؛ لأنه إن لم ينفق في هذا الغرض فالأرجح أن ينفق في أغراض دنيوية أخرى لا تتصل بالأدب أو بالثقافة بأي صلة.

والعزاء العزاء لم تتخطاه الجوائز أيا كانت أسماؤها أو مسمياتها.





من يرعى تراث الأدباء الراحلين؟

عندما بلغ صديقي شاعر الأقطار العربية خليل مطران بك السابعة والسبعين من عمره وأدرك بعدما تكالبت عليه أمراض الشيخوخة المقعدة أن فسحة العمر باتت قصيرة وأن الأجل لن يلبث أن يحين في وقت قريب (حيث توفي في ٣٠ يونيو ١٩٤٩) نظم قصيدة يودّعُ بها الدنيا اختار لها عنوان «الشاعر يوقع على وتره الأخير لحن الرضا وسكينة النفس» جعل مطلعها:

ماذا يريد الشعر منِّي　　　أخنى عليه علوّ سنِّي

وكان مما جاء فيها قوله:

فإذا تولّينا، فهل　　　أسماؤنا منَّا ستُغْني؟

وهو تساؤل عبر به الشاعر عن شكه في أن يذكره الناس بعدما يدير ظهره لهذه الدنيا، ولعلهم يذكرون اسمه وحده دون شعره وكل آثاره.

ورحت من ناحيتي أستعرض أسماء من عرفت من أعلام الأدب في عصري، يلح عليّ سؤال: هل ما زال الناس يذكرونهم بعدما «تولوا» أو أن جائحة النسيان محت ذكراهم؟

وكانت الخاطرة الأولى التي عرضت لي هي التساؤل عمن يصح أن يكونوا هم حراس آثار الأدباء، والقيّمين على تاريخهم بعد رحيلهم. أليس أبناء الأديب هم أحق الناس بإحياء ذكراهم واستحياء المفاخر التي سجلوها في مصنفاتهم؟ ولكن جاء الجواب على هذا التساؤل مفجعاً: لا، لأن الأبناء افتقروا إلى خصلة الوفاء لذكرى أبيهم، بل لأنهم اتخذوا لأنفسهم مساراً مغايراً لمسار أبيهم، فلم تشغلهم مآرب الأدب، ولا شدتهم دنيا المطابع، وهم قد رأوا الأب يشقى ويكافح ويواصل العمل ليل نهار، ثم يكتشف أن حظوظ الأدباء هي أدنى الحظوظ، وأن الأدب لا يطعم خبزاً، فلاذوا بالفرار منه.

وكانت دور النشر في الماضي تحرص على إعادة طباعة الكتب بعد نفادها، ولكنها باتت في عصرنا الحالي تؤثر الجديد على القديم، ولم يعد المرء يجد ضالته من الكتب التي ينشدها إلا على سور الأزبكية ـ إن وجدت ـ أو في مستودعات الورّاقين الذين يجمعون الكتب القديمة للمساومة على أسعارها. وإذا استعرضنا أسماء بعض من عرفت من أعلام عصري، ألاحظ أن صديقي محمد عبد الغني حسن أنجب أربعة من البنين وخامسة، فاختار ثلاثة منهم التخصص في الهندسة وتخصص اثنان في الطب، وركبوا جميعاً مراكب الهجرة.

وصديقي وجاري محقق التراث محمد أبو الفضل إبراهيم أنجب طبيبين ومهندسة وموظفة فتفرغ كل منهم لحياته العملية.

وصديقي الدكتور محمد صبري السوربوني رزق ولدين هاجرا إلى فرنسا، أما ابنته فهي ربة بيت. وصديقي علي أدهم أنجب مهندساً معمارياً ومهندساً زراعياً وسيدة أعمال.

وصديقي الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي أنجب مهندس كمبيوتر.

وفي اعتقادي أن من التعسف الظالم أن ننتظر من هؤلاء الأبناء أن يهتموا بتراث عميدهم الراحل، فدنياهم غير دنياه، ومستقبلهم مرهون بنجاحهم في تخصصات كل منهم، فلا لوم على أحد منهم ولا عتاب، وحسبهم أن يكونوا بنجاحهم في مضامير الحياة «شهادة» حيّة على التربية القويمة التي صادفوها في كنف الأديب الراحل.

ودع عنك أن هناك من رحلوا دون أن ينجبوا مثل الشاعر عادل الغضبان وإبراهيم المصري وعميد الصحافة الدكتور خليل صابات والشاعر حسن كامل الصيرفي والناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي الذي لم يتزوج أصلاً، فمن يرعى تراث هؤلاء بعد رحيلهم؟

أبناء بررة

على أن هناك فئة أخرى من الذين كانوا أوفياء لذكرى عميدهم الراحل، وحرصوا عند رحيله على إحياء ذكراه بصورة عملية، وهي إعادة طبع آثاره

النافدة وإحياء آثاره المخطوطة، أذكر منهم من قبيل المثال الجميل من عرفتهم، فليس وكدي أن أوسع الدائرة لتشمل أبناء بررة لم أعرفهم.

وهذه الفئة من الحريصين على تراث عميدهم الراحل تشمل الأديبة كريمة زكي مبارك التي تسهر على نشر تراث أبيها الراحل «الدكاترة» زكي مبارك ولا سيما لأنه تعرض لجحود مميت في حياته. كما تشمل رجل القانون المستشار رابح لطفي جمعة الذي لم يكتف بنشر سيرة أبيه العلامة محمد لطفي جمعة، بل نشر عشرات من ضخام الآثار التي خلفها أبوه ولم يبخل بماله الخاص في سبيل إخراج هذه النفائس. كما تشمل فئة البررة الأوفياء الدكتور رؤوف سلامة موسى الذي يحرص على ألا يكون أي كتاب لأبيه سلامة موسى في عداد الكتب النافدة أو المفقودة، فهو يعيد طباعة كل كتاب نفد في السوق بحيث صارت كل آثار سلامة موسى متاحة بصورة دائمة.

وهناك الأديبة صفية أبو شادي كريمة الدكتور أحمد زكي أبو شادي التي بفضلها أمكن نشر دواوينه المخطوطة الأربعة وكذلك تسعة من دواوينه النافدة، وما زالت تعتبر نفسها في مهجرها السحيق القيِّمة على تراث أبيها والمحيية لمجده الأدبي والمدافعة عنه من مناوئيه.

فإذا انتقلنا إلى لبنان، صادفنا الدكتورة بيان نويهض الحوت ابنة صديقنا العلامة عجاج نويهض، فهي لم تكتف بنشر مذكراته المخطوطة التي أملاها عليها، بل تواصل نشر كتبه وأيضاً رسائله التي تبادلها مع أعلام عصره، وهي رسائل حرص عجاج نويهض على أن تضم رسائله هو وما تلقاه من ردود عليها من مراسليه. فهو قد كان يحتفظ بصورة من جميع رسائله، وهي عادة أثرت عن الدكتور أحمد زكي أبي شادي وعن الأديب التونسي الشاذلي زوكار الذي رحل مؤخراً.

ومن أولئك الأبناء البررة الدكتور أحمد علي الجارم نجل الشاعر الكبير علي الجارم الذي يتعرض للنسيان من جانب المجتمع الأدبي المعاصر، فنهض الابن بنشر سيرة حياة أبيه وكذلك دواوينه. وكم سعدت عندما عرفني أستاذنا الكبير الدكتور الطاهر أحمد مكي برصيفه في مجمع القاهرة الدكتور أحمد علي

الجارم ونحن جالسان في قاعة المجمع خلال مؤتمره السنوي.

وهناك أيضاً السيدة كيتي نقولا يوسف، الابنة الوحيدة للأديب السكندري الدمياطي الأصل نقولا يوسف الذي كان عمدة للأدباء في الشعر، فهي برغم اشتغالها بالتدريس قد توافرت على إعادة نشر «موسوعة أعلام الإسكندرية» التي صنفها أبوها في جزءين. . ولو توافرت لها الأسباب لأعادت نشر «موسوعة أدباء دمياط» وكذلك الآثار الروائية لنقولا يوسف.

ومن أبرّ البنات بأبيها الدكتورة ليلى القرشي الحاصلة على درجة الدكتوراه في التخطيط التربوي ولها ديوان منشور، وهي ابنة الشاعر السعودي الراحل حسن عبد الله القرشي. ولأنها تقيم في القاهرة، فقد درجت على إحياء ذكرى ابيها السنوية في حفل حاشد يحفل بالمتحدثين شعراً ونثراً، كما أعادت نشر بعض دواوينه ومنها رباعياته وكتابه عن الأعلام الذين عرفهم وطائفة من الدراسات التي أعدت حول شعر القرشي. كما حرصت الدكتورة ليلى على تسجيل إنشاد الشاعر لشعره بصوته في شريط أتيح سماعه لجمهرة المشاركين في إحياء الذكرى.

أما جلال سيد ندا، النجل الوحيد للشاعرة جميلة العلايلي فقد نحا نحواً جديداً في تكريم والدته، وذلك بإنشاء متحف في بيتها في عين شمس يضم آثار الشاعرة المنشورة والمخطوطة وصورها ووسائلها وأوراقها الشخصية وسيرتها الذاتية المخطوطة ومجموعة مجلة «الأهداف» التي حررتها وبعض متعلقاتها الشخصية، عدا أنه سجل شريطاً بصوتها يضم الأحاديث الإذاعية التي أجريت معها، وأعد سيناريو مخطوطاً في حالة استخدامه في إخراج فيلم وثائقي عن جميلة العلايلي. هذا عن أبناء الأدباء الراحلين.

ولكن الشاعرة ملك عبد العزيز زوجة الدكتور محمد مندور كانت شديدة الحرص على نشر كتبه، وهو ما سايرها فيه الدكتور طارق نجل الدكتور مندور.

كما أن المستشار السباعي شاهين زوج كريمة صديقنا المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك انبرى بدوره لاستحياء آثار صهره ولا سيما عندما أمر

الرئيس أنور السادات أنيس منصور عندما كان رئيساً لدار المعارف بإعادة طباعة ١٩ كتاباً من تأليف الرافعي.

ولا ننسى دور عامر العقاد ابن شقيق عباس محمود العقاد في إعادة نشر تراث عمه لا في مصر وحدها بل كذلك في بعض البلدان العربية. ناهيك عن أن عامر العقاد كان يقيم في كل عام حفلاً لذكرى العقاد في عيد مولده وليس في مناسبة وفاته، وهي مناسبة شهدتها عدة مرات ولكنها توقفت هي وطباعة كتبه بعد وفاة عامر العقاد.

أريحيون

ولكن إذا كانت رابطة القربى والرحم هي التي تعتبر الحافز الأكبر في العناية بتراث الراحلين، فإن هناك رجالاً لا أصفهم إلا بأنهم أريحيون نهضهوا بإخراج تراث أدباء راحلين، وكان دافعهم إلى هذا هو مجرد الوفاء. وفي طليعة هؤلاء الأريحيين الشيخ عبد المقصود خوجة راعى دار «الاثنينية» في جدة، وهو قد نهض بجهد جبار في سبيل نشر المجوعات الكاملة لعدد من الشعراء منهم الشاعر السعودي محمد حسن فقي وصديقي الشاعر المهجري زكي قنصل وصديقي الشاعر والسفير السابق حسين سراج باشا (والد الصحفية منى سراج) والشاعر الحجازي عبد الله بلخير والأديب السعودي عزيز ضيا والأديب السعودي محمد حسين زيدان وغيرهم وغيرهم.

وفي لبنان دأب صديقنا جان داية على إعادة نشر تراث صديقنا الأديب اللبناني المهجري سعيد تقي الدين.

وعزّ على الأديبين السعوديَّيْن عبد الحميد مشخص ومحمد سعيد الباعشن أن يبقى تراث صديقنا الشاعر والأديب السعودي الكبير محمد حسن عواد طي النسيان، فقاما بنشر المجموعة الكاملة لآثاره الشعرية والنثرية. وكان الشاعر عواد يعتبر الوطن العربي كله «منتجعاً فسيحاً» وهو تعبير استحدثه عوضاً عن عبارة «الوحدة العربية».

مساعٍ لم تكلل بالنجاح

واستكمالاً لهذا الحديث أذكر أن صديقي الشاعر المهجري إلياس فرحات كان يقول لي في رسائله إنه يعيش بين أعجام، فليس في أفراد أسرته ولا في محيطه المباشر من يعرف حرفاً من اللغة العربية التي يعتبرونها رطانات وطمطمانيات! ولهذا صارحني بأنه على استعداد للتنازل عن جميع حقوقه هو وورثته من بعده في إعادة نشر آثاره الشعرية والنثرية إن وجد لها ناشراً في الوطن العربي، وفوضني في أن أفاتح دور النشر المصرية في هذا العرض فلم أجد استجابة من أحد.

وبعد وفاة صديقنا الشاعر عادل الغضبان الذي أبت عليه نفسه وهو مدير لدار المعارف أن يستغل منصبه في نشر ديوانه ـ أقول إنه بعد وفاته توجه صديقنا محمد عبد الغني حسن إلى المسؤولين في الدار وأعرب عن استعداده لجمع شعر الغضبان المتناثر لنشره عن طريق الدار، فلم يجد أي ترحيب من خلفاء عادل الغضبان.

وبعد وفاة صديقنا صالح جودت الذي كان من أركان «دار الهلال». . . توجه صديق الطرفين الدكتور مختار الوكيل إلى رئيسة مجلس الإدارة السيدة أمينة السعيد وأعرب لها عن استعداده لتأليف كتاب عن صالح جودت ينشر في سلسلة «كتاب الهلال»، فلم يسمع منها إلا عبارة «إلّا ده»! فانصرف كاسف البال.

هذه أخبار أدبية وقفت عليها بنفسي وأحببت أن أسوقها من قبيل التعليق على تساؤل صديقي الشاعر خليل مطران بك:

فإذا تولينا، فهل أسماؤنا منا ستغني؟



عندما هدد يونس بحري
بشنق العقاد وأم كلثوم

كنت في شبابي الأول من قراء مجلة «اللطائف المصورة» التي كان يصدرها إسكندر مكاريوس الذي ارتبطت بصداقة معه عندما عملت بالصحافة بعد ذلك، وكان قد عطل مجلته أمام المنافسة الشرسة من جانب مجلة «المصور» بطباعتها الفاخرة على النقيض من الطباعة البدائية نسبياً لمجلة «اللطائف».

وكنت ألاحظ أن لهذه المجلة مراسلاً في إندونيسيا اسمه يونس بحري تتلقى المجلة رسائله وتنشرها، ثم علمت في فترة تالية بأنه حاول إصدار مجلة عربية هناك.

ظل اسم يونس بحري عالقاً بذهني قبل أن أفاجأ بعد قيام الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ بأن هذا العراقي قد أصبح المذيع الرسمي باللغة العربية لحكومة هتلر النازية من راديو برلين مع زميل له يذيع باللغة الإنجليزية اسمه اللورد هاوهاو، ولعله ألماني أتقن اللهجة البريطانية كيما يحسبه الإنجليز واحداً منهم.

كان يونس بحري يذيع خطب زعماء الرايخ الألماني - هتلر وجورنج وهملر وجوبلز وهيس - وغيرهم، كما كان يذيع نشرة الأخبار باللغة العربية مهللاً لانتصارات ألمانيا على دول الحلفاء، وكيف اجتاحت الجيوش النازية بلدان أوروبا بسهولة - بما فيها فرنسا - وكأنها سكين لا تجد مشقة في اختراق قطعة من الزبد. وكان يونس بحري ذا صوت مجلجل كالرعد، يبدأ إذاعته بعبارة «حي العرب» ثم يخاطب العالم العربي بلهجة تشعرك بأنه قائد معركة

مظفرة في ميدان الحرب، وأن لسانه هو في حقيقته جحافل من الجند الأشاوس. وكان يبشر طبعاً في أحاديثه بل خطبه المنبرية بأن النصر النهائي في الحرب معقود لألمانيا النازية بزعامة هتلر وزميله الفاشي موسوليني، وقد انضمت اليابان إلى محورهما فيما بعد. وكان يتكلم بثقة مؤكداً أن الزحف الهتلري لا بد أن يصل إلى مصر ويحررها هي وكل البلاد العربية من النظم الاستعمارية الطاغية. وعندما غامر عباس محمود العقاد بنشر كتاب عنوانه: «هتلر في الميزان» توعده يونس بحري بالشنق هو وأم كلثوم عندما تصل جيوش المحور إلى القاهرة. فما كان من العقاد ـ الكاتب الجبار ـ إلا أن ركب أول طائرة قاصداً الخرطوم طلباً للسلامة، وهي المرة الأولى والأخيرة التي ركب فيها طائرة لأنه كان يهاب السفر بالطائرات. ولم يعد من الخرطوم إلّا بعدما نجح القائد البريطاني الفيلد مارشال مونتجمري في دحر قوات المحور بقيادة الجنرال روميل في معركة العلمين، وكان من نتيجة انهزام رومل أن أقدم على الانتحار.

وكنا نجد صعوبة في التقاط إذاعات راديو برلين لأن دول الحلفاء كانت «تشوش» على هذه الإذاعات حتى لا يعرف المستمعون من العرب الحقائق المتعلقة بسير الحرب، ولا سيما عندما كان التفوق فيها معقوداً للمحور، بحيث لا يلتقطون إلا الإذاعات الصادرة عن الإذاعة البريطانية وحدها.

وقد انتهت الحرب العالمية الثانية ـ كما هو معروف ـ في عام ١٩٤٥ بفوز الحلفاء، بريطانيا وفرنسا وروسيا بعدما انضمت إليها الولايات المتحدة بقنبلتها الذرية الماحقة. وخشي يونس بحري من أن يكون مصيره مثل مصير الزعماء الألمانيين الذين حوكموا في محكمة نورمبرج وتقرر إعدامهم ونثر رمادهم في المحيط حتى لا يكون لهم قبر يزار. أما هتلر وعشيقته إيفا بيرون فقد انتحرا، وأما موسوليني وعشيقته كلارا بيتاتشي فقد قتلا وعلقا من قدميهما. وأما هيس فقد فر بطائرة إلى بريطانيا حيث ضبط وحكم عليه بالسجن المؤبد ومات هناك في السجن. فقرر يونس بحري الهرب، وأخذ ينتقل من بلد إلى بلد إلى أن استقر في باريس حيث أصدر مجلة أسبوعية

باللغة العربية اسمها «العرب» جعل منها سوطاً يلهب به جميع الأنظمة العربية التي لا يرضى عنها. وعلى غير معرفة سابقة، كان يوافيني بأعداد جريدته بالبريد على عنوان الجريدة التي كنت أعمل بها فيستولي عليَّ شعور بالرعب، لأنه كان يحسن الظن بي ويكيل لي المدح في حين كان يصب جام غضبه على حكامنا الثوريين مما يورثني حرجاً شديداً. فرجوته غير مرة أن يكف عن الإشارة إلى اسمي، دون طائل.

وبسبب المقالات العنترية التي كان البحري ينشرها في مجلته، تعاظمت الشكاوى من جانب الحكومات العربية، ولم تجد السلطات الفرنسية مفراً من إغلاق المجلة وإنهاء إقامة البحري بعدما كان يعيش في العاصمة الفرنسية حياة بوهيمية صاخبة، فعرفته مقاهيها وأنديتها الليلية بصعلكاته التي شهد عليها رفقاؤه مثل الدكتور عبد الرحمن بدوي والسوري الدكتور عبد السلام العجيلي واللبناني أديب مرة صاحب مجلة «السياحة» ومراسل جريدة «المصري» القاهرية من باريس.

لم أقابل يونس بحري إلا مرة واحدة عندما زار القاهرة واستضافه الدكتور الطيب ناصر، وهو طبيب مصري تعلم وعاش في ألمانيا وتواصل مع المجاهدين العرب هناك ومنهم سماحة الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، ثم عاد إلى القاهرة وافتتح عيادة في حي الفجالة. ألفيت البحري صاحب بنية متينة وصوت جهوري لا يعرف الهمس حتى بين الأصدقاء، وفي لسانه سلاطة تنصب على من لا يرضى عنه حتى أطلق على عبد الرحمن عزام باشا مؤسس الجامعة العربية اسم أبو الكلام عزام بسبب كثرة خطبه وتصريحاته.

وفي مأدبة العشاء التي أقامها له الدكتور الطيب ناصر ـ وكنت مدعواً إليها ـ هجم البحري على ألوان الطعام حتى خشينا أن يستأثر بها وحده، فلا ينجو من شراهته حتى «الديك الرومي» المفتخر الذي كان يتصدر المائدة.

وفي ذلك الوقت، كانت دولة الإمارات العربية دولة ناشئة وفي حاجة إلى خبراء في جميع المجالات، فسافر البحري إلى هناك حيث استعين به في وظائف إعلامية إلى أن قرر التقاعد وعاد إلى بغداد حيث لقي وجه ربه عن

عمر لعله تجاوز التسعين، فلم يكن يعرف له تاريخ ميلاد. كما أنه في بوهيميته تزوج مرات لا يعرف عددها وزرع في عواصم العالم التي غشيها أطفالاً لم يعرف عددهم ولا تابع أخبارهم، فقد عاش حياته بالطول والعرض وشعاره «لك الساعة التي أنت فيها».



دنيا الألقاب

- كان آخر الباشوات فؤاد سراج الدين.
- قضى رئيس الوزراء نحبه وهو يلقي خطاب العرش.
- منح رتبة البكوية لكل موظف يصل راتبه إلى ٦٠ جنيهاً

للناس ولع بالألقاب، يطلقونها على أنفسهم، ويخلعونها على ذوي الصدارة منهم، وهي ألقاب تتسم عادة بالتفخيم والتعظيم، سواء بقصد التفاخر بها أو لمداهنة من تخلع عليهم، حتى وإن كانت ألقاباً فضفاضة يتعثر فيها أصحابها.

وعندما وصل العرب في فتوحاتهم إلى الأندلس، لم يفتهم أن يستنبطوا لأمرائهم ألقاباً مستحدثة مثل «المعتضد بالله» و«المعتصم بالله» و«المعتمد على الله» وهي ألقاب ضجّ منها الشاعر ابن رشيق القيرواني، فقال قولته المشهورة:

وممّا يزهدني في أرض أندلس ... ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

والتاريخ في القديم والحديث حافل بالألقاب التي أطلقت على رجاله، مثل ريتشارد قلب الأسد، والإسكندر الأكبر، والفوهرر، والدوتشى، والمستشار، والمهيب، ناهيك عن الألقاب التي ما زالت ناموسا مرعياً في إنجلترا، ومنها اللورد (برتبه الثلاث: الكونت والبارون والإيرل) ولا مانع في البروتوكول البريطاني من إسباغ شرف اللوردية على النساء، مثل مرجريت تاتشر رئيسة الوزراء السابقة التي منحت لقب بارونة، وهناك لقب السير الذي يكتسبه كل من يمنح نيشان فارس الإمبراطورية البريطانية. والقانون الإنجليزي ينقل هذا النيشان واللقب الذي يقترن به إلى أبناء جنسيات أخرى، كالمصريين

من أمثال أمين عثمان باشا والدكتور سابا حبشي باشا وأخيراً الجراح مجدي يعقوب، وهو ما يسوغ لهم حمل لقب سير ولزوجاتهم حمل لقب ليدي. وهناك لقب الرايت أونرابل ولقب أونرابل وغيرهما.

وكانت للألقاب في مصر الملكية دولة وصولة، وكان علينا نحن المشتغلين بالصحافة أن نحيط بها إحاطة تامة حتى نخاطب الناس بألقابهم الصحيحة لأن الخطأ في ذلك هو من الكبائر. ففي أيام السلطانين حسين كامل وأحمد فؤاد كان اللقب الرسمي لهما هو حضرة صاحب العظمة السلطان، فلما أصبح فؤاد أول ملك لمصر، صار لقبه حضرة صاحب الجلالة الملك، وهو لقب ورثه من بعده ولي عهده فاروق عندما ارتقى أريكة العرش، وإن كان اللقب في عهده تضخم حتى صار يخاطب بحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول ملك مصر والسودان ـ بعدما أعلنت مصر الوحدة مع السودان. ولما كان لفظ (الجلالة) هو من صفات أسماء الله الحسنى، فقد تخلى عنه ملوك المملكة العربية السعودية وباتوا يلقبون بخادم الحرمين الشريفين.

وكان فاروق في حياة أبيه يحمل لقب حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فاروق ولي العهد. وكان أبناء الأمراء والأميرات يحتفظون بلقب الإمارة، أما أبناء الأميرات من آباء لا يحملون لقب الأمير فكانوا يخاطبون بلقب حضرة صاحب المجد النبيل. وهناك أمير غضب عليه الملك لاشتغاله بالحركة العمالية، فحذف اسمه من سجل الأمراء وبات يعرف بصاحب المجد النبيل عباس حليم.

وإذا تزوجت أميرة من شخص عادي، ظلت تَحتفظ بلقب الإمارة، في حين يبقى زوجها بلا لقب، اللهم إلا إن كان يحمل رتبة البكوية أو الباشوية أو مُنحها، مثل إسماعيل شيرين بك الزوج الثاني للأميرة فوزية شقيقة فاروق بعد طلاقها من شاه إيران. وكان لقب شاه إيران «حضرة صاحب الجلالة الشاهنشاه آريامهر» ولقبها حضرة صاحبة الجلالة الشهبانو.

هذا عن الأسرة المالكة بأصولها وفروعها، أو ببطونها وأفخاذها بالتعبير الذي كان العرب القدامى يستخدمونه.

ألقاب رجال الدولة

أما ألقاب رجال الدولة، وكانت كلها تمنح من الجالس على العرش، فكان أعلاها مرتبة لقب حضرة صاحب المقام الرفيع الذي لم يكن يحمله في وقت واحد إلا ثلاثة أشخاص أو أربعة. ومن أبرز الذين حملوا هذا اللقب مصطفى النحاس باشا وشريف صبري باشا شقيق الملكة نازلي.

يلي ذلك لقب حضرة صاحب الدولة، وهو يطلق على من يقع عليه الاختيار ليكون رئيساً للوزراء، ويظل يحتفظ به إلى ما بعد خروجه من الوزارة. ويحمل الوزراء جميعاً لقب حضرة صاحب المعالي ما داموا في الحكم، فإن غادروه صاروا يلقبون بحضرة صاحب السعادة. وكان هناك شبه تقليد مرعيّ بأن يكون كل الوزراء باشوات، فإن دخل الوزارة أفندي أو بك منح رتبة الباشوية، ومع ذلك هناك وزراء دخلوا الوزارة وخرجوا منها دون أن يحظوا بالباشوية، مثل المؤرخ عبد الرحمن الرافعي بك والمحامي عبد الحليم البيلي بك. كما كانت الباشوية تمنح تلقائياً لضباط الجيش والبوليس بمجرد وصولهم إلى رتبة اللواء، وإلى الشخصيات العامة ذات الوزن الاقتصادي أو الاجتماعي مثل طلعت حرب باشا وأحمد عبود باشا وعلي أمين يحيى باشا، وإلى كبار رجال القضاء ومديري الأقاليم (أو المحافظين بالتعبير الحالي)، وإلى من يقدمون تبرعات سخية لأغراض الخير والبرّ. وظفر عدد من الصحفيين برتبة الباشوية منهم فكري أباظة باشا وعبد القادر حمزة باشا والدكتور محمد حسين هيكل باشا وأنطون الجميل باشا وجبرائيل تقلا باشا والدكتور فارس نمر باشا وخليل ثابت باشا وكريم ثابت باشا وإدجار جلاد باشا. ومُنح الباشوية عدد من الجامعيين منهم أحمد لطفي السيد باشا والدكتور منصور فهمي باشا والدكتور نجيب محفوظ باشا والدكتور علي مصطفى مشرفة باشا والدكتور علي إبراهيم باشا والدكتور إبراهيم مورو باشا وغيرهم.

وإن حدث سهواً أن خاطب الملك شخصاً بلقب باشا، صدر على الفور المرسوم الملكي بمنحه هذا اللقب على اعتبار أن الملك لا يخطىء. وفي إحدى المرات زار الملك فاروق متحفاً، وقام أمين المتحف ـ وهو موظف

بسيط ـ بشرح المعروضات أمامه، فناداه الملك سهواً بقوله: «يا باشا» وعلى الفور تحول هذا الموظف العادي إلى حضرة صاحب السعادة فلان باشا (وقد نسيت اسمه الآن). ومن تصاريف القدر أن رتبة الباشوية كانت شؤماً عليه، إذ كان يهم بركوب قطار المرج من محطة كوبري الليمون متوجهاً إلى بيته، فزلت قدمه وسقط تحت عجلات القطار باترا ساقيه وقضى نحبه.

ولم يحدث إلا مرة واحدة أن تنازل شخص عن رتبة الباشوية، وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا الذي طلب إعفاءه من هذا اللقب عند اختياره شيخاً للأزهر، اعتزازاً منه بلقب الإمام الأكبر.

وإلى وقت قريب، كان يعيش بيننا خمسة من الباشوات، وهم السيد سليم باشا والدكتور محمد صلاح الدين باشا وإبراهيم فرج باشا والدكتور سابا حبشي باشا، وقد شغلوا جميعاً مناصب وزارية مختلفة وانتقلوا إلى رحمة الله تباعاً، وكان آخر الباشوات فؤاد سراج الدين باشا زعيم الوفد.

لحظة درامية

ويسوقنا الحديث عن الباشوات إلى رواية وقائع تتعلق ببعضهم. فقد كان البرلمان يعقد جلسة مشتركة في كل عام يفتتحها الملك ويشهدها الأمراء والكبراء، ثم يتقدم رئيس الوزراء وهو ببزته الرسمية المزدانة بالنياشين إلى الجالس على العرش ويتناول من يده خطاب العرش، ثم يشرع في تلاوته باعتباره ممثلاً لسياسة الحكومة، وكان رئيس الوزراء حينذاك هو حسن صبري باشا الذي لم يكد يشرع في تلاوة خطاب العرش حتى ترنح وسقط مغشياً عليه أمام الملك. فقضى نحبه في هذا المشهد الرسمي. ولو كان التليفزيون حاضراً في ذلك الوقت لسجل هذه اللحظة الدرامية عند وقوعها.

ومن حكايات الباشوات أن محمد توفيق نسيم باشا، الذي رأس الوزارة من قبل، سافر إلى النمسا للاستشفاء من أمراض الشيخوخة، وعاد من هناك بعروس شابة اسمها ماري هوبنر كانت تقوم بتمريضه؛ فثارت عليه أسرته، وفرضت عليه حجراً باعتباره فاقد الأهلية في التصرف في أمواله، واضطر في

آخر الأمر إلى تسريح العروس الحسناء بعد إجراء تسوية سخية معها عوضتها عن هذه التجربة. وتكرر هذا «السيناريو» مع باشا صعيدي هو قليني فهمي باشا (الذي عاصر خمسة من الخدويون والسلاطين والملوك) الذي سافر إلى تركيا سائحاً، وعاد من هناك بملكة جمال شابة اسمها بلقيس، أنزلها مع والدتها في قصره في مغاغة. وأقيمت عليه بدروه دعوى حجر، وانتهى الأمر بالانفصال عن ملكة الجمال بتسوية مالية محترمة طبقاً للشروط التي أملتها والدتها.

يلي لقب الباشا في بروتوكول المنزلة الاجتاعية لقب بك، وهو من طبقتين أولى وثانية. فالبكوات في الطبقة الأولى يخاطبون بحضرة صاحب العزة، أما في الطبقة الثانية فيخاطبون بصاحب العزة بغير لفظة «حضرة». وكان من الأعراف المتبعة منح رتبة البكوية لكل موظف في الدولة يصل راتبه الشهري إلى ٦٠ جنيهاً.

أما النساء المتميزات فكن يمنحن لقب حضرة صاحبة العصمة، وهو لقب منح لأم المصرين قرينة سعد زغلول باشا وهدى هانم شعراوي الزعيمة النسائية الرائدة والمطربة أم كلثوم.

وكان محظوراً على الملك بحكم الدستور، أن ينعم على أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب (البرلمان) بأي رتب أو ألقاب طوال مدة نيابتهم. فإن كانوا يحملون لقباً قبل دخولهم البرلمان، ظلوا يحتفظون به، ولا حرج من منحهم أي لقب آخر بعد تركهم النيابة. وكان الشيوخ يخاطبون عادة بعبارة حضرة الشيخ المحترم، والنواب بعبارة حضرة النائب المحترم.

وعندما جاءت ثورة عام ١٩٥٢م قررت إلغاء جميع هذه الألقاب، على أن يخاطب الناس جميعاً بلقب «السيد» ولكنها استبقت ألقاب رجال الدين وألقاب السلك الدبلوماسي والألقاب العلمية والألقاب العسكرية لأفراد الجيش والشرطة، وكان الناس يتفكهون قائلين إن الثورة ألغت البك والباشا وأبقت البكباشي (وهي رتبة جمال عبد الناصر).

ولكن يبدو أن ولع الناس بالألقاب جعلهم يستمسكون بألقاب إما وظيفية

مثل السفير والمستشار (حتى أن العسكريين الذي نقلوا إلى السلك الدبلوماسي تمسكوا بلقب السفير وتناسوا رتبتهم العسكرية) وإما مهنية مثل رجل الأعمال والمهندس والمحاسب والكيميائي والبيولوجي والجيوفيزيائي والصيدلي والمخرج السينمائي والموسيقي والفنان المايسترو والمقاول والصحفي والممثل وهلم جرا. بل إن الأدباء تمسكوا بألقاب مثل الروائي والشاعر والناقد والقاص وما إلى ذلك. وأصبح لقب «الخبير» من الألقاب التي تسبق أسماء البعض، فهذا خبير تربوي، وذاك خبير استراتيجي، وثالث خبير اجتماعي أو في التخطيط، وزاد البعض إلى ألقابهم وصف «الاستشاري». وذهب الناس في مداهنة المحافظين إلى حدّ مخاطبتهم بألقاب طويلة مثل السيد الأستاذ المستشار الدكتور اللواء الوزير المحافظ! كما أن الذين شغلوا وظائف معادلة من الناحية المالية لمرتبة الوزير، صاروا يسبقون أسماءهم بلقب «الوزير». أما لقب «السيد» الذي جاءت به الثورة فقد تراجع، أو صار يقرن بلقب آخر مثل السيد المهندس أو السيد الدكتور أو السيد المدير. وأصبح من المألوف أن يخاطب الناس في معاملاتهم اليومية بألقاب مثل الباشا، وهو خاص برجال الشرطة، والباشمهندس، والحاج، وهو أكثرها تداولاً.

وهناك ألقاب شعبية أطلقت على رجال بارزين في الحياة العامة دون أن يكون لها موضع في بروتوكول الألقاب مثل أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد باشا، وعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين باشا، والكاتب الجبار عباس محمود العقاد بك، وأخيراً شيخ البنائين المهندس عثمان أحمد عثمان. وقد اشتهر عبد الحليم حافظ بأنه العندليب الأسمر، ومحمد عبد الوهاب بأنه مطرب الملوك والأمراء، وحافظ محمود بأنه شيخ الصحفيين ومحمد فتحي بك بأنه كروان الإذاعة، والشاعر محمود سامي البارودي باشا بأنه ربّ السيف والقلم، والشاعر حافظ إبراهيم بأنه شاعر النيل، والشاعر أحمد شوقي بأنه أمير الشعراء، والشاعر أحمد رامي بأنه شاعر الشباب، كما أطلق على محمد كامل البنداري باشا لقب الباشا الأحمر بسبب ميوله اليسارية التي أهلته ليكون سفيراً لمصر في موسكو.

حقاً إن للألقاب دنيا متجددة في مصر، وصدق الشاعر حافظ إبراهيم القائل:

هــل فــي مــصــر مــفــخــرة ... ســوى الألــقــاب والــرتــب؟



هل ثمة خلود؟

الخلود فكرة أو أمنية تداعب حملة الأقلام، وربما غيرهم أيضاً ولا سيما رجال السياسة، حتى وإن كان طالبو الخلود وناشدوه هم أبعد الناس عن الوصول إلى هذه الأمنية شبه المستحيلة، وكان صديقي الأديب الفلسطيني الأصل الدكتور كامل السوافيري يقول لي: إنه مشغول بالخلود؛ فكنت أردّه إلى الواقع وأقول له: إن من الأفضل أن تنشغل بأسباب الرزق لأنها هي الحاجة العملية الملحة لك ولي وللكثيرين من الذين أدركتهم حرفة الأدب.

وكان الشاعر السوري محمد سليمان الأحمد المكنّى ببدوي الجبل يقول عن شعره:

الخالدان ـ ولا أعد الشمس ـ: شعري والزمان.

وطبعاً، ما دام شعره خالداً، فهو إذن في الخالدين أو الحالمين بالخلود على أقل تقدير.

وللأديب إبراهيم المصري مجموعة من الأقاصيص عنوانها «خالدون في الوطن» طوف فيها بين آداب الفرس واليونان والعرب ليستخرج منها نماذج اعتبرها خالدة، لأنها شبيهة بالمشاعل في معارك الاستقلال والحرية. أما زكي مبارك فاختار لديوانه عنوان «ألحان الخلود».

وإبراهيم المصري نفسه كانت له مطامح في الخلود، وأخبرني في سنوات عمره الأخيرة أنه عازم على تسجيل سيرة حياته وبها يدخل عالم الخلود، ولكن العمر لم يسعفه لتحقيق هذا الحلم.

ولئن داعبت فكرة الخلود أصحاب الأقلام، فإن للحياة الأدبية أحكامها الآمرة التي تنزلها على المشتغلين بالأدب من شعراء وناشرين، فتكتب لبعضهم

الذيوع والانتشار ـ وإن شئت فقل الخلود ـ، وتكتب لكثيرين غيرهم نسياناً وكأنهم كانوا «ساقطي قيد» بالتعبير المعهود عن الذين سقطوا من القيد في سجلات الدولة.

ومن قبيل التذكير بنماذج من أصحاب الأقلام الذين ضربت عليهم الحياة الأدبية ستائر النسيان أورد ـ على سبيل التمثيل لا الحصر ـ أسماء كتاب وشعراء من طبقات مختلفة لم يعد المعاصرون يعرفونهم سواء بأشخاصهم أو بأعمالهم.

فهل يتذكر أحد حسن الشريف المترجم اللامع بروائعه التي كان ينشرها في مجلة «الهلال» وهو الذي رأس تحرير مجلة «الشؤون الاجتماعية» التي كانت تصدرها وزارة الشؤون الاجتماعية في الأربعينيات من القرن الماضي؟ وهل هناك من يذكر محمد السيد شحاتة المكنى بـ «شاعر البراري»، أو الشاعر محمد عبد الغني سلامة من أبناء منطقة شبرا النملة، أو العلامة اللغوي السباعي بيومي ـ وكان أستاذاً لي في الجامعة الأمريكية ـ، أو عمر الدسوقي وهو من أساطين دار العلوم، وهل يصح أن ينسى الأديب المترجم الموسوعي محمد فريد أبو حديد، أو العلامة محمد فريد وجدي صاحب «دائرة معارف القرن العشرين»، أو الشيخ محمود أبو ريه تلميذ الرافعي وناشر رسائله؟ وهل ترد على الذاكرة سيرة العلامة اللغوي محمد صادق عنبر الذي قيل إنه هو صاحب سلسلة «نظرات في النظرات» وليس طه حسين، وهناك مبارك إبراهيم المترجم وعضو لجنة التأليف والترجمة والنشر، وهناك المترجم حسن محمود الذي كان طه حسين يعتمد عليه في مجلة «الكاتب المصري» كما كانت مؤسسة فرنكلن تعتمد عليه في الحكم على سلامة الكتب المترجمة. وهل ينسى الشاعر محمد الهياوي، والأستاذ الجامعي محمد نجيب البهبيتي، والمترجم إسماعيل سري الدهشان، والشاعر محمود عماد، والشاعر عتمان حلمي، والشاعر محمد فريد عين شوكة، والشاعر الدكتور عبد العزيز عتيق، والشاعر واللغوي فايد العمروسي، والأديب حسن الحطيم، والأديب حليم متري، والدكتور محمد النويهي، والشاعر محمد فهمي، والشاعر المحقق

أحمد الزين، والأديب حبيب عوض الفيومي، والأديب العالم عوض جندي، والناقد الأدبي ـ وإن كان طبيب أسنان ـ الدكتور رمزي مفتاح، والشاعر الصاوي علي شعلان والشاعر الشهيد محمد عبد الحكم الجراحي الذي استشهد في حركات الطلبة الجامعيين النضالية، والشاعر والزجال محمود رمزي نظيم، والأديب رضوان إبراهيم، والزجال محمد عبد المنعم (أبو بثينة)، وفوزي الشتوي وهو أول صحفي تخصص في الكتابة العلمية الصحفية.

والقائمة طويلة، ولكنني اجتزأت بمجرد أمثلة على من عاقروا الأقلام وعمرت بآثارهم المجلات الأدبية التي كنا نطالعها مثل «أبولو» لصاحبها الدكتور أحمد زكي أبو شادي، و«الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات، و«المقتطف» لمحررها فؤاد صروف. ولقد كان من حظي أن عرفت بعضاً من هؤلاء في مسيرة الحياة، ومؤكد أن الذاكرة الخئون أغفلت كثيرين غيرهم على جداراتهم ولو بالتنويه العابر.

والخلود هو أسطورة من أساطير هذا الزمان، ولا يبلغه إلا بعض الفلتات حتى وإن لم تخطر فكرة الخلود على بالهم.. فالأديب المهجري جبران خليل جبران لم يحلم بالخلود أبداً في حياته، بل كان مشغولاً بأسباب الرزق من بيع اللوحات التي يرسمها ومن الرعاية السخية المادية من جانب صاحبته ماري هسكل، ولكن ضربة الحظ جائته من كتابه «النبي» الذي راج توزيعه بالملايين وترجم إلى معظم لغات العالم بشهادة منظمة اليونسكو، فخلد هذا الكتاب ذكراه ولكن بعد وفاته، وصارت حقوق التأليف تذهب رأساً إلى متحفه في مدينة بشرِّي اللبنانية. وهو لو ظفر في حياته بجزء قليل من هذه الحقوق المادية فلعله كان يتخلص من داء السل الذي قضى عليه وعلى بعض أفراد أسرته الأقربين.

وشبيه بهذا يمكن أن يقال عن الأديب نجيب محفوظ الذي لم تلح له أبداً فكرة الخلود، وإن لم يطرد فكرة الشهرة تواتيه بصورة خاصة لا من رواج رواياته، بل من تحويل عدد منها إلى أفلام سينمائية تدر عليه آلافاً، أما نصيبه من بيع كتبه حتى بعد شهرته فكان مثل «النواة التي تسند الزير» بالتعبير الشائع

والخلود الذي وافى نجيب محفوظ كان أشبه ما يكون بخبطة عشوائية أو ضربة حظ تمثلت في جائزة نوبل بجانبيها الأدبي والمادي، فرفعت اسمه إلى السماكين.

وللمرء أن يسأل عن سر تمتع بعض الأدباء بشهرة طاغية مثل طه حسين والعقاد والمازني ويحيى حقي وشوقي وحافظ ومطران في حين أن رصفاءهم من المعاصرين مثل أحمد حسن الزيات ومحمد فريد أبو حديد وأحمد أمين ومحمد عوض محمد وزكي مبارك تضاءلت حظوظهم من الشهرة ومن دخول باب الخلود.

وفي تقديري المتواضع أن الموازين الصحيحة لتقييم الأدباء قد يتأخر العهد بها، ولكنها ستجيء حتماً ذات يوم، فتمنح لكل ذي حق حقه، وتنصف كل مغبون، ولا تضن بالخلود على من يستحقه وإن لم ينعم بأسبابه في حياته.

وكاتب هذه السطور عضو في مجمعين للخالدين وهما مجمع اللغة العربية بدمشق ومجمع اللغة العربية الأردني،ولكنه يدرك تماما أنه أبعد الناس عن اكتساب الخلود من الانتساب إلى هذين المجمعين لا عن تواضع مصطنع بل عن إدراك لحقيقة ذاته.



هذه الأعمال الأدبية الناقصة.. من يستكملها؟

من يستكمل هذه الأعمال الناقصة؟ دعاني إلى إثارة هذا السؤال ـ القضية ـ أن كتاباً ضخماً من جزءين يقع في ١٤٢٠ صفحة صدر في بيروت مؤخراً عنوانه: «أعلام الأدب العربي المعاصر» من تصنيف المستشرق الأمريكي الدكتور روبرت كامبل يتضمن سيراً ذاتية وسيراً غيرية لعدد ضخم من أدباء العالم العربي زائداً دراسات تمهيدية موسعة تتناول «نقد مصادر ومراجع الأدب العربي المعاصرة» لجورج عطية و«القصة العربية القصيرة» و«الرواية العربية المعاصر» لمحمود شريح و«المسرح العربي» للدكتور محمد مصطفى بدوي و«الشعر العربي المعاصر» للدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي و«النقد في الأدب العربي الحديث» للدكتور صبري حافظ.

ويعتبر هذا الكتاب أحدث سجل بيبليوجرافي من نوعه عن الأدب العربي المعاصر وذلك لتقادم العهد بالمراجع التي صدرت من قبل مثل «الأعلام» لخير الدين الزركلي و«مصادر الدراسة الأدبية» ليوسف أسعد داغر والجزء الثاني من «الأدب المقارن» لنجيب العقيقي. والحقيقة إن جهداً ضخماً قد بذل في إعداد هذا الكتاب لولا أنه افتقر إلى الشمول المنشود في أمثال هذه المراجع فجعل كفته تشول.

وأول ما استوقف نظري في هذا الكتاب الجامع هو أن عملية حصر الأدباء التي سبقت تجميع مادته سواء من الأدباء أنفسهم أو من مصادر أخرى جاءت قاصرة، فانعكس ذلك على مادة الكتاب وكثرت فجواته. ففي حين استوعب الكتاب سير جميع ذوي الاتجاهات اليسارية حتى المبتدئين منهم فقد أغفل أدباء كباراً مثل أحمد حسن الزيات وأحمد أمين وإبراهيم ناجي وأحمد زكي أبي شادي وخليل مطران والدكتور محمد صبري السوربوني وعلي أدهم

ويوسف جوهر وعبد الرحمن صدقي وكثيرين غيرهم، كما أغفل من أدباء لبنان الكبار مارون عبود وخليل تقي الدين وبولس سلامة وسعيد تقي الدين وإلياس أبو شبكة الذي احتفل لبنان مؤخراً بإحياء ذكراه، فكيف أصاب الإهمال كل هؤلاء الأعلام؟ ومؤكد أنه إغفال غير مقصود ولكنه انتقص من أهمية العمل ومن شموله.

كما استوقف نظري أن المشاركات التي تلقاها المؤلف من الأدباء أنفسهم تسجيلاً لسيرهم لم تنل حظها من المراجعة الدقيقة من جانب مصنف الكتاب، فقرأنا مثلاً سيرة حياة أديب عراقي حرص فيها على أن يسجل «فتوحاته» في عالم الجنس بتفاخر غريب. ومؤكد أن هذه «الإنجازات» ليس موضعها في مثل هذا الكتاب، وكان يتعين حذفها. كما قرأنا في السيرة الذاتية لأديبة عراقية حكايات عما عانته من التفسخ في أسرتها بسبب الخلافات الزوجية بين الأب والأم والتي انتهت بالطلاق، ثم حكايات عن معاناتها مع زوجة الأب، ثم حكايات مع الزواج الفاشل ومع الخطيب الذي لم يستكمل معها رحلة الزواج ففسخ الخطبة، وختمت سيرتها بقولها إنها تمتلك سيارة تحمل لوحة أرقام دبلوماسية ـ دون أن تحدد ماركتها!

ولا ريب في أن هذه الحكايات مشوقة ولكنني أعتقد أن مكانها ليس في هذا السفر. وإذا أريد لهذا الكتاب أن يحتل منزلته كمرجع علمي معتمد فهناك حاجة عاجلة إلى إصدار ملحق له يتدارك الفوات ولكن بعد إجراء حصر دقيق حتى لا تتكرر فاجعة إهمال أدباء مرموقين. ذلك أن انتظار صدور طبعة ثانية منقحة منه قد يطول بسبب ضخامة حجم الكتاب وارتفاع ثمنه مما يؤود توزيعه فلا ينفد إلا بعد سنوات قد تطول.

وكان يوسف أسعد داغر قد أصدر سلسلة عظيمة من الكتب عنوانها «مصادر الدراسة الأدبية» بذل فيها أعنف جهد وأشمله في سبيل استقصاء سير جميع الراحلين من الأدباء طوال القرن العشرين. ولكن انقضاء سنوات طويلة على صدور هذه السلسلة أوقع فيها فجوات كبيرة تداركتها شخصياً بإضافة هوامش وجزازات وملاحظات، وهو جهد المقل ولا ينتفع به سواي، ولكن

من الخسارة الأدبية أن يبقى هذا العمل منقوصاً ولا بد من أن تنهض هيئة كاملة بمراجعته واستكماله خدمة للباحثين ووصولاً إلى الكمال الذي كان ينشده داغر في كل كتبه البيبليوجرافية الباذخة.

وهذا القول عينه يصدق على كتاب «الأعلام» للزركلي الذي كان قد أوصى بأن يقوم مجمع علمي بإعداد طبعاته الجديدة بعد استكمالها ليبقى معجماً حياً منضبطاً حتى آخر لحظة.

وإذا كانت الهيئات قد تقاعست عن إنفاذ هذه الوصية فقد انبرى لتحقيقها الأديب الأردني أحمد العلاونة بجهده الخاص واستطاع أن ينجز لـ«الأعلام» ذيولاً فيها استدراكات كثيرة تمتد من حيث تاريخها إلى يومنا الحاضر. وقد علمت منه أن الجزء الرابع من الذيول رهن الصدور وهو عمل يسعف الباحثين في سير الأعلام ولا سيما الذين ظلمتهم الحياة فأهملت أسماؤهم برغم جهدهم المقدور في دنيا الأدب.

وإذا كانت «مكتبة لبنان» قد تخصصت في إصدار المعاجم وفي تنقيح كل طبعة جديدة منها فليت هيئة مماثلة تتخصص في إصدار الطبعات الجديدة من كتب السير البيبليوجرافية خدمة للدراسين وهو عمل يستعان فيه بالكمبيوتر وبالجهد البشري تحقيقاً لأكبر قدر من الدقة والشمول وجدة البيانات فهل طلب الكمال من المحال؟





ألقاب الأدباء والشعراء
من «شاعر النيل» إلى «الأهرام» إلى «الشام» إلى «الخليج»

حظوظ الأدباء والشعراء على وجه عام حظوظ شديدة التواضع في المجتمع بالمقارنة بحظوظ سواهم من فئات المجتمع الأخرى كرجال السياسة والأعمال، والمشتغلين بالفنون ولاعبي كرة القدم، وقلة قليلة نسبياً من الأدباء والشعراء هي التي تهيأت لها ظروف مواتية فارتفعت قيمتها وحظوظها في موازين المجتمع، وصارت لها «نجومية» بالتعبير الدارج اليوم.

فإن أخلفت الحظوظ ـ ولا سيما الحظوظ المادية ـ مواعيدها مع الأدباء والشعراء، فقد وجد عدد منهم عزاءه في الألقاب الرنانة، سواء خلعت عليهم أو انتحلوها لأنفسهم إسباغاً للحيثية الأدبية عليهم، وتلمساً لأسباب الوجاهة والتبريز ولو في دنيا الأدب.

وقد اجتهدت في حصر ما تيسر لي الوقوف عليه من هذه الألقاب، وأوردها هنا على سبيل المثال لا الحصر الشامل، فمؤكد أن هناك ألقاباً أخرى أجهلها أو غابت عني في هذا العالم العربي المترامي الأطراف.

عرف أحمد شوقي بأمير الشعراء، وحافظ إبراهيم بشاعر النيل، وخليل مطران بشاعر القطرين وأيضاً بشاعر الأقطار العربية، وعرف طه حسين بعميد الأدب العربي، وكامل كيلاني بنقيب الأدباء، وعبد الله عفيفي بشاعر الحضرة الملكية، وعباس محمود العقاد بالكاتب الجبار، وشكيب أرسلان بأمير البيان، وبشارة الخوري بالأخطل الصغير، ومحمد سليمان الأحمد ببدوي الجيل، ورشيد سليم الخوري بالشاعر القروي، وشقيقه قيصر سليم الخوري بالشاعر المدني، ومحمود سامي البارودي برب السيف والقلم، والدكتور محمد صبري

بالسوربوني، والدكتور محمد مظهر سعيد بعميد الفلسفة وعلم النفس، ومحمد عبد الغني حسن بشاعر الأهرام، وتنازع أحمد رامي وعادل الغضبان لقب شاعر الشباب (حتى بعد تجاوزهما سن الشباب!)، وتنازع إلياس أبو شبكة وزكي قنصل لقب شاعر غلواء، وهناك شاعر الخليج خالد الفرج، وشاعر الشام شفيق جبري، والشاعر الدرويش رشيد أيوب، وشاعر الطيارة فوزي المعلوف، وشاعر عبقر شقيقه شفيق معلوف، وشاعر الجندول علي محمود طه، وشاعر الكرنك أحمد فتحي، والشاعر المحروم عبد الله الفيصل، وشاعر البراري محمد السيد علي شحاتة، وناسك الشخروب ميخائيل نعيمة، وفيلسوف الفريكة أمين الريحاني، وشاعر آل البيت محمود جبر، وأبو الوفا محمود رمزي نظيم، وأدونيس علي أحمد سعيد، وهناك أدباء وشعراء نسبوا أنفسهم إلى أبنائهم ومن ذلك أبو خلدون ساطع الحصري، وأبو فهر محمود محمد شاكر، والزجال أبو بثينة محمد عبد المنعم، وأبو همام عبد اللطيف عبد الحليم.

وهناك أسماء مستعارة تعز علي الحصر، وقد حاول الأديب اللبناني يوسف أسعد داغر حشد مجموعة كبيرة منها في معجم أصدره بعنوان: «معجم الأسماء المستعارة وأصحابها» ولعله المعجم الوحيد في بابه. والملاحظ في حياتنا الأدبية المعاصرة أن «موضة» الألقاب والأسماء المستعارة تكاد تكون غير معهودة، لا لأن الألقاب قد أطيح بها حتى في الحياة العامة، ولكن لأن كل طالب شهرة يعوزه أن يبرز اسمه الصحيح وأن يسلط عليه ما استطاع من الأضواء حتى يستأثر بالالتفات العام. كما أن كثرة الأصوات في دنيا الشعر والنثر كفيلة بإهمال ذكر أي أديب أو شاعر ما لم يطرق باسمه الأسماع طرقاً شديداً دؤوباً مثابراً، هذا طبعاً إذا كانت للأديب أو للشاعر قيمة ذاتية تكسبه إعجاب القراء والقارئات أيضاً!

ويبدو إن صفة «الكبير» هي التي صارت تطلق اليوم على عشرات من حملة الأقلام شعراً ونثراً، فهناك الشاعر الكبير والناقد الكبير والأديب الكبير والصحفي الكبير والفنان الكبير وهلم جرّاً، وربما تأذت بنات حواء من

وصفهن بالكبيرة، خشية أن يراد بذلك الإيحاء بأنهن جاوزن مراحل الشباب وانضممن إلى ركب الطاعنين في السن! وهن يفضلن أن يطلق عليهن وصف الأديبة الموهوبة أو المبدعة أو المجددة أو غير ذلك من النعوت التي تنأى عن مجال الأعمار لأن المرأة إذا بلغت الثلاثين من العمر تجمدت عند هذه السن ولم تكبر يوماً واحداً بعدها!

والأدب الغربي لا يعرف الألقاب التي تطلق على الأدباء والشعراء لتفخيم أسمائهم وتضخيم شخصياتهم لاعتقادهم بأن الأديب المتميز لا يحتاج إلى هالة من الألقاب يحيط بها اسمه للتأثير في القراء. ولكنهم يشتهرون أحياناً بعمل من أعمالهم كأن يقال مثلاً إن أينشتين هو صاحب نظرية النسبية أو أن ماري كوري هي مخترعة الراديوم، أو أن مرجريت ميتشل هي مؤلفة رواية «ذهب مع الريح» أو أن جان بول سارتر هو صاحب نظرية الوجودية، وهلم جرّاً، فالذي يخلد الأديب أو الشاعر أو الباحث هو عمله وليس بهرجة الألقاب تخلع عليه من قبيل المجاملة أو النفاق أو حتى النكاية، وقد قال الشاعر:

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد





الذين أدركتهم حرفة الأدب

هل يحتاج الأديب أو الشاعر إلى رخصة جامعية معتمدة لكي يخرج على الدنيا بآثاره وبما تبدعه قريحته؟ وهل كليات الآداب ـ مثلاً ـ هي وحدها «المصهر» الذي يخرج فيه الأدباء وحملة الأقلام، فلا يعترف بأديب إلا إذا كان من حملة شهادة جامعية من إحدى الكليات؟ وهل هناك من ينكر أن الحياة الأدبية عرفت شعراء وأدباء انتسبوا إلى حرف لا صلة لها بالأدب، فكان منهم بائع الفول المدمس وصانع الملابس البلدية والحلاق وبائع البطيخ وصاحب المقلة والصائغ وبائع الأحذية والخردة وعامل النسيج ومأمور الضرائب؟

ليس في هذا الكلام انتقاص من أهمية الشهادات الجامعية أو التهوين من شأنها، وإنما أحاول رصد ظاهرة في حياتنا الفكرية، وهي أن عدداً من الذين تصدروا فيه ووصلوا إلى أعلى المراتب بل انضموا إلى مجامع اللغة العربية، لم يكونوا يحملون أي شهادات جامعية، بل إن منهم مَنْ لم يحصل حتى على الشهادة الثانوية.

وأبرز الأسماء في هذا المضمار هو اسم عباس محمود العقاد الذي صاول في حياته حتى المتخرجين في كبريات الجامعات الأجنبية كالدكتور طه حسين، والذي انتخب عضواً في المجامع العربية وعين في المجالس العليا للفنون والآداب، مع أن الشهادة الوحيدة التي كان يقر بحملها هي شهادة إتمام الدراسة الابتدائية. وحتى هذه الشهادة اليتيمة شكك فيها الأديب عباس خضر حيث لاحظ وهو يقلب أعداداً قديمة من إحدى الصحف أن العقاد نشر فيها دعوة إلى زملائه الراسبين في امتحان الشهادة الابتدائية للاجتماع في حديقة الأزبكية للنظر في مشكلتهم، مما يوحي بأن العقاد نال هذه الشهادة في

الملحق، وعندما نشر عباس خضر هذه «الحكاية» في مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات، غضب العقاد أشد الغضب وقاطع المجلة التي كان يكتب فيها مقالة الصدر أسبوعاً بعد أسبوع، ولم ينشر فيها حرفاً إلى أن توقفت في عام ١٩٥٣ عن الصدور. وقد سمعت العقاد في مجالسه الخاصة يسخر من «الدكاترة» ويرمي كثيرين منهم بالجهل.

ومن الذين خلت حياتهم من أي درجات علمية سلامة موسى، لأنه وإن كان قد سافر إلى إنجلترا وفرنسا للدراسة، إلا أنه جعل منها دراسة حرة لا يبتغي منها الحصول على شهادة، وأقنع نفسه بالاغتراف من معين المكتبات والاتصال بالأعلام وحضور الندوات والمحاضرات العامة، وعاد إلى مصر ليشارك في الحياة الفكرية سواء في «المجلة الجديدة» التي أصدرها أو من خلال كتبه ومقالاته التي نشرها في عدد كبير من مجلات عصره مؤمناً بما وصفه «بالتثقيف الذاتي».

ومما يذكر في هذا المقام أن كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) فكرت في عهد مضى في دعوة ثلاثة من الأعلام البارزين لإلقاء محاضرات على طلابها انتفاعاً بتجاربهم وخبرتهم العملية في الحياة، وهم العقاد وسلامة موسى وفؤاد صروف محرر مجلة «المقتطف». ولما رفعت مذكرة بهذا الاقتراح إلى رياسة الجامعة، اعترضت على ثلاثتهم لأن الأولين لا يحملان أي درجة علمية في حين أن الثالث يحمل شهادة من جامعة بيروت الأمريكية وهي غير معترف بها في مصر، ولا تليق دعوة غير جامعيين لإلقاء محاضرات في الجامعة.

وفي فترة لاحقة سمحت الجامعات بإعداد رسائل للماجستير والدكتوراه حول العقاد وسلامة موسى منهية بذلك قرار «الحظر» الذي اتخذ في وقت مضى.

ومن الذين اختيروا أعضاء في مجامع اللغة دون أن يحملوا رخصة جامعية عباس محمود العقاد وأيضاً العلامة محمود محمد شاكر الذي اشتبك في خلاف مع طه حسين عندما كان يدرس في كلية الآداب بجامعة فؤاد

الأول، وقرر أن يعلم نفسه، بنفسه، زاهداً في الرخصة الجامعية مدركاً أن العلم إنما يكتسب من خزائن الكتب وأمهات المراجع، وفي هذا غنية عن الدراسة المنهجية في جامعة، وبجهده الخاص أصبح من أعلم أعلام عصره في التراث العربي.

كما أن إسماعيل مظهر، الذي رأس تحرير مجلة «المقتطف» وأصدر قبلها مجلة «العصور» قد انتخب عضواً في مجمع القاهرة دون أن يحمل أي شهادة جامعية، وإنما كان يقول لي إنه تعلم على شيوخه، وبفضل عصاميته استطاع تصنيف معجم ضخم باللغتين الإنجليزية والعربية يحمل اسم «قاموس النهضة» وقع في جزءين.

ومعظم شعراء المهجر المشهورين مثل جبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي والشاعر القروي رشيد سليم الخوري وجورج صيدح وإلياس فرحات لم ينالوا تعليماً جامعياً، وإنما علموا أنفسهم مما اغترفوه من كتب الأدب ودواوين الشعراء. وعندما سئل الشاعر إلياس فرحات عمن أخذ القريض، أجاب السائلين بقوله:

يقولون: عمن أخذت القريض ... وممن تعلمت نظم الدرر؟
وما كنت يوماً بطالب علم ... فإنا عرفناك منذ الصغر
فقلت: أخذت القريض صبياً ... عن الطير وهي تغني السحر
وعن خطرات النسيم العليل ... يمر فيشفي عليل البشر
وعن ضحكات مياه الجداول ... فوق الجلامد تحت الشجر
وعن زفرات المحب الأديب ... يزاحمه الموسر المحتقر
وعن نظرات الحسان اللواتي ... يكدن يغلغلنها في الحجر
فذا الكون جامعة الجامعات ... وذا الدهر أستاذها المعتبر

ويوسف كرم الذي كان أستاذ الأساتذة في الفلسفة وعلى يديه تخرج كثيرون من خريجي قسم الفلسفة بكليات الآداب لم يكن يحمل درجة الدكتوراه في الفلسفة التي صار تلاميذه يحملونها.

وإذا انتقلنا إلى ميدان المحاماة، وجدنا أن إبراهيم الهلباوي الذي

انتخب أول نقيب للمحامين وكان ذا شهرة عريضة في كسب القضايا، لم يدخل معهداً للحقوق، وإنما عمل في وظيفة كتابية في مكتب محام واستطاع بنباهته أن يستوعب كل القوانين وأن يحقق لنفسه شهرة واسعة ومنزلة مرموقة في الحياة السياسية والاجتماعية. ومن عثراته القاتلة أنه ارتضى القيام بدور المدعي العام في قضية دنشواي المشهورة التي اتهم فيها فلاحون بقتل عسكر من الإنجليز كانوا يصيدون أسراب حمامهم مع أن العسكر ماتوا بضربة شمس، وانتهت القضية بإعدام الفلاحين شنقاً، وهو موقف أثار عليه ثائرة الشعب فهاجمه الشاعر حافظ إبراهيم بقصيدة ختمها بقوله:

أنت جلادنا، فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

وفي عصرنا الحالي، نصادف أدباء وشعراء برزوا كل في ميدانه حاملين شهادات من كليات الطب والعلوم والتجارة والاقتصاد والزراعة وليس من كليات الآداب.

وأعود إلى التذكير بأنني لا أبتغي الإقلال من أهمية الشهادات الجامعية، ولا سيما الشهادات الممنوحة من كليات الآداب، وإنما اجتهدت في رصد ظاهرة تستحق التسجيل.





أحلام ـ كوابيس ـ نجيب محفوظ

عرفت نجيب محفوظ في عام ١٩٤٣ وكان في صحبة أنداده من أعضاء لجنة النشر للجامعيين وهم: علي أحمد باكثير وعادل كامل وعبد الحميد جودة السحار. وكانوا في أعمار متقاربة في شرخ الشباب بينما كنت أصغر منهم بسنوات، ولكن صفتي الصحفية أغرتهم بأن يهدوني كتبهم، فأزمعت التعريف بهؤلاء الشبان المرجوين، وبادرت بالكتابة عنهم جميعاً لا مقالاً واحداً بل مقالات، وكان من حظ نجيب محفوظ خمس مقالات نشرت أربعاً منها في جريدة «منبر الشرق» لصاحبها علي الغاياتي مؤلف ديوان «وطنيتي» الثوري ومقالاً خامساً في مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات.

وبلغ من إعجابي بأدب نجيب محفوظ أنني ختمت مقالي عن روايته «رادوبيس» بقولي: «في اعتقادي أن هذه الرواية تستطيع أن تزاحم روايات الغرب إن هي وجدت من يُعنىٰ بترجمتها إلى لغات الأعاجم»، وهو ما اعتبره البعض نبوءة مبكرة بفوز نجيب محفوظ بالجائزة العالمية.

وكنت أزور نجيب محفوظ في مكتبه بوزارة الأوقاف في مطلع كل شهر لكي أقدم إليه نسخة من مجلة «الأديب» اللبنانية الشهرية لأنها كانت تحتفي بآثار الأدباء العرب وكذلك المهاجرين ولم يكن لنجيب محفوظ اطلاع على هذه الآثار، وكان يصر على أن يدفع ثمن المجلة زائداً عليه استضافتي على كوب من الشاي.

ولأن يوم الجمعة كان يوم عمل بالنسبة إليّ، فقد كان متعذراً عليّ أن أنتظم في ندوة نجيب محفوظ التي كان يعقدها على «روف» كازينو صفية حلمي في ميدان الأوبرا، ولكن تهيأت لي فرصة في يوم جمعة، فأزمعت أن أنضم إلى هذه الندوة وتوجهت إلى الكازينو ـ وكان له درجان (سلمان) درج

من الناحية اليمنى وثان من الناحية اليسرى، فاخترت الأيمن، وبمجرد أن وضعت قدمي على أول سلمة شاهدت رجال الشرطة بهراواتهم يطاردون رواد الندوة وهم يهرولون على الدرج الأيسر هاربين من عصيهم، فلذت بالفرار، وعرفت أن الشرطة فضت الندوة لاعتبارات لا دراية لي بها.

باعدت الأيام بيني وبين نجيب محفوظ إلا من لقاءات عارضة أغلبها في الطريق، فإذا التقينا كان العناق والقبلات هي المعبرة عن المودات القديمة بيننا، ولكنني لم أغش بعد ذلك المقاهي والكازينوهات والفنادق والبواخر التي صار نجيب محفوظ يلتقي فيها بالحرافيش الجدد الذين تكاثروا وتوالدوا وصار هو ـ بعد جائزة نوبل ـ مَعْلماً ضخماً من معالم الثقافة المصرية فيؤمه كثيرون من أعلام الفكر من البلدان العربية والأجنبية ومنهم رجال سياسة وزعماء.

وعلى الرغم من سبقي إلى التعريف بنجيب محفوظ في شبابه الأول ـ وهو سبق ينكره عليَّ مؤرخو الأدب دون أن أخسر شيئاً ذا بال، فإن نجيب محفوظ اعترف مرتين بدوري الأدبي، مرة عندما فاز بجائزة نوبل وأغار الصحفيون ومراسلو الصحف الأجنبية على بيته وسألوه: هل لك اطلاع على الأدب السويدي (فجائزة نوبل سويدية) فما كان من نجيب محفوظ إلا أن قال: نعم، فقد قرأت مسرحية «الأب» لأوجست سترندبرج، ولكنه لم يذكر اسم مترجم هذه المسرحية وهو قد أهداها إليه بنفسه عند نشرها في سلسلة لجنة النشر للجامعيين في شهر مايو ١٩٤٥. والمرة الثانية عندما التقت الكاتبة الكبيرة صافي ناز كاظم بنجيب محفوظ في ندوة بفندق شبرد وسألته عني فسمعت منه كلاماً طيباً مشفوعاً بالسؤال عن أحوالي وأخباري، وبادرت بنشر هذا الكلام في مجلة «نصف الدنيا» في عهدها الزاهر بإشراف سناء البيسي.

وما زلت أكنّ لنجيب محفوظ أعمق مشاعر الود والتقدير على المستويين الشخصي والأدبي، وإن كان هذا لا يعني أنه ـ حتى بعد فوزه بالنوبلية ـ قد أصبح فوق مستوى النقد.

وإذ أحتكم إلى القارىء في تقييم «أحلام فترة النقاهة» ففي اعتقادي أن

هذه الأحلام هي من كبوات نجيب محفوظ لأن «هلوسات» الأحلام التي لا يسلم منها أحد لا تستحق أن ترصد كعمل أدبي. أقول هذا بعدما راجعت سلسلة الأحلام التي تراءت لنجيب محفوظ في فترة النقاهة، سواء أكانت أحلاماً حقيقية أم أنها من تأليف كاتبها. وقد اخترت للتمثيل لكلامي ثلاثة من الأحلام هي:

الحلم الأول «أسوق دراجتي من ناحية إلى أخرى مدفوعاً بالجوع باحثاً عن مطعم لذوي الدخل المحدود ودائماً أجدها مغلقة الأبواب. وحانت مني التفاتة إلى ساعة الميدان فرأيت أسفلها صديقي فدعاني بإشارة من يده فملت بدراجتي نحوه. وإذا به على علم بحالي، فاقترح عليّ أن أترك دراجتي معه ليسهل عليّ البحث، فنفذت اقتراحه وواصلت البحث وجوعي يشتد. وصادفني في طريقي مطعم العائلات، فبدافع من الجوع واليأس اتجهت نحوه على الرغم من علمي بارتفاع أسعاره، ورآني صاحبه وهو يقف في مدخله أمام ستارة مسدلة، فما كان منه إلا أن أزاح الستارة، فبدت خرابة ملأى بالنفايات في موضع البهو الفخم المعد للطعام فقلت بانزعاج: ماذا جرى؟!

فقال الرجل: أسرع إلى كباجي الشباب لعلك تدركه قبل أن يشطب. ولم أضيع وقتاً فرجعت إلى ساعة الميدان ولكنني لم أجد الدراجة والصديق».

أما **الحلم الثاني** وهو برقم (١٣) فهو: «تريضت على الشاطىء الأخضر للنيل. الليلة ندية والمناجاة بين القمر ومياه النهر مستمرة تشع منها الأضواء. هامت روحي حول أركان العباسية المفعمة بالياسمين والحب ووجدت نفسي تردد السؤال الذي يراودها بين حين وآخر: لماذا لم تزرني في المنام ولو مرة واحدة منذ رحلت على الأقل لأتأكد من أنها كانت حقيقة وليست وهماً من أوهام المراهقة؟ وهل الصورة التي طبعت في خيالي هي الصورة الحقيقية للأصل؟ وإذا بصوت موسيقي يترامى إليّ من ناحية الشارع المظلم. صارت أشباحاً ثم تجلت مع ضوء أول مصباح صادفها في طريقها. أدهشني أنها لم تكن غريبة علي في الموسيقى النحاسية التي كثيراً ما استمعت إليها في صباي، ورأيتها تقدم بعض الجنازات، وهذا اللحن أكاد أحفظه حفظاً. أما المصادفة

السعيدة غير المتوقعة فهي أن حبيبتي الراحلة تسير وراء الفرقة هي هي بطلعتها البهية ومشيتها السنية وملامحها الأنيقة. أخيراً تكرمت بزيارتي وتركت الفرقة الجنائزية تسير ووقفت قبالتي لتؤكد أن العمر لم يضع هدراً. وقمت واقفاً منبهراً وتطلعت إليها بكل قوة روحي، وقلت لنفسي إن هذه فرصة لا تتكرر لألمس حبيبة القلب.

وتقدمت خطوة وأحطتها بذراعي، ولكني سمعت طقطقة شيء يتكسر وأيقنت أن الفستان ينسدل على فراغ، وسرعان ما هوى الرأس البديع إلى الأرض وتدحرج إلى النهر وحملته الأمواج مثل ورد النيل، تاركة إياي في حسرة أبدية!».

أما **الحلم الثالث**، وهو برقم (٢١) فنصه: «الشارع الجانبي لا يخلو من مارة وأناس في الشرفات والسيدة تسير على مهل وتقف أحياناً أمام معارض الأزياء.

يتعرض لها أربعة شبان دون العشرين، تتجهم في وجوههم وتبتعد عن طريقهم، ينقضون عليها ويعبثون بها، تقاوم، والناس تتفرج دون أي مبادرة.

الشبان يمزقون ثوبها ويعرون أجزاء من جسدها. السيدة تصوت مستغيثة. راقبت ما حدث فتوقفت عن السير، وتملكني الارتياع والاشمئزاز ووددت أن أفعل شيئاً أو أن يفعله غيري، ولكن لم يحدث شيء. وبعد أن تمت المأساة وفر الناس جاءت الشرطة، وتغير المكان فوجدت نفسي مع آخرين أمام مكتب الضابط، واتفقت أقوالنا. ولما سئلنا عما فعلناه كان الجواب بالسلب. وشعرت بخجل وقهر، وكانت يدي ترتجف وهي توقع بالإمضاء على المحضر».

لعل القارىء يسأل نفسه بعد تلاوة هذه النماذج الثلاثة: ما الحكمة أو الفائدة أو المغزى من هذه الأحلام؟ فلا استخرجنا منها درساً نعتبر به، ولا وجدنا فيها متعة أو مادة مسلية تذهب السأم، ولا عرفنا منها حقائق نجهلها، وإنما هي أحلام لا قوام يشدها ولا حبكة تجلو جوانب الإبداع فيها. وما دامت أحلاماً وليست كوابيس، فليت نجيب محفوظ نسيها عند اليقظة كما هو

حالنا جميعاً في نسيان الأحلام بعد النهوض من الفراش. ولا أظن أن نجيب محفوظ استمتع بهذه الأحلام، سواء في فترة النقاهة أو بعد استرداد صحته، فهل يريدنا نحن أن نستمتع بها؟





الصحفي محمود أبو الفتح دُفن مرتين في تونس.. فمتى يدفن في مصر؟

أكاد أجزم بأن الجيل الحالي من المشتغلين بالصحافة لم يسمع باسم محمود أبو الفتح ولا عرف شيئاً عن دوره في الصحافة، مع أنه انتخب نقيباً للصحفيين وأنشأ جريدة يومية صباحية كانت أشرس منافس عرفته جريدة «الأهرام» في كل تاريخها. وللتعريف بمحمود أبو الفتح أذكر أنه ولد في ١٥ أغسطس ١٨٨٥ واشتغل فترة بالمحاماة قبل أن يقرر التفرغ للصحافة. فعمل أولاً في جريدة «وادي النيل» وجريدة «الأفكار» ثم انتقل للعمل في جريدة «الأهرام». وفي أثناء ذلك قام بمغامرة كادت تكلفه حياته إذ سافر إلى ألمانيا وحجز لنفسه مقعداً في منطاد «زبلن» وهو بالونة ضخمة معبأة بالغاز يحتل الركاب ما يشبه شرفة في أسفلها، والمنطاد لا يستقر على الأرض كالطائرة، وإنما يظل معلقاً في الهواء على عمود مرتفع يصعد إليه وينزل منه الركاب بسلم.

وكان أبو الفتح المصري الوحيد بين ركاب المنطاد في الرحلة التي قام بها إلى مصر حوالي عام ١٩٣٦، وقد شاهدت المنطاد بنفسي في سماء القاهرة قبل أن يتاح لركابه النزول منه. وكانت هذه الزيارة حدثاً مثيراً على الصعيدين الرسمي والشعبي، وانفرد محمود أبو الفتح بوصف هذه الرحلة الجريئة في جريدة «الأهرام» التي كان من محرريها.

واستطراداً أقول إن منطاداً كان يحمل اسم «هيدلبرج» انفجر واحترق في سماء ولاية نيوجيرسي الأمريكية في ٦ مايو ١٩٣٧ وكان يحمل ٩٧ من الركاب احترق منهم ٣٦ راكباً وأصيب الباقون إصابات جسيمة. وبعد هذا الحادث تقرر التوقف نهائياً عن صنع المناطيد حتى لا تتكرر أمثال هذه الحوادث المفجعة.

وبسبب طموح محمود أبو الفتح قرر في عام ١٩٣٦ أن يصدر مع شريكين هما محمد التابعي وكريم ثابت جريدة يومية اختاروا لها اسم «المصري» تأكيداً لكونها جريدة مصرية في مواجهة «الأهرام» التي يملكها ويحررها الشوام، هذا مع أن واحداً من المؤسسين وهو كريم ثابت شامي.

وعندما انفرد محمود أبو الفتح بملكية الجريدة بعد شرائه أنصبة الشريكين، سخر كل تجاربه الصحفية وعلاقاته الداخلية والخارجية في خدمة الجريدة الناشئة التي لم تلبث أن قفزت بتوزيعها إلى أرقام قاربت أرقام توزيع «الأهرام» وهو ما تأكدت منه بنفسي عندما عملت في قسم التوزيع بجريدة «الأهرام» بين عامي ١٩٤٢ و١٩٤٥.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، تقرر أن تصدر الصحف اليومية في ستة أيام فقط على أن تنفرد إحدى الصحيفتين الصباحيتين في اليوم السابع دون مزاحمة في سوق القراء. وانتهز أبو الفتح هذه الفرصة وحشد لطبعة اليوم المنفرد كوكبة من شباب الأدباء منهم سعد مكاوي وعبد الرحمن الخميسي وعبد الرحمن صادق وعزيز أحمد فهمي وأيضاً ثروت عكاشة الذي كان يوقع مقالاته باسم مستعار. وعندما شرع عبد الرحمن الخميسي في نشر مقالات عن ألف ليلة وليلة في أسلوب عصري صادف إعجاباً طاغياً من القراء، وكانت الجريدة تتلقى بعد نشر كل فصل «زكائب» من مصلحة البريد فيها رسائل إعجاب بالخميسي، مما حدا بالجريدة إلى الاستمساك به وتقديره أدبياً ومادياً.

أما آن الآوان لنقل جثمان محمود أبو الفتح لكي يستقر في ثرى بلاده مصر؟
ليت الدكتور ثروت عكاشة، ولو بحكم مصاهرته لأسرة أبو الفتح،
يعمل على إعادة هذا «الغريب» إلى وطنه ولو في صندوق.

ظلت جريدة «المصري» ـ حتى وإن كانت لسان حال حزب الوفد المصري ـ تواصل الصعود في مدارج النجاح، ولا سيما بعد ما تولاها أحمد أبو الفتح واستعان بالدكتور محمد مندور ليكون كاتبها السياسي الأول، إلى أن قامت الثورة في عام ١٩٥٢ فانحازت الجريدة إليها سواء بسبب علاقات صداقة مع بعض رموزها أو بسبب علاقات مصاهرة بين آل أبو الفتح والضابط

ثروت عكاشة. ولكن هذه العلاقات لم تلبث أن ازدادت سوءاً وبلغت ذروتها بتقديم محمود وأحمد أبو الفتح للمحاكمة وتعطيل جريدة «المصري» نهائياً وصدر الحكم عليهما غيابياً لأنهما كانا قد غادرا البلاد، بل تمت مصادرة الأمتعة الشخصية لمحمود أبو الفتح في شقته بجاردن سيتي.

رأيت محمود أبو الفتح مرتين. المرة الأولى عندما فزت بجائزة فاروق الأول للصحافة الشرقية في عام ١٩٤٩، وأقام مانح الجائزة إدجار جلاد باشا صاحب جريدتي «الزمان» و«الجورنال ديجبت» مأدبة عشاء كبرى في فندق شبرد القديم. وجاء مجلسي على المائدة الرئيسية إلى جوار محمود أبو الفتح في حين جلس في مواجهتي كريم ثابت باشا مندوب جلالة الملك فاروق.

أما المرة الثانية فقد كانت في مدينة جنيف بسويسرا التي زرتها في عام ١٩٥٦ وكنت أقيم في فندق دي بيرج المطل على بحيرة ليمان، وكان للفندق مقهى يتردد عليه المصريون الزائرون لسويسرا. وكان محمد أبو الفتح يتصدر مجموعة من المصريين، وقد آثرت ألا أتطفل عليهم خشية أن ينقل الوشاة أنني تواصلت مع «الهارب» أبو الفتح فأتعرض لمساءلات عند عودتي.

وبعد عامين عرفت أن محمود أبو الفتح توفي في جنيف في ١٥ أغسطس ١٩٥٨ عن ٧٣ عاماً كاملة، ورغبت أسرته في دفنه في مصر، ولكن حكومة الثورة أبت عليه أن يدفن في ثرى مصر. وبأريحية ليست مستغربة من الحبيب بورقيبة رئيس تونس، فتحت تونس ذراعيها لاستقبال جثمان أبو التفح ووسد ثرى العاصمة تونس. وعندما استفسر بورقيبة عما إذا كان «الضيف العزيز» قد وصل، قيل له إنه وصل ودفن. فسأل: وهل أقيمت له جنازة رسمية؟ فقيل له: بل جنازة عائلية؟ وعندئذٍ أمر باستخراج جثمانه من مقبرته وتشييعه في جنازة رسمية وإعادة دفنه بعد ذلك.

منذ عام ١٩٥٨ وإلى عام ٢٠١٠ مرت اثنتان وخمسون سنة، أما آن الأوان لنقل جثمان محمود أبو الفتح لكي يستقر في ثرى بلاده مصر؟ ليت الدكتور ثروت عكاشة، ولو بحكم مصاهرته لأسرة أبو الفتح، يعمل على إعادة هذا «الغريب» إلى وطنه ولو في صندوق.



مستخرجات من الجعبة

يبتسم لي ثم يقف بقامته الفارعة المهيبة ويميل على الجالسين أمامه لكي يصافحني بحرارة، وفي هذه المرة لا أَعْزُو تحيته إلى الجريدة التي أعمل بها، وإنما عزوتها إلى رغبته الأبوية في التشجيع والحدب عليّ.

وفي نفس هذا العام (١٩٤٥) اختير الشيخ مصطفى عبد الرازق إماماً أكبر وشيخاً للجامع الأزهر، فتنازل عن رتبة الباشوية ـ وكان الوحيد في كل التاريخ الذي تنازل عن رتبته بمحض إرادته ـ وأطلق لحية وتخلى عن رياسة شرف الجمعية الفلسفية للدكتور منصور فهمي باشا (١٨٨٦ ـ ١٩٥٩). وعندما التقيت به في مناسبة عامة، تهيبت مصافحة الإمام الأكبر، ولكنه اتجه صوبي وصافحني بنفس الحرارة، فشكرته على عنايته وعطفه. وكنت في جميع المرات التي التقيت فيها بالشيخ مصطفى عبد الرازق أخاطبه بلقب «حضرتك»، فعندما كان باشا لم أخطابه حسب العرف المعهود «بسعادتك» أو «معاليك»، وعندما أصبح شيخاً للأزهر لم أخاطبه بلقب «فضيلتك»، وخشية أن يسيىء فهمي قلت له: إنني صعيدي مثلك، وقد عودتني أمي منذ نعومة أظفاري بأن أخاطب الناس بعبارة «حضرتك» وأرجو ألا تحسب أنني أحاول الانتقاص من أقدارك، فربت على ظهري، وقال: أهلاً بك يا ابني.

رويت هذه الواقعة بهذا التفصيل الممل لأصور كيف كان واحد من باشوات العهد الذي يسمونه بالعهد البائد البغيض، يتعامل مع الناس بروح إنسانية رفيعة وبأريحية فطرية تنم على شرف محتده. لقد كان رجلاً من أعظم شرفاء مصر، وكان على خلق سام وفضل عظيم.

أما الجمعية الفلسفية المصرية، فقد أصدرت للشيخ مصطفى عبد الرازق كتابين هما «فيلسوف العرب والمعلم الثاني» و«الدين والوحي والإسلام»

ونشرت نحو ٢٠ كتاباً لأعضائها في تبسيط الفلسفة ومذاهبها، وكان لولبها المحرك هو الدكتور عثمان أمين صاحب نظرية «الجوانية».

تسجيل الأدب العربي في المحاكم المختلطة

من الأوراق التي استخرجتها من جعبتي صفحة واحدة عنوانها: «المعين في تاريخ آداب اللغة العربية» أعدها الخوري يوسف مارون البشعلاني، وقام بتسجيلها في المحكمة المختلطة بالإسكندرية في أول مايو ١٩٣١ تحت رقم ٩ ونشرها في جريدة «البصير» السكندرية وفي جريدة المحاكم المختلطة كيما يحتفظ بجميع حقوق التأليف. وسجل البشعلاني في هذه الصفحة الوحيدة كل تاريخ الأدب العربي على هيئة جداول، قدم لها بعبارة: «إذا جاز لنا التشبيه يمكننا أن نشبه آداب اللغة العربية في عصورها الخالية بروضة غناء، أضاءها قمر الجاهلية، وطلع عليها فجر الإسلام، وسطعت فيها شمس العصور العباسية، وغابت عنها عند سقوط بغداد فساد عليها الظلام ليل عصر الانحطاط، إلى أن بزغ فجر النهضة الحديثة مبشراً بالشمس الساطعة. أو بشجرة غرست في تربة جيدة، فنمت في العصور التي تقدمت زمن التاريخ، وأورقت في العصر الجاهلي، وأزهرت في العصر الإسلامي، وأثمرت ونضجت في العصور العباسية إلى أن جاء المغول فقطعوها ورموا بأكثر ثمارها في نهر الفرات، ولكن الحياة ما زالت تدب في جذورها طيلة عصر الانحطاط، فأخذت تنبت فروعاً كثيرة طافحة بالحياة والقوة، فأورقت وأزهرت في عصر النهضة الحديثة، ونحن الآن بانتظار ثمارها اليانعة».

والجداول الواردة في هذه الصفحة بعضها مستعرض وبعضها طولي، فالجداول الطولية تتناول عصور الأدب، وهي العصر الجاهلي وصدر الإسلام والعصر العباسي الأول والعصر العباسي الثاني وعصر الانحطاط والعصر الحديث. أما الجداول المستعرضة فتتناول الأمم المختلفة، وقد قسمها إلى قبائل العرب، ثم ظهور الإسلام، والدولة الأموية في الأندلس، والدولة الفاطمية والشرقية والأيوبية، ثم دولة المماليك والحكم العثماني والعصر

الحديث في مصر ولبنان والعراق. تلت ذلك الفنون المختلفة، وهي: فن الشعر وفن النثر والعلوم. ثم قسم فن الشعر إلى أغراضه وهي: الفخر والمدح والوصف والهجاء والرثاء والزهد والغزل والخمر والحكمة، كما قسم النثر إلى الخطابة والنثر الفني والصحافة. أما العلوم فتنقسم إلى علوم اللغة والأدب والفقه والحديث والتاريخ والجغرافيا والطبيعيات والرياضيات.

وإذا رغب باحث في حصر شعراء الغزل في جميع العصور مثلاً، وقع في العصر الجاهلي على المهلهل وأصحاب المعلقات، وفي صدر الإسلام على عمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر، وفي العصر العباسي الأول على بشار بن برد وأبي نواس وأبي تمام والبحتري وابن عبد ربه، وفي العصر العباسي الثاني على أبي فراس وابن هانىء والبهاء زهير، وفي عصر الانحطاط على الشاعر الظريف والبوصيري وابن نباتة، وفي العصر الحديث على الخشاب والعطار وفكري والجبرتي وأبي النصر والبارودي وصبري.

فإذا عنّ لباحث أن يستقصي مسيرة أعلام التاريخ صادف في العصر العباسي الأول الواقدي والطبري وابن البطريق، وفي العصر العباسي الثاني المسعودي والعتبي وابن النديم وابن مسكويه والبغدادي وفخر الدين ابن الأثير وياقوت، وفي عصر الانحطاط ابن العبري وابن خلقان وأبا الفدا وابن بطوطة وابن خلدون والمقريزي والبيروني والمقري، وفي العصر الحديث رفاعة وجرجي زيدان والمطران الدبس.

ويستطيع الباحث من هذه الجداول الكاشفة أن يعرف الأغراض الشعرية التي استأثرت باهتمام الشعراء في جميع العصور. فإن تميز شاعر بغرضين أو أكثر، ورد اسمه فيها جميعاً. وهكذا يستطيع الباحث أن يقف على ضالته في ثوان معدودات، فيحدد العصر الذي ينتمي إليه شاعر ما أو الفترة الزمنية التي عاش فيها مؤرخ أو عالم في الرياضيات وهلم جرّاً. وأشار البشعلاني إلى أن لديه كتاباً يحمل نفس هذا العنوان، وهو «المعين» وفيه تفصيل لكل ما ورد مركزا أو مضغوطاً في هذه الصفحة الواحدة.

شاعر ينشر شعره كإعلان مأجور

أثناء عملي محرراً في جريدة «المقطم» كنت ألاحظ شيخاً أزهرياً وقوراً يؤم المطبعة في الحين بعد الحين ويطلب «سلخة» من المطبعة لمراجعة نصها، دون أن يعتمد على المراجعين الدائمين في الجريدة. فاستفسرت من زميلي الواقف في المطبعة عمن يكون هذا الشيخ، وماذا يفعل هنا، فقال: إن هذا الشيخ هو عم أحمد نجيب الهلالي باشا الذي تولى وزارة المعارف ثم أصبح رئيساً للوزراء، وإن له هواية نظم الشعر، وقد جرب إرسال شعره إلى الصحف فأهملته، ومن هنا قرر أن ينشره كإعلان مأجور في جريدتنا.. وها هو يراجع قصيدته ليطمئن إلى خلوها من أغاليط الطباعة.

حكايات عن شواهد القبور والأضرحة

كانت لصديقنا الأديب الراحل رضوان إبراهيم (١٩١٩ ـ ١٩٧٥) عناية خاصة بابن خلدون، إذ عمل على تيسير مقدمته ثم ترجم كتابين عنه من اللغة الروسية التي كان يجيدها.

وقد أخبرني أن قدميه ساقتاه ذات يوم إلى إحدى مناطق المقابر في القاهرة، فاكتشف أن من بينها مقبرة الفيلسوف ابن خلدون، وقال: إنه كتب مقالاً ينبه فيه إلى عثوره على هذه المقبرة، فلم يحفل به أحد.

وروى صديقنا العلامة التونسي أبو القاسم محمد كرو، أطال الله بقاءه، نقلاً عن سامي الكيَّالي (١٨٩٨ ـ ١٩٧٣) صاحب مجلة «الحديث» الحلبية أن المسؤول الفرنسي عن الآثار في سورية في زمن الاستعمار الفرنسي باع بفرنك واحد إلى بعض المسؤولين في باريس لوحة منقوشة على ضريح أبي العلاء المعري المدفون في حلب تحمل بيته الشهير:

هذا جناه أبي عليّ ... وما جنيت على أحد

وقد اختفت هذه اللوحة ولا يعرف مصيرها في الوقت الحالي.

ويروي الأديب اللبناني مارون عبود (١٨٨٦ ـ ١٩٦٢) أنه كان يمر بسيارته يومياً بمقبرة مجهولة تقع في أول طريق الشام في بيروت، وذات يوم،

أمر سائق السيارة بأن يتوقف عند المقبرة، وترجل من السيارة لكي يكتشف أن هذا الضريح هو للأديب اللبناني أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٨) وأن سكان المنطقة كانوا يحسبونه واحداً من أولياء الله الصالحين، ومع ذلك كانوا يعلقون ثيابهم المغسولة على الضريح! ثم قامت دار الصياد في حياة منشئها سعيد فريحة بإنشاء مؤسسة صحفية ضخمة بالقرب من الضريح الذي أصبح مهدداً بسبب الضجيج والعجيج الناشىء عن حركة المطابع والسيارات في المنطقة. فطالب مارون عبود بإنقاذ الضريح ونقله إلى مكان آخر، واستجابت السلطات له ونقلته إلى منطقة الحازمية في بيروت دون أن تضع عليه أي شاهد يدل على صاحبه. فكتب عبود مناشداً المسؤولين أن يضعوا لوحة عليه تحمل اسمه.

وأخبرني صديقي العلامة الأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ ـ ١٩٦٨) صاحب المعجم الزراعي الكبير والرئيس الأسبق لمجمع اللغة العربية بدمشق أنه أوصى بأن ينقش على ضريحه بيت من تأليفه هو:

أم اللغات، قضيت العمر أخدمها ... فهي الشفيعة في غفران زلاتي

وكنت مرة في زيارة صديقي الشاعر محمود أبي الوفا (١٩٠١ ـ ١٩٧٩) فرأيت في غرفته لوحة نقش عليها بيت من شعره هو:

حسبي إذا الحب أضناني فمت هوى ... إذ يذكروني قالوا: كان إنساناً

ولما سألته عن قصده من هذه اللوحة، قال إنه إنما أراد أن يطمئن من الآن على وضعها على ضريحه في قريته «الديرس» بمركز أجا.

وكان ضريح الأديبة مي زيادة (١٨٨٦ ـ ١٩٤١) في مقابر الموارنة في مصر القديمة عندما زارته وصورته الأديبة السورية سلمى الحفار الكزبري، رحمها الله، يحمل عبارة «هنا ترقد نابغة الشرق، زعيمة أديبات العرب، المثل الأعلى للأدب والاجتماع، المرحومة مي زيادة، صلوا لأجلها ـ دفنت في ٢٠ أكتوبر ١٩٤١»، فلما هدم هذا الضريح ونقلت رفاتها إلى فجوة في جدار في نفس المقابر، اقتصرت اللوحة المثبتة عليها على عبارة موجزة هي «الأديبة مي زيادة نابغة الشرق ١٩٤١».

وكان صديقنا الأديب العراقي جعفر الخليلي (١٩٠٤ ـ ١٩٨٥) قد أوصى بأن توضع على قبره لوحة نصها: «هنا يرقد جعفر الخليلي الذي لا يعرف لم جاء إلى هذه الدنيا ولم غادرها». ولما توفي فجأة في دبي أثناء زيارته لكريمته هناك، أعدت الأسرة اللوحة الموصى بها، ولكن السلطات هناك منعت وضعها على المقبرة.

أما أغرب قصص الأضرحة فهي الخاصة بالملياردير اللبناني أميل البستاني، الذي خشي أن تفاجئه المنون، فأقام لنفسه ولأسرته ضريحاً من الرخام الفاخر المستورد من الخارج، ثم رغب في الاحتفال بتدشين الضريح، ودعا أصدقاءه إلى حفلة كوكتيل ليشاهدوا بأنفسهم البراعة الفنية في تصميم الضريح الذي سيضمه ذات يوم مع زوجته وابنته. وفي أوائل عام ١٩٦٣ قرر إميل البستاني السفر بطائرته الخاصة إلى لندن، ودعا صديقه الطبيب الدكتور نمر طوقان، شقيق الشاعرة فدوى طوقان والأستاذ بجامعة بيروت الأمريكية، لكي يرافقه في هذه الرحلة، ولم تكد الطائرة تقلع من مطار بيروت المتاخم للبحر المتوسط، حتى هوت في البحر واختفت تماماً تحت المياه الساحلية. واستعين بأضخم الكراكات والأجهزة والغواصين من شركات مقاولات «كات» المملوكة لإميل البستاني للبحث عن الطائرة وانتشال جثث ركابها، فذهبت جميع محاولاتهم سدى.

دستور الحياة السعيدة

عرفت الدكتور محمد مظهر سعيد الذي كان يصف نفسه بأنه «عميد الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتربية» ـ وهو لقب يستحقه بلا مراء - وعرفت زوجته المربية الوقور نظلة الحكيم وشقيقتها المربية الفاضلة زينب الحكيم، وكانوا إذا اجتمعوا مع رواد ندوتهم يفيضون على الجالسين من معين خبرتهم وتجاربهم بما يستعينون به في حياتهم العملية، والأهم هو انتفاعهم بما يقوّم سلوكهم الخلقي في التعامل مع المجتمع. وكان مظهر سعيد أول من يلبي أي دعوة لإلقاء محاضرة أو للمشاركة في ندوة أو للاجتماع في منتديات الشبيبة مع الجيل الطالع، يمحضهم الخمير من الآراء والسديد من التوجيهات بعدما دانت له جميع أسباب الحكمة ومبادىء التربية القويمة والأسس النفسية

الرشيدة. وله طائفة من المؤلفات منها «جمهورية أفلاطون» و«علم النفس الاجتماعي» و«سجين ثورة ١٩١٩». وكان من دواعي فخري أنني شاركت معه ومع زوجته نظلة الحكيم في ندوات لمعالجة مشكلات الشباب النفسية والعاطفية ولتقييم دور علم النفس في الدراسات الأدبية.

وعندما سبقته زوجته إلى عالم البقاء، قاوم الوحدة المدمرة بالإكثار من التردد على الندوات وقبول الدعوات على الرغم من أن سنه كانت قد شارفت الثمانين. وما أكثر ما نصحته ـ بحكم الود الموصول بيننا ـ بالإشفاق على شيخوخته من هذا النشاط الذي لا قبل للشباب باحتماله، فكان يقول لي إن سلواه الوحيدة هي الاجتماع بالناس والتحدث إليهم ومساعدتهم في حل مشكلاتهم النفسية والعاطفية وتوجيه الشباب إلى المحجة السليمة. وكنت أقول له إنك لا تملك سيارة، وتضطر إلى استخدام وسائل المواصلات العامة في تنقلاتك، وتعود إلى بيتك في عتمة الليل، وطرقنا غير مأمونة. فكان يكرر قوله إن حياته موصولة بالناس ولا حياة له مع العزلة والتنسك.

وفي إحدى ليالي عام ١٩٧٠ كان الدكتور محمد مظهر سعيد عائداً إلى بيته بعد مشاركته في ندوة. وترجل من سيارة الأوتوبيس في شارع الجيزة بالقرب من فندق شيراتون القاهرة، وحاول عبور الطريق إلى بيته الكائن في الناحية المقابلة، فافترسته في ظلمة الليل سيارة مسرعة، ثم تلقفته سيارة قادمة من الاتجاه الآخر، واصبح بجسمه الرقيق الناحل مثل الكرة التي تتقاذفها الأيدي. ولما أصبح الصباح، عثر على جثمانه مفترشاً الطريق، واهتدي إلى شخصيته من بطاقة الهوية التي كان يحملها في جيبه.

وكان مظهر سعيد أديباً مطبوعاً جميل الأسلوب، لا يحاضر إلا ارتجالاً، ولا يلحن في لفظ أو يتعثر في عبارة، وكان إلى ذلك شاعراً مجيداً. وآية ذلك القصيدة الطويلة التي أهدانيها بخط يده وجعل عنوانها: «دستور الحياة السعيدة» وأذن لي في نشرها عندما تحين الفرصة، وبقيت هذه القصيدة، التي تكاد تكون «روشتة للسعادة» جاثمة بين أضابيري إلى أن استخرجتها الآن. وقد ختمها ببيت رائع هو:

هبات الله لا تحصى ولكن ... حياتك بينها أغلى الهبات

وتحدوني أمانة الوفاء إلى إثبات النص الكامل لهذه القصيدة؛ لأنها فعلاً دستور يوطىء للحياة السعيدة.

سعيد من يقول بملء فيه: ... أعيش اليوم في أوج الحياة
بلا قلق يعكر صفو نفسي ... ولا هم انتظار الحادثات
وأترك ما مضى يذوي بعيداً ... ليدفن في قبور الذكريات
فلا يبقى سوى أثر قديم ... مَليء بالعظات الملهمات
وأترك ما تجيء به الليالي ... غداً أو بعده، من كارثات
فلست بمرجع ما فات مني ... ولست بمرجىء ما سوف ياتي
لماذا الهمّ من همّ بعيد ... أقدر أنه لا بد آت
لماذا الهمّ من مأساةِ أمسي ... وقد ولت، وراحت في سبات
وأقصى الهم موت أو فراق ... فهل أجدى بكاء النائحات؟

* * *

فلا تيأس، فإن اليأس سم ... يشل العقل عند المشكلات
وبالصبر الجميل تجد عزاء ... وصعب الأمر يسهل بالأناة
ولا تهرب من الأحداث خوفاً ... من العقبى، وواجه في ثبات
فبالفكر الرصين تجد حلولاً ... ميسرة لكل المعضلات
ولا تتبع مضلاً في طريق ... وسر بالعكس في سبل الهداة
وخير الأمر أوسطه، فخذه ... وحاذر أن تكون من الغلاة
ولا تبن من الأوهام قصراً ... تنال به جميع الأمنيات
فلا تجدي الحياة بغير جهد ... ولا تأتي المنى بالمعجزات

* * *

ولا تبك على خير تولّى ... فما يغني البكا بعد الفوات
عيون باسمات في الرزايا ... لأجمل من عيون باكيات
ولا تحسد أناساً في نعيم ... فلا تدري متى النعمى تواتي
تمر السحب مراً بالعطاش ... وتهمي في الصحارى ممطرات

ولا تبغِ ولا تظلم ضعيفاً ... فإن الله يبطش بالطغاة
ولا تهدم، فما في الهدم خير ... وحاول أن تكون من البناة
ولا تعبأ بمدح أو هجاء ... ولا تخدع بقول أو سمات

* * *

وإن من هم نفسك ضقت ذرعاً ... فخفف من همومك بالصلاة
فداء الجسم يشفيه طبيب ... وداء النفس عزّ على الأساة
وإن حاقت بك الأخطار فافزع ... إلى مولاك، تظفر بالنجاة
وكفك بالندى تزداد خيراً ... فزد في رأس مالك بالزكاة
وبر الأهل والإخوان أجدى ... لتدعيم الروابط والصلات
فلا تفصم عرى ود قديم ... فحفظ الود من خير الصفات
وإن تعتب صديقك فادخره ... ولا تصرم حبالك بالهنات
فبالمعروف تأسر كل نفس ... وتمحو الحقد من قلب العداة
وإن أخطأت أو أذنبت يوماً ... بلا عمد، ومن غير افتئات
فلا تندم على ما فات، واعلم ... حساب الناس رهن بالنيات
فإن تزرع بذور الشر تحصد ... ثمار الشر من مر النبات

* * *

وإن تبدأ حياتك من جديد ... على ضوء النيات الصافيات
ترى الصحراء، لا قفراً، ولكن ... جناناً مزهرات مثمرات
وفي فجر النهار ترى شموساً ... بأنوار الطبيعة مشرقات
وتسمع في هدير الرعد لحناً ... كتغريد تلألأ لطيور الصادحات
وفي الليل البهيم ترى نجوماً ... تلألأ كالدراري اللامعات
ترى دنيا الجمال، وكل شيء ... بها، كالغانيات الفاتنات
وتحيا في شباب مستمر ... على رغم السنين الخاليات

* * *

هبات الله لا تحصى، ولكن ... حياتك بينها أغلى الهبات

حظ الأدباء!

الأدباء والمفكرون بشر، تسري عليهم النواميس التي تسري على سائر البشر. فهم غير مخلدين، ولا يتمتعون بمزايا تجعل منهم أرباباً فوق البشر (سوبرمان). وهم غير محصنين ضد تجارب الحياة القاسية بل القاضية. ففي بعض الأحيان، مهما تذرعوا بالشجاعة أو اعتصموا بالأمل في وجه محن الحياة فلا مهرب لهم من الانصياع لأوامر المقادير ونواهيها. فهل طابت الحياة للأدباء بسبب الشهرة المواتية أو الحظوظ العارضة، أو أن «قاصمة الظهر لهم بالمرصاد»؟.

ولعل في «الحكايات» التالية نماذج بعضها صارخ عمّا عاناه أدباء في مسيرة الحياة وبعضها طارد لهم من الحياة كلها.

وربما كانت أقسى تجارب الحياة فقدان الابن الوحيد، وهو ما عانى منه المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك والقاص محمود تيمور بك.. ولولا قدرتهما على التجلد والصبر لما استطاعا مواصلة الرسالة التي نذر كل منهما نفسه لأدائها.

لكن، كيف نجا عباس محمود العقاد من حبل المشنقة؟.

في أثناء الحرب العالمية الثانية انقسم العالم إلى فريقين، فريق يسمى المحور يتزعمه هتلر بمطامحه النازية الاستعمارية، وفريق يسمى الحلفاء تتزعمه بريطانيا، وبين الفريقين حرب عالمية عوان تسيل فيها الدماء لا أنهاراً بل محيطات! وفي هذه الأثناء أصدر العقاد كتابه «هتلر في الميزان» حمل فيه حملة شعواء على هذا الطاغية الذي يطمع في أن يخضع العالم كله لحكمه. ولئن قيل وقتها إن وراء تأليف هذا الكتاب دعاية صارخة للحلفاء، فقد ارتاع المحور من هذه الحملة العنيفة عليه من جانب كاتب كبير موهوب مثل العقاد.

وهنا انبرى مذيع راديو برلين، يونس بحري، بصوته المجلجل مهدداً العقاد بالتعليق على المشانق عندما تصل القوات الألمانية إلى مصر. وعندما وصلت القوات الألمانية بقيادة الجنرال روميل إلى العلمين وهددت بالزحف على كل مصر، بادر العقاد بركوب أول طائرة متجهة إلى الخرطوم، وكانت تلك هي المرة الأولى ولعلها الأخيرة التي غامر فيها العقاد بركوب الطائرة. وعندما نجح الفيلد مارشال مونتجمري القائد الإنجليزي في دحر جيوش روميل مما أدى إلى انتحاره، عاد العقاد إلى مصر آمناً على حياته. ومع أن معظم كتب العقاد أعيد طبعها، فإن كتاب «هتلر في الميزان» لم يأت عليه الدور.

ويروي الدكتور فارس نمر باشا صاحب مجلة «المقتطف» وجريدة «المقطم» أنه تعرض في حياته بسبب مواقفه السياسية لإرهاب بوعيد ووعود بمال ورتب ونياشين، فكان لا يلين إزاء ذلك، ويستطرد قائلاً: «كنت أتلقى الحكم عليَّ بالإعدام وأنا صامت حتى لم أعد أعبأ بتلك الأحكام بعدما تكررت عليَّ ثلاثاً بالإعدام، وهي لا تزال محفوظة بين أوراقي ليقرأها من ينتفع بها بعدي ويترحم على مصدريها كما أترحم أنا عليهم اليوم بعدما بلغت من العمر عتياً، ولم يبق أحد منهم حيّاً، فبعضهم مات حتف أنفه، وبعضهم مات غيلة أو بإنفاذ حكم الإعدام فيه!».

وقد قدر للدكتور فارس نمر باشا أن يعيش إلى سن الخامسة والتسعين ليشهد مصارع جميع الذين طلبوا عنقه.

أما الشيخ الأزهري علي الغاياتي الذي انضم إلى الحزب الوطني بزعامة محمد فريد بك بعد وفاة مؤسسه مصطفى كامل باشا، فقد احترف العمل في الصحافة الحزبية، وهي جريدة «اللواء» وكانت له موهبة الشعر، وإن كان سخر هذه الموهبة لنظم القصائد ذات التوجه الثوري الوطني وجمعها في ديوان عنوانه «وطنيتي» واستكتب محمد فريد بك والشيخ عبد العزيز جاويش مقدمتين للديوان. وبصدوره نشر الشيخ علي يوسف باشا صاحب جريدة «المؤيد» مقالاً انطوي على تحريض السلطة على الديوان، فبادرت السلطات باعتقال محمد فريد بك وعبد العزيز جاويش، أما الغاياتي

فأفلح في الهرب أولاً إلى تركيا ثم إلى سويسرا، وحكم على فريد بك بالسجن ستة أشهر وعلى الشيخ جاويش بالسجن ثلاثة أشهر وحكم غيابياً على الغاياتي بالسجن سنة واحدة.

وفي سويسرا تزوج الغاياتي من سيدة سويسرية هي التي علمته اللغة الفرنسية حتى أجادها، وهناك أصدر جريدة «منبر الشرق» باللغتين الفرنسية والعربية. ولأن جنيف خلت وقتها من المطابع العربية، فكان الغاياتي يكتب القسم العربي بخط يده الجميل، ثم يستخرج له «إكليشيه» بحجم الصفحة حتى تصدر الجريدة باللغتين.

ومع أن حياته في سويسرا اتسمت بكل أسباب الراحة والطمأنينة، وكان في وسعه أن يواصل الإقامة هناك إلى آخر العمر، إلا أنه كان قلقاً على مستقبل بناته الأربع في هذه الغربة. ولهذا قرر فور سقوط الحكم الصادر ضده غيابياً بالتقادم العودة إلى مصر وهدفه الرئيسي - كما أخبرني بذلك - هو تزويج بناته من مصريين هم الدكتور مصطفى الحفناوي المحامي والدكتور محمد البهي الذي تولى وزارة الأوقاف والشاعر الدكتور مختار الوكيل والصحفي محمد علي ناصف، وأعاد إصدار «المنبر» في مصر.

وإذا كان الغاياتي قد نجا من السجن، فإن حياته في مصر لم تسلم من كوارث. حيث لقي ابنه الوحيد مصرعه برصاصة من بندقية الصيد التي كانت معه، ولقي حفيده ذياد الحفناوي مصرعه في حادث، ولقيت حفيدته منى ناصف مصرعها عندما افترسها مصعد العمارة التي كانت الأسرة تقيم فيها، أما ابنته «جميلة» (زوجة مختار الوكيل) فقد هجم عليها شخص يقال إنه إثيوبي لم يستطع مقاومة جمالها وهي واقفة بباب الدار، فقضم أنفها ولاذ بالفرار.

لقد أفلت الغاياتي من عذاب السجن لكي يواجه هذه الكوارث.

على أن هناك من الأدباء من ضاقت بهم السبل فلم يجدوا منها مخرجاً إلا بالانتحار.

كان الشاعر المصري فخري أبو السعود قد أوفد إلى إنجلترا في بعثة دراسية، وهناك تعرف بفتاة إنجليزية حيث تزوجها وأنجب منها طفلاً، لكن

الحياة بينهما لم تجر صفاء، فانفصلا، وعاد هو إلى الإسكندرية تاركاً ابنه في رعاية مطلقته. وبسبب الحرب العالمية الثانية خشيت الحكومة الإنجليزية من أن يتعرض الأطفال ـ وهم عدة المستقبل ـ للإغارات الجوية الألمانية، فقامت بجمعهم وشحنهم في باخرة قاصدة كندا باعتبارها مأوى آمناً لهم. لكن طوربيداً ألمانياً أغرق الباخرة بكل ما عليها من أطفال أبرياء ومنهم ابن الشاعر فخري أبو السعود. وعندما تلقى هذا النبأ الصاعق أطلق على نفسه الرصاص منتحراً.

كما أن الأديب المصري إسماعيل أحمد أدهم لم يتحمل وطأة الهجوم عليه بعد نشره رسالة عنوانها: «لماذا أنا ملحد» فانتحر بإلقاء نفسه في بحر الإسكندرية.

وفي لبنان أنهى الشاعر خليل حاوي حياته، بالانتحار، وقيل في تعليل ذلك إنه انتحر بسبب الحرب الأهلية التي كانت ناشبة هناك، وقيل إن سبب انتحاره هو فشله في علاقة عاطفية مع دبلوماسية عراقية تدعى ديزي الأمير كما اعترفت هي بذلك، وربما كانت هناك أسباب أخرى ماتت بموته.

وإذا كان البعض قد آثر الانتحار، فهناك من اختاروا الهجرة فراراً من منغصات الحياة مثل الأديب فرح أنطون الذي ضاق بملاحقة سيدة من سكان حي شبرا، ولم يجد مفراً منها إلا بالهجرة إلى أمريكا مع شقيقته روز، وهناك عاود إصدار مجلته «الجامعة» كما عمل في تجارة السجاد العجمي، ثم نجح في إقناع صديقه نقولا الحداد مترجم نظرية النسبية لأينشتين باللحاق بهما للعمل في هذه التجارة، وهناك تزوج من روز وعاد ثلاثتهم إلى القاهرة لفشلهم في ممارسة التجارة.

أما هجرة الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي إلى الولايات المتحدة وهو في سن متأخرة نسبياً فمن أسبابها المعلنة أنه ضاق بمعاكسات من أدباء منهم كامل الكيلاني ومحمد مصطفى حمام، ومنها أن زملاءه في معامل التحليل الحكومية التي كان يعمل بها في الإسكندرية اتهموه بالإهمال لأن الشعر ومجلة «أبولو» استغرقت كل وقته، ومنها أنه أنفق كل ما ورثه عن أبيه

على إصدار مجلة «أبولو» ودواوينه ودواوين شباب «أبولو» ومنها أنه اكتشف أن زوجته الإنجليزية مريضة بالسرطان فأراد أن يهيىء لها فرصة أفضل للعلاج في أمريكا، وإن كانت توفيت قبيل هجرته.

وإذا كانت هجرة «أبي شادي» قد هيأت له مجالاً رحباً للإنتاج فجهز هناك خمسة دواوين عدا مئات من المحاضرات والمقالات، فقد دفع هناك ضريبة صرامة الحياة المادية القاسية حيث ظل يكافح في سبيل العيش إلى أن سقط صريعاً وعمره ٦٣ عاماً.

وهناك من هاجر فراراً من الطغيان ولا سيما في ظل الحكم الباطش كما حدث في العراق حيث اضطر الأديب العراقي جعفر الخليلي إلى الهجرة إلى الأردن لأنه لم يتحمل ضراوة حكم صدام حسين، وفقد بسبب هجرته كل أملاكه، بل تم إحراق مكتبته الخاصة التي ضمت أيضاً كتباً ثمينة ورثها عن أبيه، ذهبت كلها طعمة للنار.





قرياقص ميخائيل
عمدة في لندن من صعيد مصر

كنت حديث عهدٍ بالعمل في الصحافة، أتلمس طريقي في دروبها الشاسعة، وأحاول الإلمام بأخبار السابقين من أعلامها، والتعرف بكبار العاملين في ميدانها، عندما أقبل على مكتبي في جريدة «المقطم» رجل قصير بدين، في يسراه عكازة، غاضت عيناه وشاب شعر رأسه، وقال لي بلهجة صعيدية محببة وبروح ودية رقيقة: «أنا قرياقص ميخائيل، فهل تسمح لي بأن أجلس معك قليلاً للتعارف؟» فرحبت به وأنا أسائل نفسي: «من يكون هذا القرياقص ميخائيل، وأية جامعة تجمعني به»؟

وبسبب عفويته وعذوبة شخصيته، لم أملك إلا أن أعير له أذناً صاغية، فقال: «إنني زميل لك، أعمل بالصحافة في لندن حيث أعيش منذ خمسين عاماً متطوعاً لخدمة القضية المصرية وقضايا العرب جميعاً».

ثم أخرج من حافظته كتيباً عنوانه: «جهاد شاب وطني» ألفه عنه توفيق حبيب، وهو «الصحفي العجوز» الذي كان يحرر في جريدة «الأهرام» عموداً يومياً بعنوان «على الهامش»، كما أخرج مجموعة من الكتيبات المطبوعة باللغة الإنجليزية عنوانها «نشرة مصرية» Egyptian Journal، ومجموعة أخرى عنوانها «تذكارات» Souvenirs، ومجموعة ثالثة عنوانها «رسائل دورية» Circulars صادرة عن مكتب الأنباء والاستعلامات المصري في لندن المنشأ في عام ١٩١٠ وهو ـ كما جاء في عنوان الرسائل «أقدم مكتب مصري مستقل في العالم المتحضر»، ثم قال: «لن أزعجك بالحديث عن نفسي، وستعرف من أنا عندما تطالع هذه الكتيبات التي أهديك إياها».

وانصرف معتذراً عن إضاعة وقتي، ومبدياً اغتباطه بالتعرف بصحفي شاب تابع ما كان ينشره من مقالات الصدر في الجريدة المسائية العتيقة

«المقطم» سواء وهو في لندن أو بعد وصوله إلى القاهرة. ووعد بأن يزورني في اليوم التالي لمزيد من التعارف.

وعكفت في المساء على مطالعة هذه الكتيبات، فبهرتني شخصية هذا الرجل الذي خرج من أعماق الصعيد وهو شاب لم يظفر بأي دراسة عليا، وجعل من لندن مستقره، ونصب نفسه محامياً متطوعاً عن قضايا أمته. فإذا قرأ مقالاً في جريدة إنجليزية ينكر فيه كاتبه على مصر حقها في الاستقلال، رد عليه مفنداً حججه. وإذا سمع تصريحاً لسياسي بريطاني ضد مصر، تصدى له بالرد والمحاجة. وقد أعانه على ذلك تمرسه بالتقاليد الغربية التي أكسبته من المصداقية ما جعل منه لساناً خليقاً بالاحترام في أدغال الصحافة البريطانية زمن الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس!

في مدينة المراغة، مركز جرجا، محافظة سوهاج، ولد قرياقص ميخائيل عام ١٨٨٧ في أسرة قبطية. ولما بلغ سن التلقين، ألحقه أبوه بمدرسة بسطابك في سوهاج، وكانت من أكبر المدارس وقتها. وانتقل منها بعد ذلك إلى كلية الأمريكان في أسيوط، ثم التحق بمدرسة الأقباط الكبرى بالقاهرة حيث أتم المرحلة الثانوية وعمره ١٦ عاماً.

وكان وهو طالب مولعاً بقراءة الصحف ومتابعة أخبار الجهاد الوطني في سبيل الاستقلال. فلما عين مدرساً في مدرسة أهلية في بلدة ميت يشار بمحافظة الشرقية - وصار بعد ذلك ناظراً لها - أخذ يراسل جريدة «الأجبشيان جازيت» وصحيفتي «المؤيد» للشيخ علي يوسف و«الوطن» لجندي إبراهيم.

ولكنه برم بالتعليم، وأزور عن ميدانه بعد أربع سنين، واتخذ من الإسكندرية مقراً له في عام ١٩٠٨، وفيها تتلمذ على يدي أستاذ إيرلندي، قرأ عليه طائفة من كتب الأدب الإنجليزي ودربه على الكتابة باللغة الإنجليزية. وفي الثغر أنشأ «المكتب المصري للأخبار والاستعلامات» وفتح له في عام ١٩١٠ فرعاً في لندن.

وكان المعتمد البريطاني في مصر السر إلدون غورست قد استخف بالحركة الاستقلالية المصرية، فانبرى له قرياقص ميخائيل يرد عليه بمقال بعث به من الإسكندرية إلى جريدة التيمس اللندنية.

ولكن الجريدة ردته إليه معتذرة عن عدم نشره. فبعث بنفس المقال إلى جريدة بريطانية أخرى هي «پول مول جازيت» التي نشرته في مكان بارز من صفحاتها، مما شجع قرياقص ميخائيل على مكاتبة الصحف البريطانية، بل شجعه على السفر إلى لندن والإقامة فيها حتى يناوىء الاستعمار البريطاني في عقر داره.

واستكمالاً لأدواته، التحق بكنجز كوليج وبغيرها من المعاهد البريطانية التي تسمح بدراسات حرة، حيث درس القانون الدولي وقوانين النشر والصحافة والقانون الإنجليزي وتاريخ الشرق الأدنى وتاريخ أصل الشعوب ومبادىء الفلسفة والمنطق وعلم النفس وتاريخ الاقتصاد والمال، والتحق بمعهد الصحفيين في لندن رغبة في الحصول منه على «دبلوم في الصحافة»، ولكن المعهد أباه عليه بسبب نشاطه السياسي. كما أن «نادي الصحافة بلندن» أنكر عليه عضويته لنفس هذا السبب.

ورغبة من قرياقص ميخائيل في الاستقرار المالي، أنشأ في لندن مكتبة الأسد الأحمر Red Lion للتعامل في الكتب القديمة، ووقع في أثناء ذلك على مستندات قوامها ٨٠٠ مستند عن أيام الخديو إسماعيل، وكثير منها بخط الخديو نفسه أو بخط ابنه الأمير إبراهيم حلمي. فلما انتهى خبرها إلى الملك فؤاد، أصدر أمره بشرائها ولا سيما لأنها تميط اللثام عن الخطط الواسعة النطاق التي كانت تدبر لعزل الخديو توفيق وإعادة أبيه إلى دست الحكم.

وعندما أعلن في الصحف عن بيع متروكات المحامي الإنجليزي برودلي - الذي دافع عن أحمد عرابي باشا عام ١٨٨٢ وألف كتاباً بالإنجليزية عنوانه: «محاكمة عرابي باشا والعفو عنه» The Trial and Pardon of Orabi Pasha، دخل قرياقص ميخائيل المزاد العلني واشترى هذه الأوراق ثم أودعها خزانة في البنك حتى لا تتعرض لمكروه، وبقيت في حيازته إلى أن آلت بعد ذلك إلى الحكومة المصرية.

وكان من عادة قرياقص ميخائيل عند اقتنائه أي كتاب عن مصر أن يفتح صفحة المراجع، فإذا تبين أن فيها مرجعاً لم يسبق له اقتناؤه، سواء أكان كتاباً

أم مجلة، طاف بالمكتبات البريطانية بحثاً عنه، وإن لم يهتد إلى ضالته نشر إعلاناً مأجوراً في الصحف مبدياً فيه رغبته في شراء هذا المرجع. وكثيراً ما كان يتلقى رسائل ممن يقتنون هذا المرجع من أي صقع من أصقاع الإمبراطورية البريطانية سواء أكانوا في روديسيا أم في جنوب إفريقيا أم في الهند أم في أستراليا أو كندا، فيبادر إلى شراء المرجع المطلوب منهم. ومع الوقت صارت لديه مكتبة فريدة عامرة بالمؤلفات الإنجليزية القديمة والحديثة عن مصر، وظل يحتفظ بها ويحرص عليها وينميها إلى أن علت سنه وضعف بصره وخشي عليها من التبديد في المستقبل، ولا سيما لأنه لم يتزوج ولم يكن له إلا ابن تبناه قرياقص بعد وفاة أبيه المصري وكان ثمرة حب بين هذا المصري وسيدة إنجليزية، فلما نشبت الحرب العالمية الثانية جندته الحكومة البريطانية ولقي علي التوني ـ وهذا هو اسمه ـ مصرعه فيها، وعندما علم الدكتور طه حسين بأمر هذه المكتبة، أوعز وهو وزير للمعارف باقتنائها، وضمت إلى دار الكتب المصرية.

وكان قرياقص ميخائيل يشترك في وكالات لقصاصات الصحف البريطانية، توافيه في كل يوم بكل ما ينشر عن مصر في جميع صحف الجزيرة البريطانية، فيستعين بها في إعداد ردوده على افتراءاتها. ولما تقدمت به السن لم يقطع اشتراكه فيها، بل صار يوافيني بها بانتظام لأستعين بها في عملي الصحفي.

وكانت حركة الزعيم سعد زغلول باشا قد اختارته وكيلاً لها في بريطانيا، فكثف من نشاطه السياسي أثناء الثورة المصرية عام ١٩١٩، مما أوغر عليه صدر السلطات البريطانية التي بادرت باعتقاله. وبعد أربعة أيام رحلته إلى مصر حيث كان ينتظره اتهام جديد ملفق بأنه عضو في «جماعة الانتقام» وهي جهاز سرِّي يأتمر بأوامر سعد زغلول باشا ويضم ٢٨ شخصاً، وهدفه خلع السلطان واغتيال الإنجليز وقلب نظام الحكم. وكان على رأس المتهمين في هذه القضية عبد الرحمن فهمي بك ـ مدير بني سويف السابق ـ وإبراهيم عبد الهادي باشا الذي تولى عدة وزارات ورأس الوزارة فيما بعد،

وتوفيق صليب الذي صار في وقت لاحق مديراً للمطبوعات والصحفي حامد المليجي. (وفي مذكرات سعد زغلول التي نشرها مصطفى أمين في ١٩ أغسطس عام ١٩٦٣ بجريدة «الأخبار» حديث عن هذا الجهاز السري).

وقد نظرت هذه القضية أمام محكمة عسكرية بريطانية، واستمرت ثلاثة أشهر ـ عدا نحو عامين قضاهما المتهمون رهن الاعتقال ـ وانتهت بتبرئة قرياقص ميخائيل، وإن كان الجنرال البريطاني الذي رأس المحكمة خاطبه بقوله: «إن المحكمة قررت بعد تردد شديد الإفراج عنك». (وقد أملى قرياقص ميخائيل عليّ مذكراته حول هذه القضية، وما زلت أحتفظ بها دون أن تسنح فرصة لنشرها).

وبعد تبرئته عاد إلى لندن ليمارس نشاطه المتعدد الجوانب كصحفي يراسل عدداً من الصحف المصرية، وكمدير لشركة قرياقص ميخائيل المحدودة للتجارة والاستيراد، فاستقرت أوضاعه المالية، واقتنى بيتاً واسعاً صار قبلة للمصريين الذين يزورون بريطانيا، بل استضاف فيه الإمبراطور هيلا سلاسي إمبراطور الحبشة عندما لجأ إلى بريطانيا هرباً من الغزو الإيطالي لبلاده، والأمير سعود بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية (وملكها فيما بعد) والخديو المخلوع عباس حلمي الثاني وسماحة الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر وغيرهم. وكان يضع سيارته بسائقها تحت تصرف كبار المصريين والعرب الزائرين لبريطانيا، وكأنه وكيل أعمال متطوع لكل من يقصد بيته، فهو عمدة صعيدي، وبيته هو «دوار العمدة»، وموائده تقدم عليها الأطعمة المصرية بعدما صارت مدبرة بيته الإنجليزية تتقن صنعها بإشرافه، وقد مازحه صديقه مجد الدين حفني ناصف بمقطوعة زجلية قال فيها:

أخو كل مصري لازم له قريب ... وضامن وشاهد وتحت الطلب

معلم، مترجم، مؤلف، أديب ... ومكتب مخدم، وبياع كتب

وده كله راجع يا ابن الحلال ... لأكل «الملوحة» وعيش الذره

منيش قادر أفسر وجود الاحتلال ... دا حتة صعيدي فتح لندره!

وظل قرياقص ميخائيل محافظاً على صعيديته في لهجته وفي مسلكه اليومي، حتى في أسفاره. وقد رأيته يجمع أشياءه في «قفة» وهو يهم بركوب الطائرة عائداً من القاهرة إلى لندن.

واقتنى قرياقص ميخائيل حديقة على نهر التايمز مجهزة بمرسى للزوارق والسفن الصغيرة وبحمام سباحة، فتنازل عنها للحكومة المصرية لتكون منتدى للطلبة المصريين الذين يدرسون في بريطانيا.

ولكن هاله أن الحكومة في ذلك الوقت خشيت من أن «يتجمهر» الطلبة المصريون في هذه الحديقة ويمارسوا نشاطاً سياسياً غير مرغوب فيه، وتخاذلت عن تسلم الحديقة وتركتها للإهمال، فاضطر قرياقص إلى استردادها. وكان يملك إلى جوارها مسكناً رغب في التنازل عنه لتحويله إلى بيت للطالبات المصريات اللائي كن يدرسن في إنجلترا، فعدل عن ذلك بعد تجربته الفاشلة مع الحديقة.

وفي عام ١٩٥٠ أذاعت وكالات الأنباء العالمية أن حكومة الحبشة (إثيوبيا) تتفاوض مع شركة أمريكية على بناء خزان على بحيرة تانا. وخافت مصر أن تترتب على هذا المشروع نتائج خطيرة تحيق بمشروعاتها في الري والزراعة، ولا سيما لأن مصر كانت في ذلك الوقت بلداً زراعياً في حين كانت الصناعة في مهدها. وتذكر وزير الأشغال عثمان محرم باشا أنه التقى في بيت قرياقص ميخائيل في لندن بإمبراطور الحبشة، وأنس وقتها ما كان بين الاثنين من مودات وثيقة، فأبرق إلى قرياقص داعياً إياه إلى المجيء إلى القاهرة للاشتراك في مناقشات حول مشروع خزان تانا معه ومع وزير الخارجية الدكتور محمد صلاح الدين باشا. فلبى قرياقص دعوة عثمان محرم باشا الذي كلفه بعد ذلك السفر إلى أديس أبابا لبحث الموضوع مع صديقه الإمبراطور. وهذا رحب بقرياقص ترحيباً كبيراً، وأكد له أن حكومة بلاده ستولي آراء مصر بشأن مشروع خزان تانا كل عناية وتقدير، وأصدر أوامره إلى الوزراء المختصين بدراسة كل ما يتلقونه من بيانات واقتراحات من حكومة مصر. ولم يكتف الإمبراطور بذلك، بل وجه خطاباً إلى عثمان محرم باشا أشاد فيه بما

قدمته مصر من مساعدات أدبية ومادية للحبشة في حربها مع إيطاليا الفاشية، وقال: إن بلاده لن تتصرف بمفردها في مشروع الخزان.

وقد سئل قرياقص عن المحن التي مرت بحياته فقال: إنه اعتقل مرتين، وحوكم مرة في تهمة تآمرية عقوبتها الإعدام، ونجا من الغرق ثلاث مرات، وهبطت طائرته هبوطاً اضطرارياً مرتين، ودس له السم مرتين من جانب «أصدقاء».

وفي شهر سبتمبر عام ١٩٥٦ أصيب قرياقص ميخائيل بفالج، فبعث إلى جميع أصدقائه ببطاقة مطبوعة ينبئهم فيها بمرضه وعجزه عن الرد على رسائلهم، واعداً بالكتابة بعد إبلاله من هذه الوعكة، ولكن المنية أنشبت فيه أظفارها، وآن لجثمانه أن يستريح في ثرى مصر بعد نقله إليها بالطائرة.

وليس أدل على الشخصية الفريدة التي كان ينعم بها قرياقص ميخائيل من أن رجلي دين أحدهما قبطي والآخر مسلم رثياه في جريدة «الأهرام» بعد وفاته.

ففي ٢ أكتوبر عام ١٩٥٦ كتب القس الدكتور إبراهيم سعيد رئيس طائفة الأقباط الإنجيليين مقالاً في «الأهرام» قال فيه: «في الواقع كان قرياقص سراً من أقدس الأسرار، ولغزاً بين الرجال، إذ كان بسيطاً غاية البساطة في مظهره، عميقاً غاية العمق في تفكيره وجوهره. وكان يبدو للصغار وديعاً كالحمل، ولكنه اشتهر بين الكبار بعزة النفس.. لقد فهم آداب الإنجليز، وأدرك ما خفي من عاداتهم وما استتر، لكنه ظل محتفظاً بطابعه المصري الصعيدي الصميم، حريصاً كل الحرص على لهجته الصعيدية الفخمة، معتزاً بالمراغة مسقط رأسه.. جعل من بيته مقصد كل مصري مغترب في لندن، وقبلة أنظار أعضاء البعثات، فكان يستضيفهم على اختلاف درجاتهم ودياناتهم.. وكان الكل ينادونه «بأنكل مايكل»».

وأضاف القس إبراهيم سعيد قوله: «وإن نسيت، لن أنسى يوماً تصدى فيه للورد بيفر بروك ملك الصحافة السكسونية، فذكرت إحدى الجرائد الناطقة بلسانه خبراً غير صحيح عن مصر، فتحداه صديقنا قرياقص تحدياً جريئاً حتى

أرغمه على الاعتذار، ومتى علمنا أن اللورد بيفر بروك تحدى يوماً سراي بكنجهام، أدركنا ما له من سطوة ونفوذ. غير أن قرياقص علمه كيف يحترم المصري وكيف يرعى الحق في الكلام عن مصر».

وفي يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٥٦ نشر فضيلة الشيخ أبو الوفا المراغي، مدير المكتبة الأزهرية (وبلدياته)، مقالاً في نفس الجريدة قال فيه: «كان قرياقص في الرعيل الأول من رجال مصر الأحرار الذين أسهموا في الجهاد في فجر نهضتها، واشترك مع سعد زغلول وإخوانه في الحركة الوطنية. ووقف قلمه وجهوده على الدفاع عن قضيتها في صحف لندن وصحف مصر، وأشاد الخطباء من المسلمين والأقباط على منبر الأزهر إذ ذاك بمساعيه وجهوده.. ومن آيات نبله وإنصافه أنه تزعم ـ وهو قبطي ـ حملة للدفاع عن الإسلام وعن الأزهر ضد بعض الإنجليز في الجرائد الإنجليزية، واستطاع بسلوكه النبيل أن يحتل مكاناً ممتازاً في المجتمع الإنجليزي».

هذه ملامح من شخصية هذا الرجل الفذ الذي يصدق فيه قول الشاعر القروي رشيد سليم الخوري «حامل فوق همه هم شعبه».





حديث مستطرد عن الدكتور يوسف بكار من خلال بعض آثاره

صحيح أن الشاعرة فدوى طوقان (التي لم تهتد إلى تاريخ مولدها إلّا بعد زيارة المقابر وقراءة شواهدها!) سجلت سيرة حياتها في كتابين عنوان أولهما «رحلة جبلية، رحلة صعبة» وعنوان الثاني «الرحلة الأصعب» ولعلّها أرادت بذلك أن تقول للناس: هذه هي حياتي بأسرها فلا يحاول أحد التنبيش في رحلة العمر، اعتقاداً منها بأنها قالت الكلمة الفاصلة في سيرتها الذاتية ولا تترك مجالاً لمستزيد، ذلك أنها جمعت وأوعت وصارحت القارىء بما يجول في صدرها وبما راكمته الأيام من ذكريات مراحل حياتها، تاركة شعرها أمانة لدى الدارسين والباحثين يتناولونه كل من الزاوية التي يرتئيها طبقاً لأي قواعد للنقد الأدبي أو لمدارسه النقدية.

وبعبارة أخرى، لقد أغلقت فدوى طوقان الباب أمام كل من يحاول التعرّض أو حتى التطفل على حياتها الخاصة، ذلك أنها وضعت نقطة الختام ولم تترك لمجتهدٍ أو لمنقّب أن يكشف عن سر دفين أو حقيقة غائبة من حياتها التي امتدت ستة وثمانين عاماً (بين عامي ١٩١٧ و٢٠٠٣).

ولكن هيهات لهذه المحاذير أن تحول دون قيام الباحث الدؤوب الدكتور يوسف بكار باستكمال الصورة الواقعية والأدبية والشعرية لفدوى طوقان، فانبرى لإصدار ثلاثة كتب قصرها على هذه الشاعرة الكبيرة أحاط فيها بالفوات من سيرتها ومن شعرها الذي نسيت هي نفسها تسجيله في مدوّناتها الخاصة، وصدرت هذه الكتب تحت عنوان «المرحلة المنسية ـ فدوى طوقان وطفولتها الإبداعية» و«فدوى طوقان، دراسة ومختارات» و«حوارات فدوى طوقان» وهي في مجموعها تلقي أضواء مسلطة على هذه الشاعرة الكبيرة، سواء بالدراسات

النفسية التي عقدها الدكتور بكار حولها، أو بالحوارات التي أجريت معها وتحدثت فيها الشاعرة عن بعض شؤونها الخاصة وقضية بلادها وعن آرائها في الشعر والشعراء وعن المجالات الوطنية التي خاضتها حيث لم يكن في وسعها أن تتغافل عن الوطن فسخرت مواهبها وكل عواطفها في خدمة أمتها.

وكنت في مناسبات سابقة قد شككت في المزاعم التي تواترت عن قصة حب كبيرة في حياتها بينها وبين الاديب المصري أنور المعداوي الذي عرفته عن قرب وعرفت نرجسيته وغروره وغطرسته، واعتقاده بأنه «فوق الجميع» ممّا زهّدني في صُحبته، فجاء الدكتور بكار بما نشره من حوارات فدوى طوقان داعماً لما ذهبت إليه من التشكيك في قصة الحب اعتقاداً منّي بأن المعداوي كان يتلهّى ببكارة قلب فدوى مستغلاً إحساسها بالوحدة والضياع والقلق بما كان يوافيها به من رسائل أدبية فيها قليل من العاطفة وكثير من الإعجاب بشعر الشاعرة.

ففي الحوارات التي جمعها الدكتور بكار، صرحت فدوى طوقان بقولها: «في كل تجارب الحب التي مرت بي، كنت أحب كثيراً... أحب في كل مرة وكأنها المرة الأولى، ولكن كانت هناك دائماً غصة بنفسي سببها أن الرجل لا يحبني لشخصي وإنما لأنني شاعرة وأستطيع أن أكتب فيه شعراً. أريد أن يحبني لشخصي، كيف أعرف؟»..

وفي سياق آخر من الحوارات التي جمعها الدكتور بكار قالت فدوى: «الرجل في حياتي احتل مكانة كبيرة، فهو الصديق وشقيق روحي. أما الرجل الحبيب، فأعتز جداً أنني مررت بتجارب حب سعيدة، وفي كل مرة كنت أحب فيها وكأني أحب للمرة الأولى. وكنت أعبّر عن إنسانيتي أثناء حبي أكثر مما كنت أعبّر عن أنوثتي، ولا أخفي أنه دائماً كانت هناك غصة في نفسي سببها أن الرجل لم يكن يحبني لنفسي وإنما لأنني شاعرة».

جاءت هذه الاعترافات الجديدة المستمدة من حوارات فدوى التي جمعها الدكتور بكار لتؤكد أن ما ذهب إليه رجاء النقاش من أن فدوى لم تحبّ إلا المعداوي هو استنتاج بعيد عن واقع الحال لأن فدوى عرفت الحب

مرات متعددة، ولعل منها حبها لشاب إنجليزي رمزت له بالحرفين A.G. أما «الحب بالمراسلة» فقد وصفته في كتابها «الرحلة الجبلية» بقولها: «كانت مراهقتي العاطفية حادة ومشتعلة، نفس مكبوتة تتفتح لأول كلمة حب تأتيها على صفحة رسالة ـ حب بالمراسلة ـ وكنت أقع في هذا اللون من الحب الخيالي وأغوص فيه». كما اعترفت فدوى فيما بعد بأنها زارت القاهرة فلما تهيأت لها فرصة مقابلة الذين كانوا يراسلونها ومنهم المعداوي، وإن لم تذكر اسمه، كان اللقاء عادياً اقتصر على المصافحة الباردة دون أي مشاعر. لقد قتل الزمن حرارة العاطفة وانطوت صفحة دون أن تذرف دمعة.

ولا يدهشني اهتمام الدكتور بكار بالشاعرة فدوى طوقان حتى اختصها بثلاثة كتب فيها إضاءات كاشفة عن حياة الشاعرة الشخصية ومسيرتها في محراب الشعر وفي معترك الحياة. فهو من ناحية قد استقصى الجوانب المجهولة والخفية في حياة فدوى ـ بما في ذلك حكايات حبها ـ كما وقع على شعرها الذي قالته في ريّق العمر وباكورة الحياة، وهو من ناحية أخرى قد أرخ لعلاقات فدوى بأعلام عصرها الذين تواصلت معهم سواء بالمراسلة أو بلغة الشعر، وهو من ناحية ثالثة قد أبرز الخصائص الفنية في شعر فدوى وسجّل عدداً من المقالات النثرية التي كتبتها دون أن تتاح لها فرصة الجمع.

والدكتور بكار في هذا يتّسم بصفتين آمرتين هما صفة المؤرخ الدؤوب الذي يبحث عن المطمور من الحقائق والنصوص، وصفة الناقد الأدبي الرصين الذي لا يسوق رأياً إلّا وقد استقامت له مسوّغاته.

ولا غرو، فقد تابعت من قبل وعن كثب وثيق مساعي الدكتور يوسف بكار للإحاطة بكل ما يتعلق بعمر الخيام حتى أنه كلفني أن أصور له مقالاً للعقاد نشر في إحدى الصحف المصرية العتيقة في أوائل القرن الماضي، وأن أزوّده ببعض المجلات القديمة التي تناولت حياة الخيام وشعره. وليس من قبيل الشكوى أن أقرر بأني كنت أتعب كثيراً في الاهتداء إلى هذه المراجع شبه النافدة في مسعى من جانبي لتحقيق الغاية العلمية السامية التي ينشدها البكار، وهي الإحاطة بكل ما يتصل بالخيام، حتى وإن كان ذلك زجلاً أو مقالاً

مرسلاً، وذلك حتى لا تفوته ولو إشارة عابرة في مقال عن الخيام.

وهذا الحرص على الدقة في البحث ليس بجديد على الدكتور بكار الذي يضيف إلى صفة الأكاديمي صفة الأديب الذواقة، وهما صفتان قد لا تجتمعان في شخص واحد. لأن للأكاديمي قواعده الصارمة التي لا فكاك منها عند تناوله لأي أثر منشور، أما الأديب فتتحكم فيه اعتبارات الذوق والجمال والإمتاع الفني، ولهذا نرى البكار دارساً لقضايا الشعر من غزل وعروض وقوافٍ، ودارساً لتاريخ الأدب العربي في مختلف العصور، ومبرزاً الدراسات النقدية الجديدة عن طه حسين، وعاكفاً على تحقيق كتب التراث كشعر إسماعيل بن يسار النسائي، وزياد الأعجم، وربيعة الرقي، وناشراً لكتاب «سياسة نامة» وهذه جميعاً دراسات أكاديمية رصينة، ولكنه يضيف إلى ذلك دراسات أدبية لشعر إبراهيم طوقان وعبد الله الفيصل وعبد المنعم الرفاعي وفدوى طوقان.

وإذا كان قد تناول قضية الترجمة الأدبية وإشكالياتها ومزالقها، فقد مارس الترجمة حيث نقل كتاب «قضيتي مع الشعر» لنزار قباني إلى اللغة الفارسية كما ترجم إلى عين اللغة كتاب «مختارات من الشعر العربي الحديث» للدكتور مصطفى بدوي.

ولئن تناولت في هذه الأسطر جوانب من الحياة العلمية/ الأدبية للدكتور يوسف بكار، فلعلي أقترف جرماً غليظاً إذا لم أتحدث عن المودات العميقة التي ربطتني بالدكتور بكار على مدار سنوات طويلة لا أحصيها. فقد عرفته للمرة الأولى وهو خارج لتوه من مناقشة أطروحة الدكتوراه، وحرص هو، أكثر من حرصي أنا، على استدامة المودة طوال سنوات جميلة طويناها في لقاءات جميلة جادت بها الأيام علينا، سواء في القاهرة أو في عمّان، واختبرت عن قرب ما يتمتع به الدكتور بكار من خلق نبيل ووفاء كريم وأصالة في المشاعر ووفاء في النفس وحب لا يخالطه أي تمثيل أو افتعال أو ادعاء.. هذا على الرغم من أنني مهما أصبت من حظوظ في ميدان الأدب لا أرقى إلى مستوى هذا الأستاذ العظيم الذي أكبره وأحبه وأراه قدوة كريمة في حياتنا الثقافية المعاصرة.



شعر المهجر مغترب في مصر

لعلي لا أجاوز الحقيقة إذا قلت إن مصر لم تعد تعرف أدب المهجر بشعره ونثره، وآية ذلك أن جميع الكتب التي ظهرت في مصر حول أدب المهجر لم تعد سهلة المنال في المكتبات العامة وربما في دار الكتب، وهي كتب سبق نشرها في مصر لمحمد عبد الغني حسن وعيسى الناعوري وعزيزة مريدن وأنس داود ومحمد عبد المنعم خفاجي وحسن جاد حسن ونظمي عبد البديع محمد وشفيع السيد ونادرة جميل السراج وسمير بدوان قطامي، وهي كتب اطلعت عليها في حينها، وهناك كتاب للدكتور صابر عبد الدايم لم يتسن لي الإطلاع عليه..

بل إن الديوان المهجري الوحيد الذي طبع في مصر في عهد الوحدة المصرية السورية، وهو ديوان القروي للشاعر رشيد سليم الخوري لا يعرف مصيره، إذ طبع برعاية وزير المعارف في ذلك الوقت الصاغ كمال الدين حسين على ورق صحف، وقبل أن يتاح للناس زالت دولة الوزير وزال معها الحماس لهذا الديوان، ولعله ما زال مكدساً في مستودعات وزارة المعارف إن لم تكن الأرضة والهوام والحشرات قد وجدت فيه وليمة شهية!!

أما المؤلفات عن أدب المهجر التي طبعت خارج مصر، وأهمها موسوعة جورج صيدح بعنوان «أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية» وموسوعة الدكتور عمر الدقاق بعنوان: «شعراء العصبة الأندلسية في المهجر» وكتاب «العروبة في شعر المهجر» لفريد جحا فأكاد أقطع بأنها مجهولة لدى المكتبات المصرية.

وإلى وقت قريب كانت هناك رسائل جامعية عن أدب المهجر قدمت لكلية دار العلوم، مثل دراسات أنس داود وإخلاص فخري عمارة ونجلاء

محمود عواض وأخرى قدمت إلى جامعة القاهرة كدراسات هيا محمد الدرهم وسمير بدوان قطامي، ثم انقطع اهتمام الدارسين، وربما المشرفين عليهم، بأدب المهجر نثراً وشعراً.

بل إن الشاعر عزيز أباظة باشا رمى شعر المهجر بالضعف والهزال، وجاراه في هذا حواريوه من الأباظيين كثروت أباظة وكذلك العوضى الوكيل الذي وصف الشعر المهجري بأنه «رطانة المستعمر» حيث قال:

تأبى العروبة أن يكون لسانها مستعمراً برطانة المستعمر!

والغريب أن كل شعراء المهجر كانوا دعاة عروبة وكان لسانهم عربياً فصيحاً هاجموا به الاستعمار والمستعمرين في كل الوطن العربي.

بل إنهم في مهجرهم السحيق لم يسلموا من اعتبارهم «تُوركو» أي أتراك، لأنهم جاءوا من بلدان يحتلها الأتراك العثمانيون، وهو وصف استنكره الشاعر القروي بقوله ساخراً:

أنت توركو، وإن بلغت الثريا ولئن شدت ناطحات السحائب

وكانت هناك محاولة جادة ورائدة لإنقاذ تراث أدباء المهجر بعد أن رحلوا عن هذه الدنيا حيث قام كتبي سوري ـ نسيت اسمه الآن مع أنني قابلته في دمشق ـ بالسفر على نفقته الخاصة إلى ديارات الهجرة في أمريكا الجنوبية حيث اتصل «بورثة» الشعراء والأدباء والصحفيين العرب وحصل منهم شراءً أو استهداءً على جميع مخلفات مورِّثيهم من كتب ومخطوطات ورسائل وصحف ومجلات، وقام بشحنها أطناناً إلى مكتبة الأسد في دمشق، وهي المكتبة الوطنية السورية لكي تصبح بعد فرزها وتنضيدها متاحة للباحثين.

ولا بد من الإشارة هنا إلى الجهد الانتحاري الذي تضطلع به أديبة سورية من حمص اسمها نهاد شبوع لرعاية الأدب المهجري قديماً وحديثاً من خلال الجمعية التي أنشأتها باسم «رابطة أصدقاء المغتربين بحمص» وهي تصدر نشرة دورية باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية لإمكان التواصل مع المغتربين في بلدان العالم المختلفة.

وهؤلاء المهجريُّون لم يعيشوا هناك، سواء في أمريكا الشمالية أو الجنوبية، في بلهنية من العيش، وإنما كان عليهم أن يصارعوا غلاظة الحياة. فمنهم من حمل الكشة ـ والكشة هي الاسم الإسباني للصندوق. حيث ترص فيه نماذج من معروضات المصانع وتجار الجملة، ويطوف بها حاملها في أرجاء البلاد طمعاً في عقد صفقات لشرائها، وله في كل صفقة عمولة، وهي حياة شاقة وصفها الشاعر إلياس فرحات وهو يجوب تلك البقاع النائية والمفاوز المترامية بمركبة تجرها الجياد لعرض بضاعته بقوله:

حياةٌ مشقات، ولكن لبعدها عن الذل تصفو للأبي وتعذب

بل ذهب في وصف قسوة الحياة إلى حد قوله:

ونشرب مما تشرب الخيل تارة وطوراً تعاف الخيل ما نحن نشرب

ولئن ابتسمت الحياة الدنيا لبعض المهجريين مثل شفيق معلوف الذي أصبح يمتلك مصانع للحرير، فقد عاش معظمهم يطارد أسباب الرزق مثل الشاعر إلياس فرحات القائل:

أغرب خلف الرزق وهو يشرق وأقسم لو شرقت راح يغرب

أو قول الشاعر القروي رشيد سليم الخوري:

أليس عظيماً أنني بعد شيبتي ألاقي من الأصحاب نكراً مشيبا
وأني في الستين ما زلت مكرهاً لأجل كفافي أن أكد وأتعبا

وبرغم قسوة الحياة وتمسك المهجريين باللسان العربي في جو طاغ بالأعجميات، فإنهم لم ينسوا الأوطان التي هاجروا منها، وصار الواحد منهم يحن لا إلى الوطن كله، بل إلى بلدته أو قريته التي هاجر منها، كالشاعر القروي الذي كان يحن إلى «البربارة» في لبنان، وميخائيل نعيمة الذي كان حنينه إلى «الشخروب» وزكي قنصل الذي كان يحن إلى يبرود في سورية، والشاعر نسيب عريضة الذي تمنى أن يحمل جثمانه بعد وفاته إلى حمص ليدفن هناك، حيث قال:

يا دهر، قد طال البعاد عن الوطن هل عودة تُرجي قد فات الظعن

عد بي إلى حمص ولو حشو الكفن واهتف أتيت بعاثر مردود

واجعل ضريحي من حجارٍ سود

فحمص معروفة بحجارتها السوداء. كما كان أمير النثر نظير زيتون يحن إلى مدينته حمص التي انتقل إليها تلبية لرغبة والدته قبل وفاتها.

وفي زمن الوحدة المصرية السورية زار مصر ثلاثة من أعلام المهجر بدعوة من حكومة الوحدة وهم الشاعر القروي رشيد سليم الخوري والشاعر إلياس فرحات والصحفي عبد المسيح حداد صاحب جريدة «السائح» النيويوركية، كما زارها بتلقائية من جانبه ودون أي دعوة رسمية الأديب الناثر نظير زيتون. وكانت قد سبقت لي علاقات بريدية مع أربعتهم، فأنست بصحبتهم، واجتهدت من ناحية في إثارة اهتمام من أعرف من الأدباء والصحفيين للتواصل معهم. وعند عودتهم إلى ديار هجرتهم، سجل حداد ذكرياته عن هذه الزيارة في كتاب عنوانه: «انطباعات مغترب» ـ وهو عنوان اقترحه عليه صديقنا حبيب جاماتي ـ وكان من أطرف ما جاء فيه قوله رداً على سؤال حول شعوره بعد زيارة الوطن: «إن شعوري يعدل شعور من استطاع أن يستنزل كوكباً من السماء إلى جيبه». أما إلياس فرحات فسجل انطباعاته في كتاب شامل من كتب السيرة الذاتية عنوانه: «ذكرياتي من صباح الحياة ومسائها».

وحين عبّر الشاعر القروي عن مشاعره بعد هجرة امتدت خمسين عاماً وصف مشاعره بلسان «العروبة» التي عد نفسه بوقاً لها بقوله:

حتَّام تحسبها أضغاث أحلام سبح لربك وانحر، أنت في الشام

لم يأذن الله بأبواق العروبة أن تقضي الحياة غريباً بين أعجام

وكنت في أبعد الأمصار أقرب من أهلي إليّ وأخوالي وأعمامي

هذي عيوني وجناتي وفاكهتي فاملأ يديك وبرد قلبك الظامي

وارتع بقلبي واسبح كالشعاعة في عيني، ونم بين أهدابي وأحلامي

كل شعراء المهجر كانوا دعاة عروبة وكان لسانهم عربياً فصيحاً هاجموا به الاستعمار، وقد قلت له مازحاً: إن النوم بين الأهداب والأحلام نوم غير مريح!

أما الشاعر إيليا أبو ماضي، فعندما زار لبنان محلقاً بطائرته فوق بيروت والجبل الأشم في ليلة حالكة الظلام، رأى أنوار لبنان المتناثرة وكأنها نجوم تملأ الفضاء مما ألهمه أن يصف لبنان بأنه وطن النجوم حيث قال:

وطن النجوم، أنا هنا ... حدق، أتدري من أنا؟
ألمحت في الماضي البعيد ... فتىً غريراً أرعنا
جذلان يمرح في حقولك ... كالنسيم مدندنا
أنا ذلك الولد الذي ... دُنياه كانت ههنا
أنا من طيورك بلبل ... غني بمجدك فاغتني

ومن شعراء المهجر الذين أتيحت لهم زيارة مسقط الرأس بعد هجرة امتدت في بعض الحالات إلى نصف قرن، الشاعر شفيق معلوف الذي وصف زيارته إلى سورية بقوله:

أراك رجعت تفتقد العرينا ... فهاك الغوطتين وقاسيونا
وأرضاً كلما انتفضت بشبر ... تهدهد تحته بطلاً دفيناً
ويا جنات تدمر قد رجعنا ... إليكِ. فكيف لا تتلقفينا

ووصف الشاعر جورج صيدح لقاءه بوطنه السوري في إحدى قصائده بقوله:

أم النسور، تفرسي وتأملي ... أعرفت وجه القادم المتهلل؟
هذا فتاكِ إلى متى نكرانه ... أو ليس في لبدِ سمات الأجدل؟
ما عابه الجسم المهيض تبدلت ... قسماته، والقلب لم يتبدل
أمضي وقلبي في دمشق رهينة ... أودعتها قلب الثري والجندل

ولكن الشاعر صيدح لم يتعرف بلاده السورية في زيارة تالية كان يعتزم فيها الإقامة الدائمة بسبب أوضاع سياسية لم يرتح إليها، فنظم قصيدة قال فيها:

بلاد الله أفسح من بلادي — تضيق بما تفجر من فؤادي
فما لي لا أحن لغير ربعي — ودون بلوغه خرط القتاد؟
لقاء الأم لم تنصف بنيها — أشد على البعيد من البعاد

ثم حزم أمتعته وهاجر هجرة ثانية هذه المرة إلى باريس ليلحق بزوجته الفرنسية وابنته جاكلين المتفرنسة وحفيديه المتفرنسين بدورهما.

وعبر الشاعر زكي قنصل عن زيارته لسورية بقوله:

يا شام أنت على لساني نغمة — وقصيدة لا يستقر لها صدى
قيدت قلبي في هواكِ ولم يزل — ولسوف يبقى ما حييتُ مقيدا

وقال في زيارة تالية:

عدنا إليك وكان عوداً أحمدا
هيهات أخشى اليوم عادية الردى

عدنا نغني للصبابة والهوى — وعلى دروب الغيد نفرش أكبدا
يا مهد أحلامي، أتذكر كم هفا — قلبي إليك، وكم بكى وتنهدا؟

ولكن هناك شعراء مهجريين تمنوا العودة إلى بلادهم ولكنها عودة لم تتحقق. فالشاعر المصري الدكتور أحمد زكي أبو شادي، الذي اعتبر نفسه مهجرياً منذ هجرته في عام ١٩٤٦ على الرغم من أن الشاعر إيليا أبو ماضي استقبله بقصيدة عنوانها: «ليس منا» ـ أقول: إن أبا شادي ظل يحلم بزيارة ولو يتيمة إلى مصر، وهي لم تتحقق منذ هجرته، حيث قال:

وددت قبل مماتي — أراك يا مصر مره
ولم أزل في حنيني — إليك أكرع جمره

وقوله في قصيدة أخرى:

وطني رأيتك في الربيع فعطره — حولي شذاك برعشة كتلهفي

ورأيت أحلام الشباب بلابلاً غنت ونورا شاق غير مزيف
أبداً أحن إليك غير مؤمل حظّاً سوى هذا الحنين المتلف

وقال أيضاً في حنينه إلى مصر:

وطني الذي رُبيت تحت سمائه ووهبته فني نجوم سمائه
ورضعت من أزهاره وسكرت من أسماره وشربت من أضوائه
من ليس بعدله سوى حبي له حباً تشرد كاليتيم التائه
من مبلغ وطني الحبيب تلهفي للقائه كتأسفي للقائه

أما الشاعر رياض معلوف فكان بدوره يحن إلى وطنه وإلى «كوخه الأخضر» قبل أن يمل من الهجرة ويعود إلى زحلته الحبيبة حيث قال:

هل يا ترى نعود إليك يا لبنان
فتصدق الوعود ويسمح الزمان
فنقطف العنقود منوَّع الألوان
كم سحتُ في المعمور ما غرّني منظر
فبلدي المهجور وكوخي الأخضر
أحلى من القصور والذهب الأصفر
هل يا ترى نعود إليك يا لبنان

وعندما تحققت للشاعر القروي العودة النهائية إلى لبنان حيث استقر في «بربارته» العزيزة، عبر عن مشاعره بقوله:

سيان بعد التلاقي يا بلادي لو خلدت أو حكم الطاغي بإعدامي
أما رجعت؟ ألم أنشق هواك، ألم ألثم ثرائك، ألم أسمعك أنغامي
أحس بالراحة الكبرى كأني قد طرحت في البحر عنِّي كل آثامي

وعندما اقتربت سفينة القروي من الشاطىء استقبله صديق له بقوله:

بنت العروبة هيئي سكني أنا عائد لأعيش في وطني

فرد عليه القروي بقوله:

بنت العروبة هيئي كفني   أنا عائد لأموت في وطني

ألا يستحق هذا الشعر الذي ردده أصحابه في بلاد الأعجام وفي الوطن اهتماماً مجدداً بعدما كاد حتى حماة الأدب ينسونه؟ وكيف يتذكرونه وقد فشت وشاعت أشكال من الكلام يقال لها «شعر» وما هي إلا شقشقة لسان و«برطمة» عاجزين!





محمود حسني العرابي ذارع البحار وزعيم الحزب الإباحي

ما زلت أحتفظ بقصاصة من إحدى الصحف عنوانها «محاكمة» ١١ مصرياً بتهمة الدعوة إلى الفوضى،، جاء فيها: «الإسكندرية في أول يوليو ١٩٢٤ - أصدر أمس حضرة صاحب العزة تكلا ميخائيل بك قاضي الإحالة بمحكمة الإسكندرية الإبتدائية الأهلية قراراً بإحالة ١١ عضواً قيادياً في منظمة الحزب الشيوعي المصري التابع للدولة الروسية الثالثة إلى محكمة الجنايات المحدد لانعقادها في شهر سبتمبر ١٩٢٤ مع استمرار حبس المتهمين المقبوض عليهم والقبض على اثنين من المتهمين الأجانب الهاربين... وقد افتتح سيد بك مصطفى وكيل النائب العام الجلسة بتلاوة قرار الاتهام الذي ينسب إلى محمود حسني العرابي (تاجر ٣٠ سنة) وآخرين تشكيل حزب شيوعي... إلخ».

ويوضح سلامة موسى، الذي لم يرد اسمه في هذه القصة، دور العرابي بما سجله ضمن كفاحه السياسي في سيرته الذاتية المعنوية «تربية سلامة موسى» الصادرة في عام ١٩٤٨ عن دار الكاتب المصري بإشراف الدكتور طه حسين بك حيث قال: «في عام ١٩٢٠ عقب الثورة (المصرية) هبت ريح الحرية في الجو المصري المكظوم فألفت أنا والمرحوم الدكتور (علي) العناني والأستاذ محمد عبد الله عنان والأستاذ حسني العرابي الحزب الاشتراكي، ولكن حدث فجأة أن أحدنا، وهو الأستاذ حسني العرابي، وجد فينا بطئاً لم يطق له صبراً، فقصد إلى الإسكندرية وأعلن (قيام) الحزب الإباحي - وكلمة إباحي كان يقصد منها ما يفهمه الجمهور الآن من كلمة شيوعي، وانشق عنا... وقضت الحكومة على حسني العرابي بحبسه ثم تشريده في أوروبا، فقد سافر إلى ألمانيا، وما هو أن بلغها حتى صدر قرار من مجلس الوزراء بحرمانه من الرعوية المصرية كي يمنع من العودة إلى مصر».

كان هذا تاريخ لا بد من إثباته قبل الحديث عن العرابي وزملائه الذين انشق عنهم، وهم سلامة موسى ومحمد عبد الله عنان والدكتور علي العناني.

أما سلامة موسى، فقد عرفته وأنا ما زلت طالباً وزرته للمرة الأخيرة في المستشفى القبطي قبل يومين من وفاته في ٤ أغسطس ١٩٥٨، وعندما سألني عن أخبار خروشوف، قلت له: إنها أخبار لا تهمني ولكن الذي يهمني هو أن أعرف رأيك في أحوالنا مع التطبيق الاشتراكي. فقال: إنه جاء مخيباً لظنه ولو امتد به العمر فسيكون أول ناقد له.

وأما محمد عبد الله عنان، فقد طلق السياسة وتفرغ لدراسة الأدب الأندلسي وألف مجموعة كبيرة من المجلدات تشكل موسوعة أندلسية جامعة لم يضن بإهدائها إلى... وهكذا انصرف اثنان من زملاء العرابي عن الاشتغال بالنشاط «الإباحي» المزعوم.

أما الدكتور علي العناني (ولا أعرف هل هو طبيب أو أنه يحمل درجة الدكتوراه في فرع آخر من فروع المعرفة) فقد لمحته مرة واحدة في زيارة العرابي عندما زاملني في قسم الترجمة بجريدة «المقطم» دون أن يجري بيننا أي حديث، عدا التعرف السطحي[1].

وأما محمود حسني العرابي فقد قيل: إنه سافر إلى روسيا ولكن المؤكد أنه سافر إلى ألمانيا وعاش فيها ٨٩ شهراً - وهو عنوان كتابه الذي أصدره فيما بعد بعنوان (٨٩ شهراً في المنفى). ومع أنه عاش هناك بلا جنسية وربما بلا أمل في العودة إلى مسقط رأسه، فإن السلطات الألمانية لم تضايقه ولا وقفت في سبيل أي عمل يحصل منه على زاد الحياة.

والمنفى، حتى وإن كان رحيماً، هو منفى يتوق صاحبه إلى العودة منه إلى بلاده ولو بمغامرة غير محسوبة. وعندما سئم العرابي حياة النفي قرر أن يقدم على الخطوة الجبارة وهي العودة إلى الوطن. لم تكن الطائرات في ذلك الوقت أصبحت الوسيلة المألوفة في السفر كما هو الحال اليوم حيث أصبحت الطائرات مثل سيارات التاكسي في كثرتها وزحامها للفضاء، وكان السبيل

---

(١) علمت بعد ذلك أن الدكتور العناني من خريجي كلية دار العلوم.

الوحيد للسفر بين القارات هو الباخرة. وهو بين إقدام وإحجام حجز لنفسه مكاناً في الباخرة المتجهة إلى ميناء الإسكندرية آملاً أن يستقبله الوطن بذراعين مفتوحتين. ولكن بمجرد وصول الباخرة إلى ميناء الإسكندرية فوجيء بمنعه من النزول لأنه لا يحمل جواز سفر مصرياً، فعاد أدراجه إلى الباخرة تمخر به عباب المتوسط إلى ميناء آخر.

ولكنه لم ييأس، فعاد أدراجه يحاول دخول مصر من ميناء بورسعيد حيث تكررت تجربة منعه من النزول، وصار محمود حسني العرابي يذرع البحار جيئة وذهاباً، وتناقلت الصحف الأجنبية أخبار «ذارع البحار» الذي يأبى وطنه أن يسمح له بدخوله، وتحولت قضيته إلى ما يشبه الفضيحة العالمية التي لا حل لها إلا بقرار جريء يصدره الوزير المسؤول تحايلاً منه على الإجراءات. إذ أصدر تعليماته إلى الجهات الحكومية في الموانيء بالتغافل عن نزول العرابي إلى الميناء، وكأنه تسلل خفية عن الأعين بحيث لو سئل الوزير في البرلمان فسيكون رده الجاهز هو أن العرابي تسلل بحيلة من الحيل.

كانت الحياة في مصر في ذلك الحين حياة سهلة، لم نكن نعرف البطاقات الشخصية أو العائلية أو بطاقات الرقم القومي، ولا كنا نحتاج إلى تصاريح للعمل سواء في الصحافة أو في سواها من الأنشطة التابعة لما بات يسمى بالقطاع الخاص، فالكفاءة هي وحدها المعيار للعمل دون الاعتماد على أي تقارير من أي جهات رسمية. وكان في وسع كل من يملك عشرة جنيهات أن يصدر مجلة أو جريدة، فإن راجت واصلت الصدور، وإن فشلت بعد بضعة أعداد فقد خسر صاحبها جنيهاته العشرة. ولهذا لم يجد محمود حسني العرابي أي مشكلة في إصدار مجلة عنوانها «الكفاح» في أربعينيات القرن الماضي وكنت في ذلك الوقت أحرص على اقتناء كل ما تسمح به ميزانيتي من صحف ومجلات من قبيل التعرف على اتجاهاتها والقضايا التي تستأثر باهتمام كتابها. وصدر في ذلك الوقت كتاب يحمل عنوان «مشروع بيفردج» وهو مشروع بشر به صاحبه الإنجليزي اللورد بيفردج لإقامة ما سماه دولة الرفاه والرخاء WELFARE STATE وأعجبني هذا التقرير فكتبت مقالاً أعرض فيه جوانبه،

واعتقدت أنَّ أصلَح مكانٍ لنشره هو مجلة «الكفاح» للعرابي، فبعثت إليه بالمقال بالبريد دون أن أعرفه، وفوجئت بأنه جعل منه افتتاحية العدد.

ولعل مجلة «الكفاح» كانت من مشروعات الجنيهات العشرة لأنها لم تلبث أن توقفت. وارتأى العرابي أن من الأفضل أن يلج باب الصحافة اليومية من زاوية الترجمة، فالتحق مترجماً في جريدة «السياسة» التي كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين برئاسة تحرير حافظ محمود.

وفي ذلك الوقت كان المترجم الأول في الصحف الذي تتخاطفه كل صحيفة تبحث عن الأفضل هو إبراهيم موسى، كان إبراهيم موسى مجرد عامل من العمال انخرط في الحركات الكفاحية ضد المستعمر البريطاني، ويبدو أن قذيفة انفجرت في يديه فتركت فيهما آثاراً واضحة، وحكم عليه بالسجن في إحدى هذه القضايا. وفي السجن علم نفسه اللغتين الإنجليزية والفرنسية حتى أتقنهما إتقاناً تاماً جعل جريدة «المصري» تسند إليه رئاسة قسم الترجمة، وهو ما كان يقتضيه أن يسهر في الجريدة حتى تصدر في صباح اليوم التالي. وكان في وسعه أن يجمع بين هذا العمل وبين العمل الصباحي في جريدة تصدر في المساء، وهكذا قابلت إبراهيم موسى في جريدة «المقطم» في فترة الترجمة الصباحية.

وعندما رغب إبراهيم موسى في ترك العمل، اختار محمود حسني العرابي لكي يحل محله. ومع أن العرابي كان وقتها في الخمسينات من عمره، وكنت في العشرينات من عمري، فإن رئاستي لقسم الترجمة لم تلغ ما كان بيننا من زمالة عزيزة.

وفي هذه الفترة قرر العرابي أن يصدر مجلة جديدة رصد لها الجنيهات العشرة المقررة، ولكنها توقفت بعد بضعة أعداد.

ولكن الشيء الذي كان يؤرق العرابي في حياته هو أنه بلا جنسية. صحيح أن الحياة السهلة في مصر في ذلك الحين كانت تسمح له بالعمل هنا أو هناك، ولكنه لم يكن ينسى أبداً أنه مثل ساقط القيد الذي يعيش بين الناس ولكنه محروم من التمتع بكامل حقوق المواطنة. وعندئذٍ سألني: هل أستطيع كتابة مقال يومي ينشر في صدر الجريدة بعنوان: «آه لو كنت مصرياً»؟

فقلت له: إن الجريدة التي تعمل فيها ترحب بذلك. وشرع يكتب، هذا المقال اليومي متمنياً أن يكون مصرياً لكي يستطيع خدمة بلاده في ميادين الإصلاح المختلفة.

ظل العرابي شهوراً ينشر هذا المقال «آه لو كنت مصرياً» دون أن يلقى أي صدى من الجهات المسؤولة.

وعندئذٍ قال لي: لم لا تتبنى قضيتي، فقد بح صوتي ولا حياة لمن تنادي؟ ألا تعتقد أن قضيتي عادلة.

فقلت له: سأحاول، وإن كنت لا أعرف نتيجة مسعاي. فكتبت مقالاً ناشدت فيه المسؤولين رد الجنسية للعرابي لأنه مواطن صالح وقد تاب عن ماضيه السياسي. ويشاء ربك أن تستجيب له الدولة، وصدر قرار برد الجنسية إليه دون أي قيد أو شرط. وسواء استجابت الدولة لصرخاته المدوية في مقالاته «آه لو كنت مصرياً» أو استجابت لندائي، فالمهم أنه استرد جنسيته.

تمكن العرابي بعد ذلك من أن يستقر عائلياً بالزواج من شقيقة الدكتور عبد المحسن بكير أستاذ اللغات الفرعونية بالجامعة وأنجب منها ابنة علمت بعد سنوات من موضوع منشور في إحدى المجلات أنها تخصصت في الكمبيوتر وأنها تعمل ـ ولعلها لا تزال تعمل ـ في بنك استثماري.

بمجيء الثورة ساءت أوضاع جريدة «المقطم» وأصبحت مثل السفينة الآيلة للسقوط، فهجرها المحررون إلى صحف أخرى. ولأن العرابي كان صديقاً للضابط محمد رشاد مهنا الذي رأس مجلس الأوصياء بعد تنازل الملك فاروق عن العرش، فقد اجتذبته جريدة الأهرام للعمل فيها ما دام على صلة وثيقة بمصدر من أهم مصادر الأخبار.

ومن ناحيتي سافرت إلى أمريكا للعمل كبيراً للمترجمين في إحدى القضايا المعروضة على التحكيم الدولي، حيث قضيت شهري يوليو وأغسطس ١٩٥٥ في مدينة نيويوريك، وكنت وأنا هناك أطلع على جريدة الأهرام، وفيها قرأت نعي محمود حسني العرابي... ولعله كان وقتها في الحادية والستين من عمره.

ألبير أديب ومجلة «الأديب»

عندما زار الشاعر المهجري اللبناني «إيليا أبو ماضي» البلاد التي نزح منها في عام ١٩١١، حلقت طائرته في سماء لبنان في المساء، فأطل من النافذة على جبل لبنان ورأى الأضواء تنبعث من المنازل المقامة هناك، وكأنها نجوم زاهرة تحاكي نجوم السماء، فخاطب لبنان في القصيدة التي استقبل بها دياره القديمة بقوله:

وطن النجوم أنا هنا حدق، أتعرف من أنا؟

ولئن كان أبو ماضي قصد نجوم السماء، فلعله كان يرمز كذلك إلى نجوم الفكر والثقافة والأدب والفن التي غمرت بأضوائها الساطعة الوطن العربي كله، وانتقلت إلى المهاجر في أصقاعها المختلفة، وإلى ديار المستشرقين في كل أرض. وما زلنا في مصر ننعم بآثار اللبنانيين الأماجد ـ وإن وصفوا بالشوام ـ وهم الذين أنشأوا للفكر والثقافة منارات باقية مثل دار الهلال، ودار المعارف، والأهرام، وقبل ذلك دار المقتطف، والمقطم، ومجلة «سركيس» لسليم سركيس، ومجلة «الزهور» لأنطون الجميل وأمين تقي الدين وغيرها وغيرها مما لم يقو على مصارعة عوادي الزمان.

ومع أنني عرفت عدداً غير قليل من قادة الفكر والرأي في لبنان وفي المهاجر، فقد آثرت أن أجري حديثاً مستطرداً حول نجم لبناني سطع برسالته الأدبية على مدى واحد وأربعين عاماً، وما أعني إلا «ألبير أديب» صاحب مجلة «الأديب» التي حملت إلى دنيا العرب رسالة ثقافية كانت خالصة للأدب، فاستقبلتها جميع الحواضر العربية بالترحاب لأنها خلت من السياسة وأوزارها، وصارعت كل المثبطات إلى أن تهاوت بسبب الوضع الصحي لصاحبها ومنشئها، ولم تتوقف حتى في أثناء الحرب الأهلية اللبنانية.

ولأنني ارتبطت بهذه المجلة منذ عام ١٩٤٥، ونشرت فيها فصولاً استمرت إلى خاتمة عمرها، فإليها أعزو كثيراً من أسباب الشهرة التي حققتها، وبفضلها تواصلت مع كثيرين من أدباء العالم العربي والمهاجر، ولم يضن عليّ محررها بكلمات إطراء نثراً وشعراً تلقاها من أصحاب الفضل، وبت أزعم أن تاريخي الأدبي ـ إن كان لي تاريخ ـ محفوظ في مجلدات مجلة «الأديب» بتشجيع وحدب من منشئها «ألبير أديب».

ولد «ألبير أديب» في المكسيك عام ١٩٠٨، لأن أباه كان قد نزح إلى هناك، ولم يكد يشتد عوده حتى هاجر أولاً إلى السودان، ثم إلى مصر حيث تلقى تعليمه في مدارسها وشرع في دراسة الحقوق. ولكن انخراطه في حركات الطلاب بحكم انحيازه إلى حزب الوفد، أدى إلى فصله من التعليم الجامعي. فشارك في تحرير بعض الصحف المصرية مثل «كوكب الشرق» لصاحبها «أحمد حافظ عوض»، و«الرقيب» لصاحبها «جورج طنوس». وفي عام ١٩٥٦ استقر رأيه على السفر إلى لبنان موطن الآباء والأجداد حيث عمل في الصحافة، واختير بعد ذلك مديراً للإذاعة اللبنانية، وانغمس في أنشطة سياسية لم يلبث أن تاب عنها.

وفي عام ١٩٤٢ عقد العزم على إصدار مجلة شهرية اختار لها اسم «الأديب» ربما لأن اسمه «ألبير أديب»، وصدر ترخيصها باعتبارها «مجلة تبحث في الآداب والفنون والعلوم والسياسة والاجتماع».

وكان عام ١٩٤٢ الذي اختاره ألبير أديب، لإصدار مجلته يمثل تحدياً لصاحبها، فالحرب العالمية الثانية التي بدأت في عام ١٩٣٩، واستمرت إلى عام ١٩٤٥، كانت في ذروتها مع ما لها من انعكاسات سلبية على الصحافة من حيث عدم انتظام وصول الورق اللازم لطباعتها من الخارج، وغلاء ثمنه، ومن حيث قصور النظام البريدي، بما أعجز المجلة عن الوصول إلى قرائها خارج لبنان. ثم إن لبنان نفسه كان ما زال خاضعاً للحكم الفرنسي، فارضاً رقابته الصارمة على الصحف والمجلات، متربصاً بأي نزعات تحررية تتبناها الصحف. ولكن برغم كل هذه الظروف غير المواتية، قبل «ألبير أديب»

التحدي، وغامر بإصدار مجلته مطمئناً إلى أن الاقتصار على الرسالة الأدبية دون السياسية كفيل باستمرار المجلة في أداء رسالتها.

همزة وصل

وفي العدد الأول من «الأديب» الذي صدر في يناير ١٩٤٢، بسط منشئها رسالة المجلة بقوله: «نتقدم إلى قراء العربية بهذه المجلة الجديدة «الأديب» في مطلع العام الجديد، راجين أن يكون عام طمأنينية للعالم وسعادة للقراء ونجاح للمشروع الذي أخذنا على عاتقنا تحقيقه، والسير به من حسن إلى حسن، ونحن على مثل اليقين بأننا رغم المصاعب الكثيرة الراهنة، بالغون إن شاء الله الغاية التي نتوخاها بعون الملأ الصالح من أصدقائنا الأدباء وأهل الرأي وذوي الاختصاص في مختلف المعارف والفنون. فهذه المجلة مجلتهم، يخرجونها في مستهل كل شهر وفقاً للخطة الرشيدة التي اختطوها، سعياً نحو المقاصد الرفيعة التي جعلوها نصب أعينهم. لقد رأينا الحاجة ماسة إلى سد ما يحسب بحق فراغاً في مكتبة الأديب العربي، فألهمنا أن نساهم في ذلك بمجلة تطمع إلى أن تكون معرضاً للإنتاج الفني والأدبي والعلمي، ومنبراً للرأي السياسي المنبثق من العقيدة الصادقة والإيمان الخالص، ثم لا تلبث أن تصير همزة الوصل بين أقطاب الفكر الحر في الأقطار العربية جمعاء. أما الخطوط الأساسية لهذا المشروع فتتجلى بوضوح في موضوعات هذا الجزء من «الأديب» الذي - يجمع - كما ترون بين طرائف القديم ونفائس الحديث، ممّا نشر أو لم ينشر في شتى الفنون والشؤون. وإذا كان لنا ما نقوله ونحن في المرحلة الأولى من عملنا، فهو أن نسأل جمهرة القراء مساعدتنا على إنجاح هذا العمل كي تصبح «الأديب» مجلة القراء الذين يطالعونها، كما هي مجلة الكتّاب الذين ينشؤونها. والله من وراء القصد».

ونشرت المجلة على غلاف عددها الأول إطاراً يضم حكمة لبول سيزان نصها: «إن عبء الكمال ملقى على كاهل الإنسان لا على كاهل الطبيعة، فمن واجبه إذن أن يكوّن نفسه بنفسه، فالطبيعة وهبته العقل والسريرة ونعمة الروح،

فأصبح في استطاعته أن يكمل هذا الهيكل الجميل وأن يفسده إذا شاء».

وحفل العدد الأول من المجلة بمقالات لكتّاب وشعراء أغلبهم من لبنان، مثل جبران تويني وعمر فاخوري وميشال أبو شهلا وصلاح الأسير وإلياس أبو شبكة وإلياس خليل زخريا وأمين الغريب وكرم ملحم كرم وجبرائيل جبور والسورية فلك طرزي وغيرهم.

ولم تلبث المجلة حتى في سنتها الأولى أن شقت طريقها إلى العالم العربي والمهاجر، فنشرت مقالات وقصائد لأدباء من مصر مثل «خليل مطران» الشاعر البعلبكي الذي استقر في مصر، «وزكي طليمات وعبد الرحمن الخميسي وأحمد راسم، ومن سورية مثل قسطنطين زريق وجميل صليبا وسامي الكيالي ووداد سكاكيني وزكي المحاسني ومحمد روحي فيصل وقدري قلعجي ووصفي قرنفلي، ومن المهجر مثل ميخائيل نعيمة وفيليب حتّي، عدا الكتّاب اللبنانيين ومنهم مارون عبود ويوسف غصوب، والدكتور حبيب تابت ورامز سركيس وعيسى إسكندر المعلوف وحليم دموس ونقولا فياض وكريم عزقول وراجي الراعي وأمين نخلة وتوفيق يوسف عواد وسهيل إدريس ورئيف خوري وتقي الدين الصلح ويوسف الخال وبشارة الخوري «الأخطل الصغير»، ومن العراق صفاء خلوصي.

كل هؤلاء الأعلام ظهرت آثارهم في السنة الأولى وحدها من سني عمر هذه المجلة التي لم يلبث رصيدها من مساهمات الكتّاب أن اتسع وتراحب مما أكسب المجلة سمعة أدبية وأكاديمية مرموقة في طول العالم العربي وعرضه.

بدأت صلتي بمجلة الأديب وصاحبها ألبير أديب في أواخر عام ١٩٤٥، عندما لمحت عند أحد باعة الصحف في شارع عماد الدين مجلة معروضة اسمها «الأديب» كتب بخط شبيه بالكوفي باللون الأبيض على شريط أسود بين خطين باللون الأحمر، وتصدر غلاف المجلة إطار يضم حكمة من انتقاء محررها. وكنت في ذلك الوقت قد اشتركت في مسابقة نظمها «ركن المحدثين والمستمعين» في محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية في يافا بفلسطين، وأعلن

مديرها الأديب نجاتي صدقي فوزي بالجائزة الأولى عن حديث عنوانه: «شباب العرب، آمال الشرق فيكم». فبعثت بنص هذا الحديث إلى مجلة الأديب مع مقال آخر عرضت فيه كتاباً جديداً لصديقي المستشار عبد الحليم الجندي، فنشر الموضوعان في عدد ديسمبر ١٩٤٥ في المجلة. وهكذا بت اختص هذه المجلة بمقالاتي على مدى عمرها الطويل الذي صدر آخر عدد منها حاملاً تاريخ أغسطس ـ ديسمبر ١٩٨٣. وكنا في ذلك الوقت هواة أدب متطوعين لا نتقاضى أجراً عن كتاباتنا ولا ننتظره أو نطالب به. والوحيد الذي كان يصر على أن يتقاضى أجراً عن مقالاته في مجلة الأديب هو الدكتور عبد الرحمن بدوي.

المجلة حياته

وعندما زرت لبنان في عام ١٩٥٥ للمرة الأولى، هاتفت «ألبير أديب» الذي دعاني لزيارته في منزله المواجه للكلية الطبية الفرنسية. واستقبلني في غرفة المكتب التي تحتوي على أكداس من الكتب والصحف والمجلات والرسائل البريدية القادمة من أطراف الأرض، وهي غرفة متواضعة ليس فيها «ديكور» ولا اي سبب من أسباب الترف أو الوجاهة. وقال لي: إنه لا يغادر هذه الغرفة منذ يستيقظ من النوم وإلى أن تحل ساعة النوم، وهو عاكف على تصريف جميع أمور المجلة، كاختيار موضوعاتها وإرسالها إلى المطبعة ومراجعة تجاربها وكتابة باب الأخبار الأدبية وباب الأخبار العلمية، وإعداد الفهرس السنوي للمجلة وكتابة عناوين المشتركين على المظاريف لإرسالها بالبريد، وقيد حسابات المجلة. فليس لديه معاونون أو مستخدمون... وكان يكلف ابنتيه بأن تمرا على مكتب البريد بعد انتهاء اليوم المدرسي لجلب البريد المتراكم باسم ألبير أديب أو مجلته. وقال إنه يستقبل في هذه الغرفة زائريه، ولا وقت عنده للرياضة أو للسفر إلى الخارج أو حتى الداخل تلبية للدعوات التي يتلقاها. فالمجلة هي حياته ولا حياة له إلا معها ـ حتى صارحته بأن أسلوبه في الحياة أسلوب انتحاري لا تؤمن عواقبه.

ولاحظت أن لهجته في الحديث لهجة مصرية، وحسبت أنه يجاملني محاذراً التحدث باللهجة اللبنانية، ولكنه أخبرني أن إقامته القصيرة في مصر غلبت اللهجة المصرية على لسانه، فلم يعد يتكلم إلا بها حتى مع مواطنيه اللبنانيين.

التواصل

كانت الرسالة التي توخاها ألبير أديب هي النهوض بالأمة العربية ثقافياً وتحيق التواصل الفكري بين دولها المختلفة. ولهذا هاله أن يرى أحلامه في قيام عالم عربي ناهض حر تتبدد على أعتاب السياسة، فبعث إليَّ في شهر يوليو ١٩٤٩، ببيان أعده راجياً نشره في الصحف متبرئاً من أدران السياسة. ومما جاء في هذا البيان قوله: «لقد اتضح لي تماماً أن الشبيبة العربية في حيرة، ليس لها هدف تسعى إليه ولا برنامج تحاول تطبيقه لتقطف ثمار مواظبتها عليه، والدنيا العربية انصرف أولياؤها إلى النهم والجشع واستباحوا كل شيء واستهانوا بكل شيء، فلا ضمير يردهم، وشعارهم: الغاية تبرر الواسطة. فليس بمستغرب، وقد أهملوا كل شيء إلا أنفسهم وذويهم، أن يهملوا أمر الشبيبة وتوجيهها والأخذ بيدها، فلا تتخبط قلقة في حيرة المبهم من الحاضر والمستقبل. أما الأمة العربية فمتهالكة، مضعضعه مفككة، ليس في عقول أبنائها مفاهيم الجماعة. فالبداية الأولى: الأنانية والفردية والغرور والخوف والجهل والجشع والكذب والمراوغة والخيانة ـ ما تزال متأصلة في النفوس، بل من المؤلم ألا تكون آخذة في النمو والتأصل. العالم يعيش في القرن العشرين، ونحن نعيش في القرن الثاني عشر، وكل جهد سياسي يذهب هباءً. فيجب أن ننصرف بقوة إلى الإصلاح الاجتماعي، لذلك اعتزلت السياسة لأنها جهد ضائع في حلقة مفرغة».

هذه صرخة قد يكون فيها شيء من الغلو، ولا سيما لأن «ألبير أديب» لم يكن عضواً أو ناشطاً في حزب سياسي أو مشاركاً في أي توجه ينأى به عن عالم الفكر، ولكنه كان يتعاطف مع كل مشروع يراه محققاً لمجد الأمة

العربية، فلما خاب ظنه في هذا النشاط، أعلن غضبته التي لا تستغرب من مفكر حر كألبير أديب.

وحدث في عام ١٩٤٨ أن صدر في لبنان قانون جديد للصحافة أفزع الصحفيين، فتلقيت من «ألبير أديب» رسالة قال فيها إنه يفكر في الهجرة من لبنان، ودعاني إلى أن أبحث إمكانيات الانتقال إلى مصر وإصدار «الأديب» من القاهرة.. وقال: إن القانون الجديد «يعيدنا إلى العهد الذي كان يلقى فيه القبض على الكاتب الذي ينعت الأسد بملك الغاب، باعتبار ان السلطان هو وحده ملك الغاب، ومن حسنات القانون السوداء أنه يفرض علينا تقديم ضمانة مالية نقدية قدرها ثلاثة آلاف ليرة. وتجدني الآن أحاول أن أجد قيمة الضمان المالي، وإلّا اضطررت إلى وقف الأديب».

استفزتني هذه الرسالة وكنت في ذلك الوقت أجمع بين عملي في جريدة «المقطم» وتدريس علوم الصحافة في الجامعة الأمريكية، وكانت قضايا حرية الصحافة تستأثر بكل اهتمامي، وزاد من عجبي أن يصدر هذا القانون في وقت كان فيه الأديب خليل تقي الدين ـ شقيق صديقي الأديب سعيد تقي الدين ـ مسؤولاً عن دائرة الدعاية والنشر في لبنان، وكان شقيقهما الثالث المحامي بهيج تقي الدين عضواً في مجلس النواب الذي أقر هذا القانون. فهاجمت هذا القانون في افتتاحيات «المقطم» التي كنت أكتبها يومياً منذ أن تخلى عن كتابتها أستاذنا خليل ثابت باشا، وتناقلت الصحف اللبنانية كل ما كتبته في هذا الشأن لأن «المقطم» كانت جريدة مسموعة الرأي في لبنان في ذلك الحين. وعلى أثر صدور المقال، تلقيت رسالتين من خليل تقي الدين وشقيقه بهيج تقي الدين أثبت نصهما هنا تسجيلاً لهذه الواقعة التاريخية التي قد يجهلها أخواننا اللبنانيون اليوم.

كانت رسالة خليل تقي الدين مؤرخة في ٢٨ آذار «مارس» ١٩٤٩ ونصها:

قرأت باهتمام مقالكم في «المقطم» عن الصحافة في لبنان. واسمحوا لي أن أصحح بعض ما ورد فيه بالنسبة لي ولشقيقي النائب بهيج. إنني لم أبق

مديراً للمطبوعات في لبنان، فقد استقلت من هذه المهمة المؤقتة التي كانت وكلت إليَّ قبل أن يوضع قانون المطبوعات موضع التنفيذ.. ويعود تاريخ استقالتي إلى أكثر من ثلاثة شهور، في حين أن القانون قد بدىء بتنفيذه منذ أوائل شهر آذار «مارس» الحالي، وأنا بعد لا أزال في السلك الدبلوماسي اللبناني، ولن يطول أمد إقامتي في لبنان. وأما شقيقي بهيج فقد كان على رأس الأقلية في مجلس النواب التي عارضت وضع هذا القانون ويمكنكم التثبت من ذلك من مراجعة ضوابط الجلسات. على أنني ألاحظ أن فريقاً من صحفيي لبنان ومن المقدمين بينهم كانوا من العاملين على وضع هذا القانون الذي جعل للقضاء وحده حق الفصل في قضايا الصحافة، بينما كان القانون القديم يعطي الحكومة حق تعطيل الجريدة إدارياً، تعطيلاً كان يتجاوز أحياناً الشهور والسنين. وما القيود التي يفرضها من حيث مبلغ التأمين وغيره سوى وسائل أراد بها الشارع، والصحفيون قبل الجميع، الحد من فوضى الصحافة الطاغية في لبنان. وحسبك أن تعلم أن في بلد لا يزيد عدد سكانه عن المليون أكثر من مائة وخمسين صحيفة!! فلما بدىء بتنفيذ القانون توارت من الوجود الستون صحفية التي أشرتم إليها، لا بقرار من الحكومة كما ذكرتم، بل لعجزها عن إيفاء شروط القانون من حيث الضمانة والشهادات التي يجب أن يحملها صاحب الجريدة ورئيس تحريرها. وأرجو مخلصاً أن تصدقوا أن في تواريها الخير والبركة، إذ لا يزال عندنا في لبنان أكثر من خمسين جريدة، وهو عدد أكثر من كافٍ».

قانون الصحافة

أما المحامي بهيج تقي الدين عضو مجلس النواب اللبناني فقال في رسالته:

«قرأت كلمتك في «المقطم» حول قانون الصحافة في لبنان، فبادرت بإرسال هذا الكتاب لأشكرك أولاً على ما جاء فيها من ثناء على أشقائي وعليَّ، ولأبدى بعض ملاحظات بشأن القانون المشار إليه. إنني أشاطرك

رأيك بشأن المفعول السلفي «أي الأثر الرجعي» للقانون، ولقد كنت بين النواب الذين اقترعوا ضد إعطاء النص المتعلق بدفع الضمانة الآن أي مفعول رجعي، ولكن الأكثرية وافقت على المشروع كما ورد من الحكومة. أما الشقيق خليل فكان مكلفاً بتنظيم دائرة الدعاية والنشر، إلا أنه لم يكمل مهمته لأسباب لا مجال لذكرها هنا. إن في قانون المطبوعات سيئات لا مجال لذكرها، ونقابة الصحافة اللبنانية ساعية لإزالة تلك السيئات، ويمكنني أن أؤكد لحضرتك أنني سأقف مع التعديل الذي يطلبه الصحافيون، وهو الموقف الذي يمليه عليَّ واجبي وضميري. ذلك أنني أعتبر أن الدفاع عن حرية الفكر واجب مقدس، وفرض على كل من يؤمن بالنظام الديمقراطي ولا يرضى عنه بديلاً. وإنني واثق من أن زملائي في المجلس سيقفون من القانون الموقف نفسه لأنهم في ممارستهم لرسالتهم النيابية إنما يستروحون الروح نفسها».

ولولا أن ألبير أديب حرضني على الانتصار لحرية الصحافة في لبنان فلعلى كنت أرمي بالتقصير في أداء هذه الرسالة المقدسة.

وبفضل ارتباط اسمي بمجلة «الأديب» صرت أعمل على التعريف بها بين من أكرمني ربي بمعرفتهم ومصادقتهم من الأدباء في مصر. ولعل الأديب النوبلي «نجيب محفوظ» يذكر أنني - وأنا اليوم أقدم أصدقائه وإن جهلني حرافيشه الجدد! - كنت أزوره في مطلع كل شهر لأقدم له في مكتبه بوزارة الأوقاف العدد الجديد من «الأديب»، وأعتقد ولا أظنني مخطئاً أن هذه المجلة كانت الإطلالة الأولى على الأدب العربي خارج مصر لأديبنا الكبير «نجيب محفوظ»، فلم يكن له حتى ذلك الوقت أي متابعة للنشاط الأدبي خارج مصر.

والذي يستعرض مجموعات مجلة «الأديب» يلاحظ أن مقالات منشئها «ألبير أديب» كادت تنقطع بعد سنتها الأولى، وعندما استفسرت منه عن سبب ذلك، أوضح أنه ارتأى أن يفسح المجال لكل صاحب قلم أو موهبة، معتبراً أن منبر المجلة هو ملك لمن يكتبون فيها وكلهم متطوعون مثلي لا يتقاضون أجراً عما يكتبون.

كان «ألبير أديب» من الداعين إلى تحرير الشعر من قيوده، فأصدرت له

دار المعارف في مصر ديوانه الوحيد بعنوان: «لمن»، ومع ذلك فالدارسون لهذا الضرب من الشعر لا يشيرون إلى ديوان «ألبير أديب».

وكم نصحت «ألبير أديب» بأن يحجب مجلته شهرين في فصل الصيف حتى يريح نفسه من هذا العناء الشاق، وهو عرف كانت تتبعه مجلة «الهلال» في باكورة عمرها، وجرت عليه مجلة «المقتطف»، ومجلة «الكتاب» التي أصدرتها دار المعارف برئاسة «عادل الغضبان»، ولكنه لم ينتصح، فانتظم صدور المجلة شهرياً إلى أن قامت الحرب الأهلية في لبنان، فبات يصدر أعداداً تحمل أحياناً تاريخ شهرين أو ثلاثة أو حتى سنة كاملة، والمهم عنده هو أن تصدر المجلة بالانتظام الذي تسمح به ظروفها.

بدأت المتاعب الصحية «لألبير أديب» عندما فقد الرؤية بإحدى عينيه، وأصبحت العين الأخرى مهددة بنفس المصير، فانهارت قواه واضطر إلى حجب المجلة بصدور آخر أعدادها في ديسمبر ١٩٨٣، ولقى هو وجه ربه في ٢٦ سبتمبر ١٩٨٥ بعد عامين من احتجاب المجلة.

والمؤكد أنه لا غنى لباحث عن مجلة «الأديب» الصادرة عن وطن النجوم، فهي سجل أمين للحركة الأدبية العربية في ٤١ عاماً، كانت تحتفي به من رسائل الأدباء ومطارحاتهم ومقالاتهم إذا ما عز اللقاء بينهم.

وعلى نفاسة هذه المجلة، فإن طالبيها في دار الكتب المصرية ومكتبات الجامعات المصرية لا يعثرون ولو على أعداد متفرقة منها، وهذا نقص حبذا استدراكه إن أمكن.





الفهرسة
علم ينقصنا في مصر

كانت تصدر في النصف الثاني من القرن الماضي طائفة من المجلات الأدبية والثقافية الرصينة التي لم تلبث أن احتجبت لأنها كانت تمثل مشروعاً خاصاً أو أحياناً مشروعاً شخصياً، فاختفت تباعاً ولم يكتب الدوام إلا لعدد محدود من المجلات مثل مجلة «الهلال» ومجلة «مجمع اللغة العربية» ومجلة «دار العلوم».

كانت هناك مجلات «المقتطف» لصرّوف ونمر ومكاريوس، و«الرسالة» لأحمد حسن الزيات، و«الثقافة» لأحمد أمين، و«الكاتب المصري» لطه حسين، و«الكتاب» لعادل الغضبان، و«الفصول» لمحمد زكي عبد القادر، ومجلة «علم النفس» للدكتور يوسف مراد، ومجلة «التربية الحديثة» للدكتور أمير بقطر، و«المجلة» لمحرريها محمد عوض محمد وحسين فوزي وعلي الراعي ويحيى حقي، ومجلة «العصور» لإسماعيل مظهر، و«المجلة الجديدة» لسلامة موسى، ومجلة «الزهور» لأنطون الجميل وأمين تقي الدين، ومجلة «سركيس» لسليم سركيس، ومجلة «أبولو» لأحمد زكي أبي شادي وغيرها، وهي مجلات باقية الأثر برغم احتجابها ولا يستغني باحث أو دارس عن الرجوع إليها بغية الاهتداء إلى ضالته واستكمالاً لعمله الأدبي أو الأكاديمي. صحيح أن بعض هذه المجلات أعيدت طباعتها بطريقة التصوير مثل «أبولو» و«الرسالة» و«الكاتب المصري» و«الزهور»، ولكن هذه الطبعات الجديدة خلت من أي فهارس شاملة لموضوعاتها وكتابها يرجع إليها الباحث بدون مشقة، وهو في اعتقادي قصور معيب لا يدرك حقيقته إلا دارس يبحث عن موضوع معين مدرج في إحدى هذه المجلات أو إلى مقال لكاتب معين يحتاج إليه في بحثه.

وفي حين اضطلع الدكتور محمد الجوادي بإعداد فهرس مفصل لمجلة «الثقافة» لأحمد أمين، فإن أستاذي فؤاد صرّوف نائب رئيس جامعة بيروت الأمريكية ورئيس التحرير السابق لمجلة «المقتطف» انتهز فرصة احتفال تلك الجامعة بعيدها المئوي، وأقنعها بنشر «فهرس المقتطف» الذي أعد بذرته الأولى الدكتور أحمد موسى الملحق الثقافي المصري الأسبق في ألمانيا، ثم استكملته ليندا صدقة أمينة مكتبة الجامعة، واستعين بي في فهرسة السنوات العشر الأخيرة للمجلة، وصدر الفهرس في ثلاثة مجلدات ضخام بلغ عدد صفحاتها نحو ٢٤٠٠ صفحة. وهكذا أصبح في وسع الباحث أن يرصد أي موضوع نشر في المجلة أو آثار أي كاتب أسهم فيها على مدى عمرها الطويل وهو ٧٧ عاماً.

وقلة قليلة من الكتب العربية هي التي تحرص على إثبات فهارس بالأعلام تذيل بها طبعاتها كما يفعل معظم الناشرين الغربيين في الكتب التي ينشرونها. ومن هذه القلة الأمير مصطفى الشهابي رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق الذي يحرص دائماً على تذييل كتبه عن القومية العربية وعن المصطلحات العلمية بفهارس للأعلام، ومثل العلامة العراقي الدكتور يوسف عز الدين، ومثل المؤرخ عبد الرحمن الرافعي بك الذي يتطوع الشيخ محمود أبو رية بإعداد فهارس لكتبه، ومثل صنيع الدكتور أحمد الحوفي في «ديوان شوقي» بفهارسه المفصلة للأعلام والأماكن والمدن، ومثل الدكتور محمد صبري السوربوني في كتابه «الشوقيات المجهولة» حيث ذيله بفهارس للأعلام، وما ذكرت إلا بضعة أمثلة.

وهناك أدباء اضطروا إلى ملازمة دار الكتب للتنقيب بأنفسهم في المجلات والصحف القديمة بحثاً عن المادة التي يطلبونها، منهم محمد سيد كيلاني الذي جمع مقالات طه حسين المجهولة من الصحف القديمة، ومنهم أنور الجندي الذي قام بعملية «مسح» للحركة الأدبية والثقافية في مائة عام نشرها في عدة مجلدات، ومنهم أخيراً أحمد حسين الطماوي الذي يستخرج من هذه المجلات القديمة ما هو «مدفون» فيها من آثار وأخبار المتقدمين، في

حين أن الجهد الذي يبذلونه في مراجعة هذه المجلات القديمة كان يمكن اختصاره لو كانت لها فهارس كاشفة.

ومن أبرز الفهارس الموسوعية والتي لا غنى عنها لباحث كتاب «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» الذي صنفه محمد فؤاد عبد الباقي، وهو عمل باذخ من أعمال الفهرسة تنوء به العصبة من أشد الباحثين.

وتجاربي الشخصية في إعداد فهارس لأعلام تندرج في الكتب هي تجارب قليلة لا عزوفاً عن هذا العمل، بل نزولاً على رغبة بعض الأصدقاء. فعندما ترجمت إلى العربية كتاب «فلسطين في ضوء الحق والعدل» الذي ألفه بالإنجليزية الفقيه القانوني الفلسطيني هنري كتن رغب إليّ في إعداد فهرس للأعلام للطبعة العربية فاستجبت لرغبته وأنجزت هذه المهمة. وعندما رغب إليّ صديقي العلامة العراقي الدكتور يوسف عز الدين في أن أعد فهارس لبعض كتبه التي كان يطبعها في مصر بعيداً عن مقر إقامته، لم أتردد في ذلك، وإن كنت أعتقد أن عمل الفهرسة ينبغي أن يتخصص فيه من يتقنونه ومن يحملون عن المؤلف عبء هذه الفهرسة كما يفعل الناشرون الغربيون باعتمادهم على مفهرسين متخصصين متفرغين في كل دار نشر، فالفهرسة علم ينقصنا في مصر.

و«معجزات» الكمبيوتر يمكن أن تتجلى في هذا الميدان، فيعفى الجهد البشري من مشقة الاضطلاع بهذه المهمة، ويحقق للباحثين خدمة جليلة يفتقرون إليها في كثير من المطبوعات.



الأدباء والحيوان

لم يخلق الله الإنسان ككائن حي وحده، وإنما خلق معه عدداً لا يحصى من حيوانات البر والبحر والجو، منها ما هو مأنوس يعاشره المرء، بل ويتعامل معه في حياته مثل الفرس والحمار والبقر والكلب والقط وطيور الزينة، ومنها الجوارح والضواري والوحوش التي لا يأمن الإنسان شرّها، فإما أن يسعى إلى القضاء عليها، وإما أن يقيّد حريتها ويجعلها متاعاً للنظر في حدائق الحيوان، سواء في باحات بغير أسوار أو في أقفاص مدججة بثقيل الأقفال.

ما دام الأدب نافذة تطل على الحياة بكل ما فيها، فقد تعامل الأدب مع الحيوان بأساليب شتى. فتوفيق الحكيم مثلاً، اختار الحمار ليكون فيلسوفه الناطق بلسانه والمعبّر عن آرائه والمحاور الذي لا يملّ من الحوار معه، وإن كان الحكيم قد اتّهم بأنه سرق هذه الفكرة من الأديب الإسباني خيمينز مؤلف كتاب «الحمار وأنا». ومع ذلك، فعندما أصدر طاهر الطناحي كتابه «حديقة الأدباء»، آثر أن يصوّر توفيق الحكيم في صورة عصفور - ربّما استيحاء من روايته «عصفور من الشرق».

والطناحي قد أقدم على محاولة غير مسبوقة في هذا الكتاب الفريد. حيث اختار لكل أديب حيواناً يناسبه، واستعان برسّام يخضع الأديب لصورة الحيوان الذي يمثله. فطه حسين كروان، والعقاد عُقاب، وأحمد زكي ديك، وعزيز أباظة بلبل، وإبراهيم ناجي سنجاب، وأحمد لطفي السيد نسر، وميخائيل نعيمة طاووس، وفكري أباظة بولدوج، ومحمود تيمور هدهد، وأمير بقطر إيبيس «أبو قردان»، وأحمد رامي فراشة، وأمينة السعيد زرقاء اليمامة، وأحمد أمين مالك الحزين «ربما لأنه لم يكن يعرف الابتسام».

وذهب العقاد إلى شيء من هذا عندما قرر عقد ندوته الأسبوعية في بادىء الأمر في جزيرة الشاي بحديقة الحيوان في الجيزة، حيث كان «يعايش» الحيوانات في دخوله إلى الحديقة وخروجه منها، ولا فكاك من هذه الرفقة الدؤوب كلّما التقى بروّاد ندوته في هذه الحديقة.

مشاغبات العقاد:

وطاب للعقاد أن يداعب روّاد الندوة بتشبيه كل منهم بحيوان بعينه اعتماداً على فراسته في المطابقة بين حيوان معيّن وواحد من روّاده. فبدأ العقاد بنفسه واختار أن يكون زرافة تمرح بعنقها الطويل في ساحة مفتوحة، إلا من سور حاجز يحول بينها وبين مشاغبات روّاد الحديقة، وهو قد أحسن اختيار الزرافة لأنه يضيق بالأقفاص والسدود والقيود، ثم إنه فارع الطول كالزرافة تماماً.

أما الشاعر عبد الرحمن صدقي، وهو بدوره طويل عريض، فقد جعل العقاد منه بطريقاً (بنجوين) وهو طائر يمشي منتصباً مختالاً مرفوع الرأس. وكان من نصيب علي أدهم الإيداع في قفص الضبع، في حين اختار للموسيقار محمد حسن الشجاعي ـ وكان ضخم الجثة ـ تقمّص شخصية فرس البحر الذي يُعرف باسم «سيد قشطة».

أما عصام الدين حفني ناصف الشيوعي الأحمر، فقد أودعه العقاد في قفص الدب القطبي الروسي تماشياً مع مذهبه السياسي. وأما الدكتور الجامعي محمد أبو طايلة، فكان حظه أن يمثله القنفذ، في حين أودع محمد طاهر الجبلاوي في قفص الميامين «ولم تسعفني المعاجم في معرفة هذا الفصيل من الحيوان» ـ لعله يقصد القرود؛ لأن القرد يقال له ميمون. ولما جاء العوضي الوكيل متأخراً، وأخذ ينتقل من مقعد إلى مقعد، حكم العقاد عليه بأن يُسرَّح في الحديقة بغير قفص.

وإذا كان الطناحي جعل من العقاد عقاباً، وإذا كان العقاد اختار لنفسه أن يكون زرافة، فقد حوّلت العقاد إلى «دودة»! كنت أضيق بوصف «الكاتب

الجبار» الذي أطلقه الزعيم سعد زغلول باشا على العقاد؛ لأن الأديب قد يوصف بأنه كبير أو لوذعي أو نحرير أو جهبذ أو باقعة، ولكن لقب «الجبار» هو من ألقاب «البلطجية».

وعندما عملت في جريدة «المقطم» في عام ١٩٤٥، وهي جريدة يومية مسائية كانت الثانية من حيث العمر بعد جريدة «الأهرام» ولا تقل عنها أهمية، أحال إليّ محررها خليل ثابت باشا كتاباً من كتب المطالعات أهداه إليه زميله في مجلس الشيوخ عباس محمود العقاد، ورغب إليّ في كتابة فصل حول هذا الكتاب الذي يشهد للعقاد بأنه واسع الاطلاع، نهم في القراءة. فبدأت مقالي بالإشارة إلى أن الغربيين يصفون مَن كان نهماً إلى القراءة بأنه Book Worm أي دودة قراءة تلتهم الكتاب من الغلاف إلى الغلاف، وقلت: إن هذا الوصف ينطبق تماماً على العقاد، فهو دودة قراءة.

وظللت أردد في المقال عبارة «العقاد دودة» مطمئناً إلى أنني أحسنت التعبير عن هذا القارىء النهم.

أنا كتيبة من الديدان:

قرأ العقاد هذا المقال بعد الظهر، ثم توجه إلى مجلس الشيوخ للمشاركة في اجتماعه، فلما صادف زميله خليل ثابت باشا قال له: تقولون عنّي إنني دودة، أنا كتيبة من الديدان!

وبعدما اكتملت حديقة حيوان العقاد بإيداع كل من حوارييه في القفص الذي يناسب كلاً منهم نظم قصيدة استهلها بالإشارة إلى «أرفيوس» وهو شاعر وموسيقار كان يسحر بأنغامه حتى ضواري الوحوش، قال فيها:

«أرفيوس، الفن سوّى بينهم	فتلاقى الدب فيها والقرود
وتغنّى فرس البحر بها	يا له من فرس طلق النشيد
ومشى الأرنب والحوت لها	صاحبا القاعين مندلُجٌ وبيد
وتآخى الجدي والضبع وما	بين هذين سوى الثأر اللدود

وجرى السيسي فيها شوطه ... وهو ناهيك بسيسي عنيد[1]

ولغا البطريق فيها لغوه ... وهو من قطب جنوبي بعيد

وكأني بالزرافي اجتمعت ... وحمير الوحش منها في صعيد

وأدى السنور والجرو إلى ... نمرٍ فيها، على غير الوصيد

والسلحفاة تجاري عندها ... أرنب البيداء والكلب الصيود

فتحت أقفاصها واختلطت ... لا سدود، لا قيود، لا حدود

حيوانات نماها آدم ... وهي من أبنائه نسل فريد

حيوانات ولكن بينها ... كل ذي لبّ سماوي رشيد

«أرفيوس» الفن سوّى بينها ... فاستوى المنشد فيها والمُعيد

وعندما ضاق العقاد بضجيج حديقة الحيوان وتطفل روّادها على ندوته، قرر نقلها إلى بيته في مصر الجديدة بعدما أطلق سراح روّاده الذين زج بهم في الأقفاص، وانضم إلى الندوة روّاد جدد منهم الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور عثمان أمين والدكتور نظمي لوقا وزوجته الأديبة صوفي عبد الله والشيخ محمود أبو ريّة، وعبد الحي دياب، وأنيس منصور. أما حواريه المخضرم العتيق محمد خليفة التونسي، فقد نفد بجلده من أقفاص حديقة الحيوان، وإن بقي على الدوام الديدبان المقيم الحارس للعقاد وتراثه، والحافظ لكثير من شعره، والكاتم لكثير من أسراره.

لم تتقطع صلة العقاد بالحيوان حتى بعد هجره لحديقة الحيوان، حيث كان يقتني كلباً باسم «بيجو» وكان شديد التعلق به يصحبه معه إلى ثغر الإسكندرية في الصيف، وإلى دفء أسوان في الشتاء، ويحنو عليه حنوّ الوالد على ولده. وفي رحلة من رحلات الصيف إلى الإسكندرية مرض «بيجو» فاستدعى العقاد طبيباً بيطرياً ذا شهرة عريضة لعلاجه، ولكنه لم يستطع إنقاذ حياته، فنفق، مما أورث العقاد حزناً عميقاً عبّر عنه في قصيدة لعلها من أطول قصائده، قال فيها:

---

(١) السيسي فصيلة من الخيل تتميز بصغر حجمها وتستخدم في جر مركبات النزهة داخل حديقة الحيوان.

حزناً على «بيجو» تفيض الدموع

حزناً على «بيجو» تثور الضلوع

حزناً عليه جهْدَ ما أستطيع

وإنَّ حزناً بعد ذاك الوداع

والله، يا بيجو، لحزن وجيع

* * *

حزناً عليه كلما لاح لي

بالليل في ناحية المنزل

مسامري حيناً ومستقبلي

وسابقي حيناً إلى مدخلي

كأنه يعلم وقت الرجوع

* * *

وكلما ناديته ناسياً:

بيجو، لم أبصر به آتياً

مداعباً مبتهجاً صافياً

قد أصبح البيت إذن خاوياً

لا من صدى فيه ولا من سميع

إلى أن يقول:

أبكيك، أبكيك وقلّ الجزاء

يا واهب الودّ بمحض السخاء

يكذب مَنْ قال طعام وفاء

لو صحّ هذا ما محضت الوفاء

لغائب عنك وطفل رضيع

وما دمنا في سياق العقاد وحيواناته، فقد سألت العقاد ذات مرة: هل يعرف الشبل الذي يولد في القفص معنى الحرية؟

فردّ العقاد بعلم وحسم قائلاً: طبعاً؛ صحيح أنه لم يذق طعم الحرية منذ ما ولد في هذا القفص، ولكن الحرية جبْلة مركّبة في الحيوان والإنسان على السواء، بل لقد لوحظ أن الحيوان الذي يفقد حريته بين الأقفاص يمنع نفسه من الإنجاب حتى لا يظلم رضيعاً يبلو مرارة السجن داخل قفص. ثم قال العقاد: طبق هذا الكلام على البشر، فإن ولدوا في ظل القيود والسدود، لن يلبثوا أن يثوروا عليها كما ثار الفرنسيون على سجن الباستيل وحطّموه تحطيماً لكي ينعموا برحيق الحرية المنشودة.



معارك لم أخضها

حرصت طوال عمري على أن أقول كلمتي وأمشي... بتعبير فيلسوف الفريكة الأديب المهجري أمين الريحاني ـ تاركاً للقارىء أن يتقبل كلامي أو يرفضه، فهذه حرية لا أعترض عليها ولا أحاول المجادلة فيها.

ومع ذلك، فقد تعرضت في مسيرة الحياة لمن ناوأني واعتبر كلامي تخليطاً يستحق الهجوم عليه. وكنت في جميع هذه الحالات أتذرع بفضيلة التغاضي، فلا أخوض معركة حتى وإن كنت واثقاً من الفوز فيها، فالحياة الأدبية تحتمل الأخذ والرد، وليس فيها قول فصل، وكل حجة مردود عليها بحجة أخرى قد تكون أقوى منها أو أضعف.

أسوق هذه المقدمة معتذراً للقارىء عما قد يكون في هذا الكلام حديث عن النفس، وإنما رغبت في أن أروي بعض ما تعرضت له من «مناكفات» أدبية من بعض الأقلام التي حاولت التحرش بي، فاستقبلت هجومها بالتجاهل، وكأنني لم أطلع عليه أصلاً.

كانت تصدر في دمشق مجلة فصلية اتخذت لنفسها اسم «الثقافة العربية»، ومنها تلقيت رسالة تدعوني فيها إلى مؤازرتها بقلمي، فوافيتها بمقال اخترت له عنوان «الأديب، من أين يبدأ» عالجت فيه حيرة الأديب وهو يطالع الحياة الأدبية في بداياته وكيف يخوض ميدان الأدب دون أن تفشو في كتاباته أمارات الضعف والهزال. واقترحت على الأديب الشاب أن يتكىء على كاتب أجنبي كبير، فيترجم كلامه منسوباً إليه، وبهذا يظفر باحترام القارىء من بداياته الأولى، ولا تبدو على كتاباته أمارات «الطفولة الأدبية» إن جاز هذا التعبير، وهو ما اختبرته شخصياً عندما نشرت لي مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات مقالاً مترجماً عن الأديب المسرحي الدنمركي هنريك إبسن في عام

١٩٤٣ وعندما نشرت لي مجلة «المقتطف» أقصوصة مترجمة عنوانها «كف القرد» في نفس هذا العام.

وبمجرد صدور مجلة «الثقافة العربية» فوجئت بهجوم عليّ في مجلة «الصباح» لصاحبها مصطفى القشاشي وكان المقال بالتوقيع المستعار للأديب محمد فهمي عبد اللطيف وهو «الجاحظ». وكان اعتراض الجاحظ عليّ لأنني أجهل الأسلوب العربي السليم ولم أحرص عليه في عنوان المقال حيث كان ينبغي أن يستقيم على الوجه التالي «من أين يبدأ الأديب» وليس «الأديب من أين يبدأ»، واعتبرت أن هذه الملاحظة هي من قبيل التعالم الذي لا يصح لـ«جاهل» مثلي أن يرد عليه. فهذه معركة أولى استدرجت إليها، ولكنني لم أخضها.

وكانت تصدر في البحرين أيام الاستعمار البريطاني مجلة شهرية اسمها «صوت البحرين» يحررها المناضلون الوطنيون وفي طليعتهم صديقي الشاعر إبراهيم العريض، وكان مصدروها يحرصون على موافاتي بها كل شهر لأتابع ما ينشرونه فيها من فصول أدبية وسياسية. وعَنَّ لهم أن يستكتبوني في هذه المجلة، فرحبت بدعوتهم وكتبت مقالاً عنوانه: «الاستعمار وهل يمكن أن يكون ثقافياً» وذلك تعليقاً على كلمة نشرتها المجلة لأديبة لبنانية اسمها روز غريب (عمرت نحو قرن من الزمان) حيث رفعت عقيرتها بالصياح لأن الأمريكيين افتتحوا مكتبة في مدينة زحلة اللبنانية، واعتبرت هذا استعماراً ثقافياً. فرددت عليها بقولي إننا نقرأ شكسبير ودستوفسكي باعتبارهما يكتبان أدباً إنسانياً لا استعمارياً من جانب الإنجليز والروس. ثم طالبت لا بإغلاق المكتبة الأمريكية في زحلة بل بفتح مكتبات إنجليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية وإسبانية في جميع العواصم العربية، ونحن قادرون على تمييز الغث من السمين مما يعرض في هذه المكتبات من كتب.

ولم يكد مقالي يظهر حتى شنت عليّ حملة ضارية من كتاب كانوا يوقعون مقالاتهم بأسماء مستعارة مثل «فتى الهيجاء» و«ابن الصحراء» وهؤلاء اتهموني بأنني داعية استعماري. ولم أشأ أن أخوض معهم معركة لأنني

أتحدث بلغة الثقافة في حين يتحدثون هم بلغة السياسة ـ وهم طبعاً معذورون لأن بلادهم كانت ما زالت خاضعة للاستعمار. ولم ينجدني من هذه الحملة العنيفة إلا أزهري، هو صديقي الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي فأخرسهم جميعاً، وأعفاني بذلك من خوض معركة آثرت ألا أخوضها.

وعند وفاة سلامة موسى هاتفني صديقي الشاعر حسن كامل الصيرفي الذي كان يعمل سكرتيراً لتحرير مجلة «المجلة» في عهود رؤساء تحريرها ابتداء من الدكتور محمد عوض محمد والدكتور حسين فوزي وعلي الراعي ويحيى حقي، ودعاني إلى كتابة مقال عن سلامة موسى لأنه لا يصح لهذه المجلة أن تتجاهل وفاته، فاستجبت لرغبته ووافيته بالمقال المطلوب الذي رحب به رئيس التحرير الدكتور حسين فوزي دون أي معرفة شخصية بيننا. وبمجرد صدور المجلة تلقت مقالاً من الأديب حبيب الزحلاوي حمل فيه حملة مضرية عليّ وعلى سلامة موسى، ولم يسلم من قلمه الحاد الدكتور أمير بقطر وكمال الملاخ... وعندما تسلم الدكتور حسين فوزي مقال الزحلاوي قال للصيرفي: هؤلاء الشوام لا يكفون عن تبادل التراشق بالألفاظ: فأوضح له الصيرفي أنني لست من الشوام بل أنا مصري صعيدي... والمهم أن الدكتور حسين فوزي رفض نشر مقال الزحلاوي، فما كان من هذا الزحلاوي إلا أن أصدر كتاباً عنوانه: «شيوخ الأدب الحديث» هاجم فيه كل أدباء مصر ما عدا العقاد، وأدرج فيه مقاله المرفوض من مجلة «المجلة»، ثم زارني وأهداني نسخة من كتابه. وبعد نحو أسبوعين هاتفني سائلاً: هل قرأت كتابي، ولماذا لم تكتب عنه؟ فقلت له: ما دام رأيك فيّ سيئاً، فلماذا تتوقع من هذا السيء أن ينصفك؟ ولكن أخانا الدكتور زكي المحاسني السوري انبرى للرد على الزحلاوي بمقال نشره في مجلة «قافلة الزيت» السعودية قال فيه: إن الزحلاوي لا يكتب بقلم بل يكتب بهراوة، وهكذا أعفاني المحاسني من معركة أخرى لم أكن أرغب في خوضها.

وبسبب سلامة موسى هاجمني أنور المعداوي في مجلة «الرسالة» ووصفني بأنني بعوضة، ولم أشأ أن أخوض معه معركة لأثبت له أن البعوضة

قادرة على أن تلسعة وتؤلمه، ولكنني آثرت الانسحاب نهائياً من صداقة هذا المغرور إلى آخر عمره. . . وأعفيت نفسي من معركة رفضت أن أخوضها.

وعندما كانت تغلق في وجهي أبواب الصحافة كنت مضطراً إلى قبول أي عمل آخر ولا سيما إن كانت له صلة بالعمل الصحفي، ومن هنا قبلت عرضاً من شركة أرامكو الأمريكية للعمل في مكتبها في القاهرة كمدير للعلاقات العامة، وكان من مسؤولياتي استكتاب الأدباء في مجلة «قافلة الزيت» وأيضاً الإشراف على إعلانات الشركة التي تنشر في الصحف المصرية.

وذات يوم فوجئت بالشيخ أمين الخولي يزورني في مكتبي لكي يعاتبني لأنني لا أستكتبه هو وزوجته الدكتورة بنت الشاطىء في المجلة، ولا أنشر إعلانات في المجلة التي كان يصدرها باسم «الأدب». فأوضحت له أنني لا أختار الكتاب وإنما أنفذ رغبة أسرة تحرير المجلة في الظهران، وأن الإعلانات تخضع لاعتبارات منها مدى رواج المجلة. وأهديته بمناسبة زيارته كتابي «قضايا الفكر في الأدب المعاصر».

وبعد انصرافه، بعث إليّ برسالة ما زلت أحتفظ بها وصفني فيها بأوصاف تفوق واقعي ثم كرر رغبته التي أبداها عند زيارتي في مكتبي. وعندما أنس مني عدم الاستجابة، كتب مقالاً افتتاحياً في مجلة «الأدب» نشره على تسع صفحات هلهل فيه كتابي الذي أهديته إليه، وسفه كل آرائي دون أن يذكر اسم المؤلف أو عنوان الكتاب، ولكن الفقرات التي اقتبسها من كلامي دلت على أنه إنما يقصدني أنا ولا أحد سواي. واعتبرت كلامه رأياً خاصاً به، ونهيت نفسي عن أن أحاول خوض معركة مع الشيخ أمين الخولي.

وعندما صدر كتابي ذو الجزءين عن أعلام العصر الذين عرفتهم وتعاملت معهم عن دار القلم في دمشق، رحبت بعض الأقلام المنصفة به في البلدان العربية، ونشر في الصحف السعودية عدد من المقالات لكتاب أعرف بعضهم وأجهل الآخرين، وهؤلاء ساقوا إليَّ أطيب الثناء على عملي، ولم يشذ عنهم إلا الأديب عبد الفتاح أبو مدين الذي كتب مقالاً استخف فيه بالجهد المبذول في كتاب يقع في ٧٥٠ صفحة ويتناول علاقاتي مع نحو مائة شخصية أدبية في

مصر والعالم العربي والمهاجر والمستشرقين أيضاً، وقال: إن مؤلفه صحفي ومترجم ولا دراية له بالأدب، وكاد يطالب القراء بالإعراض عن قراءة هذا الكتاب لأنه ـ في عرفه ـ ليس أدباً بل دردشات صحفية.

ومع أنني عرفت عدداً غير قليل من الأدباء السعوديين، فلم تتح لي الظروف معرفة عبد الفتاح أبو مدين، وإن كنت أعرف عنه شراسته في النقد ولدده في العداوة. ولهذا تجاهلت مقاله وكأنني لم أقع عليه وأعفيت نفسي من معركة هي بدورها معركة لم أخضها.

وثمة معركة حديثة لم أخضها حول «أحلام فترة النقاهة» لنجيب محفوظ. فقد كنت نشرت مقالاً في مجلة «المصور» قلت فيه إنني عرفت نجيب محفوظ في عام ١٩٤٣ وإنني كنت من السابقين في التعريف بهذا الشاب المرجو، بل كتبت عنه في الأربعينيات من القرن الماضي خمس مقالات تنبأت في مقال منها بأن طريق المجد مفروش أمامه إذا ما قدر لرواية «رادوبيس» أن تترجم إلى اللغات الأجنبية. وقلت: إن العلاقة بيننا ـ ولو على تباعد لأنني لم أكن أغشى المقاهي التي يتردد عليها ـ اتسمت دائماً بالحب والتقدير المشترك، فإذا ما التقينا ولو مصادفة كان العناق والقبلات تعبيراً عن هذه العلاقة. وقلت: إنني أكن لنجيب محفوظ على المستويين الشخصي والأدبي كل حب وتقدير. ثم انتقلت إلى «أحلام فترة النقاهة» واخترت ثلاثة نماذج من هذه الأحلام خبط عشواء، واحتكمت إلى ذوق القراء قبل ذوقي الخاص حول هذه الأحلام وهل فيها أي حكمة أو جمال أو عبرة أو قيمة فنية أو أدبية، لأنني عن نفسي لم أجد فيها شيئاً من هذا كله، ولهذا أشفقت على نجيب محفوظ من أن تنسب إليه هذه الأحلام وأن يقوم بتسجيلها ضمن تراثه الأدبي.

ثم جاءت صحفية نشطة، وجرياً على أسلوب «لا تقربوا الصلاة». تجاهلت هذه المقدمة الطويلة عن علاقتي بنجيب محفوظ، وتجاهلت نماذج الأحلام التي استشهدت بها دليلاً على خلوها من أي قيمة فنية أو أدبية، ثم طافت بتساؤلي على عدد من الأدباء، فكان بينهم ما يشبه الإجماع على أن

كاتب المقال تجنى على نجيب محفوظ. وقال واحد منهم: إنني أضمر في نفسي شيئاً ضد هذا العملاق وإنني أحاول هدم هذه القمة السامقة في وقت تجري فيه الاستعدادات للاحتفال بمئوية محفوظ. وقالوا: إن هذه الأحلام تمثل أدباً مضغوطاً في برشامة أو كبسولة. بل إن واحداً منهم، ومؤكد أنه هو وجميع العاملين في مؤسسته الصحفية لم يكونوا قد ولدوا بعد عند بدء علاقتي بنجيب محفوظ في عام ١٩٤٣ ـ قال: (لا فض فوه) «كفانا أيها السادة هذه الأمية»؟! وتساءل واحد منهم كيف لم أبد رأيي في هذه الأحلام من قبل مع أنها نشرت من نحو ١٥ عاماً في مجلة «نصف الدنيا». وردي الساذج على هذا التساؤل هو أنني كنت في تلك الفترة لا أكتب إلا مقالاً شهرياً في نفس مجلة «نصف الدنيا» التي كانت تحتفي بأحلام نجيب محفوظ، ولو أنني حاولت إبداء هذه التساؤلات حول الأحلام، فالمؤكد أن رئيسة التحرير سناء البيسي كانت تبادر إلى استبعاد مقالي.

وصفوة القول: إن الذين أرادوا استدراجي إلى معركة بتعليقاتهم على فقرة واحدة من مقالي مع جهل تام بالنص الكامل له ـ وإن لم تخل تعليقاتهم من عبارات كريمة وجهوها إليَّ مثل «الكاتب الكبير» و«أديبنا التاريخي» و«العلامة الشامل» و«رجل من شهود العصر» و«واحد من كبار المخضرمين من مثقفي الريادة» ـ أقول مع ذلك: إنني أقنعت نفسي بأن ألزم الصمت، فهذه بدورها معركة من المعارك التي لم أخضها، ولعلها بحكم السن تكون آخر المعارك طراً.

ولست في صمتي منفرداً، فقد التزم طه حسين بالصمت المطبق تجاه جميع الذين تعرضوا له بالنقد أو حتى بالهجاء، فلم يرد على من وصف أعماله بـ «السطو العريان»، ولا رد على من قال عنه إنه أمي لا يعرف القراءة والكتابة وأن لحمه كلحم الكلاب يعاف أبناؤه من أكله. وما دمت في كل ما أكتب لا أرضي إلا ضميري، فلأمش في طريقي راضياً مرضياً عارفاً حدودي التي لا أتجاوزها.

حول رسائل الأدباء

الرسائل المتبادلة بين طرفين، من يملك أي حقوق أدبية أو قانونية فيها؟ هل مرسلها هو صاحب الحق الأصيل فيها، أو أن الحق قد آل إلى من تسلمها وصارت في حوزته؟ أثيرت هذه المشكلة من سنوات أمام القضاء المصري عندما قامت الحكومة بشراء مجموعة من الرسائل التي كان الزعيم الثائر أحمد عرابي باشا يبعث بها إلى محاميه الإنجليزي «برود لي» كيما يستعين بها في دفاعه عنه أمام المحكمة. وقد احتفظ «برود لي» بهذه الرسائل وآلت بعد وفاته إلى ورثته، وهؤلاء عرضوها بالمزاد لمن يشتريها بأعلى سعر، تقدم الصحفي المصري قرياقص ميخائيل المقيم في لندن لشرائها، وبلغ من حرصه عليها أن استأجر خزانة في بنك بريطاني أودع فيها هذه الرسائل خشية أن تتعرض لأي سوء.

وعندما تقدمت السن بقرياقص ميخائيل دون أن يتزوج أو يرزق بورثة من صلبه، وافق على بيعها إلى الحكومة المصرية لتضمها إلى وثائقها التاريخية.

ولما ترامى إلى ورثة عرابي باشا خبر هذه الصفقة، رفعوا دعوى على الحكومة المصرية مطالبين بحقهم في رسائل مورثهم. فأصدرت المحكمة حكماً صار مبدأ قانونياً مقرراً ألا وهو أنه طالما أن كاتب الرسائل قد بعث بها بكامل إرادته الحرة إلى شخص آخر، فهو إذن قد تنازل ضمناً عن أي حقوق فيها، وانتقلت هذه الحقوق إلى من تسلم الرسائل وإلى ورثته من بعده. فخسر أبناء عرابي باشا دعواهم.

والرسائل التي يتم تبادلها بين طرفين تكاد تندرج تحت فئة من هذه الفئات: فهناك رسائل شخصية أو عائلية لا تتناول إلا أموراً شخصية بحتة بين طرفيها. وهناك رسائل يمكن أن توصف بأنها رسائل إعجاب كأن يبعث زيد

من الناس برسالة أو أكثر إلى طرف آخر يبدي فيها إعجابه به. وهناك رسائل عاطفية تجاوز الإعجاب حيث يبعث بها صاحبها إلى الطرف الآخر مبدياً فيها فرط هيامه ومعبراً عن لواعج حبه وغرامه. وهناك رسائل تتناول قضايا عامة أو أدبية كأن يبعث مشتغل بالقضايا السياسية أو بالأمور الأدبية برسائله إلى أنصاره أو مريديه يعبر فيها عن آرائه في الأمور الجارية أو في قضايا الأدب. وهناك ـ طبعاً ـ رسائل سياسية يتبادلها المسؤولون، وهي تحاط عادة بالكتمان ويحظر نشرها إلا بعد مرور سنوات قد تصل إلى نصف قرن حسب قانون كل دولة.

والسؤال الذي يتواتر هو: هل يجوز أدبياً وقانونياً وأخلاقياً نشر هذه الرسائل سواء في حياة أصحابها أو بعد رحيلهم؟ قبل الرد على هذا التساؤل نورد أمثلة على بعض منها. فالرسائل الأدبية التي بعث بها مصطفى صادق الرافعي إلى تلميذه محمود أبي رية جرى نشرها بعد وفاة الرافعي على اعتبار أنها تتناول قضايا أدبية وتتعرض لبعض الأدباء المعاصرين الأحياء. أما الرسائل السياسية، فلعل أشهرها الرسائل التي كان المجاهد العربي الكبير الأمير شكيب أرسلان يبعث بها من منفاه الاختياري في جنيف إلى المشتغلين بالقضايا العربية لكي يحثهم على القتال وتحقيق غايات الأوطان. وقد نشر الشيخ أحمد الشرباصي طرفاً من هذه الرسائل.

أما رسائل المعجبين، فقد تلقى الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي بعضاً منها من فنانات عصره، وكان يرد عليها بعبارات لا تخلو من المجاملات المعتادة.

ومن الرسائل الوجدانية ما وجهه أنور المعداوي إلى الشاعرة فدوى طوقان وجرى نشرها لنسج قصة حب وحيدة وفريدة بين طرفين، وإن كانت الشاعرة وصفت هذا الأمر بأنه «حب بالمراسلة» واعترفت بأنها أحبت كثيراً جداً!!

كما نشرت الأديبة السورية سلمى الحفار الكزبري الرسائل التي بعث بها جبران خليل جبران من مهجره إلى الأديبة مي زيادة. ومع أن «المجتهدين» استنتجوا من هذه الرسائل حكاية حب أزلية بين جبران ومي إلا أن لفظة

«الحب» لم ترد في أي رسالة، حيث وصف جبران مشاعره بأنها «شعلة زرقاء».

أما الرسائل الأدبية فلعل الشاعر العراقي عبد الخالق فريد هو صاحب اليد الطولى فيها، إذ نشر أحد عشر مجلداً تضم الرسائل الأدبية التي تلقاها من أدباء عصره، كما أن الدكتور حسين علي محمد استخلص من رسائلي مادة لكتاب نشره بعنوان «سفير الأدباء».

ولا تخلو رسائل الأدباء من عبارات المجاملة المعتادة، ولا سيما عند مخاطبة أديب كبير، فتخلع عليه الألقاب الفخام وتساق إليه عبارات التبجيل. ولست أزعم أنني أعرف على وجه التأكيد أخبار هذه المراسلات، وهل هي منتظمة أو متقطعة، وهل يصح أن تضيف شيئاً إلى التاريخ الأدبي أو لا، كما لا أعرف مدى حرص متلقيها على الاحتفاظ بها. فقد يقرر التخلص منها هو أو ورثته من بعده اعتقاداً منهم بأنها غير ذات أهمية. ولكن المؤكد، ولو في حالة ميخائيل نعيمة، أنه آثر أن يسترد رسائله إلى أصدقائه، فأعلن في الصحف عن رغبته في استرداد ما سبق له إرساله من بريد إلى الأدباء، وقام فعلاً بنشر مجموعة هذه الرسائل في كتاب. وقد قيل وقتها إن نعيمة لجأ إلى هذه الحيلة ليضيف إلى مؤلفاته كتاباً جديداً يكسب مالاً من ريعه.

والظروف المكانية هي التي تقرر ضرورة المراسلة أو لا. فإذا كان الأديب يقيم مثلاً في الإسكندرية وطالب صداقته مقيماً في القاهرة، فيجري التراسل بينهما. أما إن كانا يقيمان في المدينة نفسها، فعندئذٍ تنتفى الضرورة إلى المراسلة اكتفاءً بالاتصال الشخصي أو الهاتفي. ولهذا تخلو ضنائني الشخصية من أي رسائل من صديقي شاعر الأقطار العربية خليل مطران بك لأنني كنت أتواصل معه شخصياً مرة كل يومين. كما أنني لم أتلق أي بريد من صديقي الناقد سيد قطب إلا بعد سفره إلى الولايات المتحدة، وقد قامت الزميلة الكبيرة صافي ناز كاظم بنشر هذه الرسائل.

ومع ذلك، فإن بعض الأدباء لم يكن يرى مانعاً من المراسلة مع من يقيم معه في القاهرة، مثل الأديب محمود تيمور بك وكذلك المؤرخ

عبد الرحمن الرافعي بك.

على أن نشر بعض الرسائل الأدبية كان موضوع انتقاد، وهو ما حدث عندما نشر نبيل فرج رسائل الطالب محمد مندور الذي كان يدرس في فرنسا إلى أستاذه طه حسين، إذ اعترضت الشاعرة ملك عبد العزيز زوجة الدكتور محمد مندور على نشر هذه الرسائل بسبب صياغتها بأسلوب طالب مبتدىء.

وإذا اعتبرنا الرسائل المكتوبة بخط اليد وثائق لها صفة تاريخية، فيقال مثلاً إن هذه الرسالة محررة بخط العقاد أو خط توفيق الحكيم، فبعد شيوع الكمبيوتر والبريد الإلكتروني في عالمنا اليوم ولجوء كثيرين من الأدباء إلى كتابة رسائلهم وكذلك أصول كتبهم أو مقالاتهم بالكمبيوتر، ففي هذا قضاء مبرم على الصفة «الوثائقية» لرسائل الأدباء لانتفاء العنصر الشخصي لخط اليد.

والسؤال الذي لا معدى عن إثارته حول الرسائل الأدبية هو: هل يجوز أو يتعين نشرها سواء في حياة أصحابها أو بعد رحيلهم؟ في اعتقادي إن التعميم في هذه الحالة لا يعد صواباً، لأن بعض الرسائل يتضمن خصوصيات ليس من الكياسة نشرها، ولأن هناك رسائل كتبها أصحابها في ظروف معينة ثم ندموا على كتابتها بعد ما تغيرت الظروف، فأصبح نشرها محرجاً لهم إن كانوا ما زالوا على قيد الحياة. كما أن هناك رسائل قد تنطوي على نقد لاذع للمعاصرين ـ كما وقع في رسائل الرافعي لأبي ريه ـ فاضطر أبو ريه إلى حذف بعض الأسماء في الطبعة الأولى وأعادها في الطبعة الثانية عندما أصبح أصحاب هذه الأسماء في ذمة الله.

وليس من قبيل التفاخر أن أذكر أن في حيازتي طائفة من الرسائل التي تلقيتها من أدباء عرفتهم في عصري، وهي رسائل أضن بها من أن تصبح كلأً مباحاً، ولا سيما لأنني لا أملك فسحة من العمر تسمح لي بفرز هذه الرسائل وتسجيل مناسباتها وشرح ما قد يكون فيها غامضاً. فالرأي السديد عندي هو أن مصير هذه الرسائل المحتوم هو أن تدفن بإكرام.



تذكير بفضل راحلين

إبراهيم ناجي

زارني من أيام شاب سعودي يعد رسالة جامعية عن الشاعر إبراهيم ناجي، وقال إن غايته الوحيدة من هذه الزيارة هي استكمال صورة الشاعر سواء من عارفيه أو من المراجع المنشورة عنه. وهاله أن يكتشف أن هذا الشاعر الكبير غائب تماماً عن الذاكرة الثقافية لمصر ربما مع استثناء أغنية الأطلال التي تشدو بها أم كلثوم. حتى أن انقضاء خمسين عاماً على وفاته في ٢٤ مارس ١٩٥٣ لم تنبه الاحتفاليين والمتمهرجين إلى الاهتمام بهذا الشاعر الذي ليس من المغالاة وصفه بالموسوعي. ففضلاً عن شاعريته الخصبة، فهو عالم في الطب وكاتب قصة وخبير في علم النفس ومحيط إحاطة واسعة بآداب الغرب وفلسفاتهم.

ولأن هذا الشاب تأخر عشرات من السنين في المجيء إلى مصر فلم يصادف أحداً من عارفي ناجي وأصدقائه بعدما طوى الموت كل جيله، وضاعت روعة شعره في خضم الخزعبلات الشعرية التي باتت صحفنا تهتم بها اليوم لولا أن الشاعر حسن توفيق قام بعمل ضخم هو جمع الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة لناجي لما وجد الباحثون عن دواوين الشاعر إلا كتيباً يضم مختارات من شعره جمعها الدكتور محمد عناني.

وإذا كان مرور عشرين عاماً على وفاة أمل دنقل قد استأثر باحتفالية على مدى ثلاثة أيام، أفلا تستحق ذكرى مرور نصف قرن على وفاة الشاعر إبراهيم ناجي ـ ودعنا من القيمة الأدبية لهذا الشاعر وذاك ـ ولو نصف أو ربع احتفالية من هذه الشاكلة؟

ويبدو أن الظلم البين يلاحق إبراهيم ناجي حياً وميتاً. فعند صدور ديوانه الأول «وراء الغمام» استقبله طه حسين والعقاد بحملة شرسة أعلن ناجي بعدها طلاق الشعر قائلاً: وداعاً أيها الشعر وداعاً أيها الفن.. وداعاً أيها الفكر، وقرر الهجرة النهائية من مصر تمزقه حالة نفسية شديدة السوء. وظلت هذه الحالة تلازمه حتى وهو في منفاه المؤقت في إنجلترا فصدمته سيارة مسرعة كسرت ساقه، فاضطر إلى التفكير في العودة إلى مصر ليدافع عن شاعريته بمزيد من روائعه. وإذ كان على سطح السفينة وهي تقترب من ميناء بورسعيد صرخ قائلاً:

هتفت وقد بدت مصر لعيني ... رفاقي تلك مصر يا رفاقي
أتدفعني وقد هاضت جناحي ... وتجذبني وقد شدت وثاقي
خرجت من الديار أجر همي ... وعدت إلى الديار أجر ساقي

أما الظلم المبرح الذي تعرض له ناجي فهو إيراد اسمه في قائمة التطهير الأولى التي أعلنتها الحركة المباركة كما كانت ثورة يوليو تسمى في بدايتها. وقد ضمت هذه القائمة المشؤومة إبراهيم ناجي وصالح جودت ومحمد فتحي بك مدير الإذاعة وعلي خليل بك كبير المذيعين وغيرهم. فإن قيل إن لصالح جودت شعراً تملق به الملك فاروق وإن فتحي بك وعلي خليل بك كانا بحكم إشرافهما على الإذاعة الرسمية للدولة يمجدان الملك فاروق، فما ذنب إبراهيم ناجي الذي كان وقتها مديراً للإدارة الطبية بوزارة الأوقاف حتى يناله سيف التطهير بدعوى أنه غير منتج، وكأنه صاحب مصنع لإنتاج الطب قصر فيه ناجي تقصيراً معيباً، مع أنه لم يرد أحداً من موظفي الوزارة طلب منه العلاج، بل إنه كان حتى في عيادته الخاصة في شارع شبرا يعالج الفقراء مجاناً ويسدد ناجي من جيبه قيمة الدواء الذي يصرف من صيدلية نقولا الحداد (مترجم نظرية النسبية لأينشتين) لهؤلاء الفقراء بناء على اتفاق بين ناجي والحداد، وهو ما علمته من الحداد نفسه.

هذه الفرية الظالمة أورثت ناجي هما مقيماً - وكان هزيل الجسم - فهاجمه داء السل في فترة من حياته - ومات بعد أقل من عام.

ثم إن مؤرخي ناجي ظلموه بما رووه عن غرامياته، حتى أن صديقه صالح جودت أخذ يفصل قصائد ناجي على مقاس الممثلات والراقصات، وكأنما كانت مصادر الإلهام عند ناجي هي هذه الممثلة أو تلك الراقصة من بطلات السينما والمسرح. وظل هذا الاعتقاد يلاحق ناجي حتى بعد وفاته. فعندما غنت أم كلثوم مقاطع من ملحمة الأطلال خرجت علينا جملة من الممثلات وكل منهن تزعم أنها وحدها بطلة الأطلال. وإذا كانت هذه الملحمة قد انتهت بتدمير البطلة والبطل باعتراف الشاعر حيث قال في تقديمه لها «إن القصة انتهت بأن صارت هي أطلال جسد وصار هو أطلال روح»، فهل يشرف هؤلاء الفنانات أن يكن قد دمرن البطل ودمرن أنفسهن معه؟!

ولم يسلم ناجي من المظالم بعد وفاته. فالديوان الذي أصدرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي بتحقيق أحمد رامي وصالح جودت ومحمد ناجي شقيق ناجي وكان ضريراً، وبدراسة للدكتور أحمد عبد المقصود هيكل صدر معيباً من وجوه شتى. فهو لم يضم كل شعر ناجي كما زعم صالح جودت في مقدمته، بل إنه ضم ١٦ قصيدة للشاعر كمال نشأت وقصيدة للشاعر علي محمود طه تسللت إلى الديوان بزعم أنها من شعر ناجي. فأثار صدور الديوان ضجة كبيرة وصلت إلى المحاكم التي قضت بمصادرة هذا الديوان المعيب.

وأفلح شطار لبنان في نشر المجموعة الكاملة لشعر ناجي. فجاءت هذه الطبعة بدورها معيبة لما فيها من أخطاء الطباعة ولأن الناشرين حذفوا الهوامش التي تلقي ضوءاً على موضوع كل قصيدة فأساءت الروح التجارية للشاعر وشعره.

وما دامت هذه السلسلة من المظالم تطارد ناجي حياً وميتاً، فلتمض ذكرى مرور خمسين عاماً على وفاته بلا حس أو خبر. فلا صدر طابع بريد لذكراه ولا أقيم له احتفال متواضع هنا أو هناك، ولا ذكرته صحف تزعم أنها تعنى بأخبار الأدب والأدباء، ولا في حي شبرا حيث ولد في ٣١ ديسمبر ١٨٩٨ وحيث مارس الطب في عيادته، ولا عليك يا ناجي فقد عدد الشاعر أحمد زكي أبو شادي ذنوبك الكثار في مرثيته حيث قال:

أتـرى كـل ذنـبـه أنـه شـاعـر شـعـر
أنه نغم الأسى، أنه طارد الضجر
أنه شع أنسه في مجالس السمر
أنه أبدع المنى مثلما أبدع الصور
أنه داعب الهوى، والهوى كله خطر
أنه أنقذ الورى من شرور ومن شرر
أنه أسكر النهي، وهو من همه سكر
أنه أنضر الربى حينما صوح الشجر
أنه أنتج الجنى في دنى النحل والبشر
أنه صاغ شعره من دموع ومن فكر
أنه رف مطرباً ما تسامى وما ندر
أنـه كـان طبه فوق طب ومختبر
أنه عاش دائماً ضاحكاً يهزم الكدر
أنه كان شعلة من ذكاء، وكم بهر
لم تغته أصالة، إن يكن فاته الوطر

الدكتور أنور لوقا

رحل في ١٤ أغسطس ٢٠٠٣ الباحث الأكاديمي الأديب الدكتور أنور لوقا الذي اختار منذ أكثر من ثلاثين عاماً أن يعيش في جنيف بسويسرا وأن يعمل أستاذاً للفكر العربي في جامعاتها وفي الجامعات الفرنسية قائماً بشخصه بدور السفير الأدبي بين الثقافتين العربية والإفرنجية، ولئن غادر مصر في ظروف التضييق حتى على أساتذة الجامعات، وكان وقتها يعمل أستاذاً في جامعتي القاهرة وعين شمس ـ فلا يسمح لهم بالسفر إلا بالورقة الصفراء ودون الحصول عليها أهوال ـ ولأنه كان مضطراً بحكم زواجه من سيدة سويسرية إلى السفر إلى بلادها، فقد ارتأى الاستقرار في سويسرا حتى لا يتعرض للمضايقات في كل رحلة إلى مصر. وبمجرد انتهاء هذه الظروف كثرت زياراته

إلى القاهرة للمشاركة في المؤتمرات والأنشطة الفكرية، وكانت رحلاته قبل ذلك تتجه إلى تونس وسورية وإسبانيا وتركيا وغيرها، حيث تلقى مشاركاته في مؤتمراتها تقديراً يليق بعلمه وفضله.

ولد أنور لوقا في ملوى بصعيد مصر في عام ١٩٢٧، فلما وصل إلى المرحلة الجامعية قربه أستاذه طه حسين إليه، وظل هو على وفائه الدائم لهذا الأستاذ الذي اعتبره أبا روحياً له. وفي عام ١٩٥٠ سافر إلى باريس للالتحاق بجامعة السوربون ومنها نال درجة دكتوراه الدولة في الأدب المقارن وكان موضوع رسالته «الرحالة والكتاب المصريون في فرنسا في القرن التاسع عشر» وأعد رسالة تكميلية عنوانها دراسة تأصيلية لنص الطهطاوي «تخليص الإبريز في تلخيص باريز».

كما التحق في المعهد العملي للدراسات العليا في العاصمة الفرنسية. وبعودته. إلى جنيف عمل أستاذاً بمعهد الترجمة وبمعهد المكتبات وشغل منصب أستاذ اللغة العربية وآدابها في جامعة بروفانس وجامعة ليون الثانية في فرنسا.

وعند تقاعده أقامت جامعة ليون الثانية حفلاً رسمياً كبيراً لتكريمه وتوديعه وتبارى الأساتذة في التحدث عن مناقب أنور لوقا الأكاديمية والخلقية وإسهامه في تعريف الطلاب بمفاخر الأدب العربي.

أما مؤلفاته سواء باللغة الفرنسية أو العربية فمنها كتاب «بلزاك حياته وأدبه» و«كتالوج المخطوطات العربية في المكتبة العامة لجامعة جنيف» و«مراسلات جان تينيه المصرية ١٨٥٧ ـ ١٨٨٢» و«مصر في القرن التاسع عشر من واقع مراسلات القنصلية البرتغالية» و«جوانب خفية من الثورة العرابية: سلطان أفندي» و«ربع قرن مع رفاعة الطهطاوي» و«إدريس أفندي في مصر»، و«أبو حيان التوحيدي وشهرزاد»، و«حوت لابروييير» و«قصص من الريف والمدينة» لدوديه، و«تقاليد الفروسية عند العرب» الذي ترجمه عن واصف بطرس غالي باشا، والترجمة الفرنسية لكتاب «الفتنة الكبرى» لطه حسين، وكتاب «المعلم يعقوب» عدا عشرات من البحوث والدراسات باللغتين العربية والفرنسية من أبرزها دراسته المعنونة بـ«ظلال على الأدب العربي في العالم»

التي قدمها إلى مؤتمر المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة. وله فضلاً عن ذلك كتاب «من بونابرت إلى طه حسين» ومساهمات في «موسوعة من تراث القبط» التي صدرت في القاهرة.

وكان أنور لوقا أخبرني أنه عاكف على كتابة سيرته الذاتية وذكرياته عمن عرفهم وعمل معهم في حياته، ولكن المرض داهمه فحال دون إتمام هذا المشروع.

ومما يذكر أن معهد العالم العربي في باريس أصدر عدداً خاصاً من نشرته «العالم العربي في البحث العلمي» لأنور لوقا فيه سجل حافل بجلائل الأعمال الأكاديمية التي أنجزها هذا العالم الكبير في أكثر من أربعين عاماً من العمل الجاد في الدراسات العلمية والتدريس الجامعي.

رابح لطفي جمعة

توفي في الثامن والعشرين من أغسطس ٢٠٠٣ رجل القانون والأدب رابح لطفي جمعة عن عمر أربى على السبعين عاماً. ومع أنه من جيراني، إلا أنني لم أعرفه إلا في تونس عندما شاركنا في مؤتمر أدبي وقلت له يومها: إنك مقصر في حق أبيك العلامة الكبير محمد لطفي جمعة، فكيف لم تنشر سيرته أو تهتم بآثاره؟ فقال: أما سيرته فقد نشرتها في سلسلة الأعلام وسأوافيك بنسخة منها عند عودتي إلى القاهرة، وهو وعد وفى به. أما آثاره المخطوطة فهي محفوظة عندي كلها وأنا حريص على إخراجها بعدما أفرغ من تنسيقها وإعدادها للنشر. ولم يلبث أن أهداني كتابه الأول من تراث أبيه بعنوان «محمد لطفي جمعة وهؤلاء الأعلام» وهو كتاب يكشف عن خفايا الحياة الأدبية من واقع مئات من الرسائل تبادلها لطفي جمعة مع كثيرين من أعلام عصره.

وتواصلت بعد ذلك مؤلفات لطفي جمعة منشورة بعناية ابنه رابح، ومنها كتب في التاريخ والدين والسير والأدب الروائي والمأثورات الشعبية ومترجمات، وكذلك المذكرات الشخصية له. فإن عرفنا أن رابح نشر كل هذا

التراث على نفقته الخاصة، وأنه لم يودع الدنيا إلا بعد إخراج كل آثار محمد لطفي جمعة، أكبرنا في رابح هذا الوفاء العظيم لا لأبيه فقط بل للفكر والثقافة عامة.

وكان آخر ما أخرجه رابح لطفي جمعة من مؤلفاته الشخصية ديوان «لذكراك» وهو صفحة من الوفاء العميق لزوجته التي رحلت قبله بعام وهو رحيل زلزل زوجها حسب تعبيره، ولهذا أخذ يعلل نفسه بقرب اللقاء وألا تطول وحدته على الأرض حيث قال:

على أمل اللقاء أعيش عمري ... أعد له الدقائق والثواني

هناك الشمل مؤتلف جميع ... ننعم بالتلاقي والتداني

فلا نخشى فراقاً أو رحيلا ... ولا نخشى فجاءات الزمان

إنه ديوان باك نظمه صاحبه بقلبه المفجوع دون أن ينهاه عن ذلك وقار الشيخوخة من ناحية وهيبة كرسي القضاء من ناحية. فقد تدرج به هذا الكرسي في سلك القضاء إلى أن أصبح نائباً لرئيس المحكمة الدستورية العليا بدرجة مستشار.

توفيت الزوجة في يناير ٢٠٠٢ وبعد أقل من عامين لحق بها رابح، وكان يتعجل الرحيل حتى قبل هذه الفترة الزمنية القصيرة.

ولرابح لطفي جمعة ديوان آخر عنوانه: «حطب الليل» أهداه إلى «توأم نفسي وروحي، إلى أخت عمري، رفيقة رحلتي في درب الحياة إلى زوجتي»، وهو ديوان يجمع بين الشعر الوطني والشعر الوجداني وشعر الطبيعة بشاعرية تتألق جمالاً وروعة، فاصغ إليه يقول في تحية القاهرة في عيدها الألفي:

قم ناج قاهرة المعز ونادها ... واستلهم الأشعار من أمجادها

واقرأ على سمع الزمان كتابها ... وانشر جمال طريفها وتليدها

وادخل إلى التاريخ في محرابه ... واسترجع الأيام من آبادها

وهي قصيدة تذكرنا بقول شوقي في كشف قبر توت عنخ آمون:

أفضى إلى ختم الزمان ففضه ... وحبا إلى التاريخ في محرابه

وطوى القرون القهقرى حتى أتى فرعون بين طعامه وشرابه

وليس على الشاعر من حرج إذا ما تأثر شعر الأولين والآخرين، فالمعاني الجميلة ترد على الخاطر بوعي من جانب الشاعر أو بغير وعي.

لقد مد الله في عمر رابح حتى أنجز رسالته في الحياة كما توخاها تماماً فمات راضياً مرضياً.





صُنَّاع المعاجم

صناعة المعاجم والموسوعات صناعة تتحدى أعتى الهمم، لأنها الصناعة التي يفترض فيها أن تخلو من أي خطأ أو سهو أو تحريف أو أوهام، أي أنها صناعة تشترط فيها الدقة المتناهية بنسبة مائة في المائة، ولا ترتضي التنازل عن هذه النسبة مهما تكن الأعذار والتعلات. ولهذا تحتشد لإعداد المعاجم والموسوعات جيوش جرارة من العلماء والباحثين والمحققين كلما رغبت مؤسسة في الغرب في تصنيف معجم أو موسوعة توقياً للكمال المطلق الذي يورث الثقة في هذا العمل.

ولأن أفحش الأخطاء هي التي تقع في المعاجم والموسوعات؛ لأنها تعد المرجع الثقة في موضوعاتها، يسترشد بها الباحث وهو مطمئن تمام الاطمئنان إلى صواب ما جاء فيها، فإن الذي ينبري لتصنيف معجم أو موسوعة يتعين فيه أن يكون حجة دامغة في مادة عمله، ولن يشفع له عند الخطأ أو السهو أنه جهد فردي أو حتى أنه جهد جماعي محصن من جميع المزالق.

على أننا عرفنا في بلادنا معاجم استقل بتصنيف مادتها فرد لا جماعة من الباحثين. وأستشهد في هذا المقام بقاموس «المنجد» الذي صنفه الأب لويس المعلوف وصدرت طبعته الأولى في عام ١٩٠٨ عن المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، وهي التي تواصل نشر طبعاته التالية.

وقد تصدى لهذا المعجم نقاد أفذاذ ترصدوا لما وقع فيه من أخطاء ونبهوا عليها، وهي أخطاء كانت كفيلة بأن تفقد هذا المعجم صفته كمسعف، لولا أن ناشريه بادروا باستدراكها إقراراً منهم بصحتها.

وكان في طليعة من تصدوا لهذا المعجم العلامة الأردني روكس بن زائد

العزيزي الذي نشر نقده في مجلة «الإخاء» التي كان يصدرها في القاهرة سليم قبعين في عام ١٩٢٩.

وكان لهذا النقد صدى واسع لدى العلماء في عصره، مثل العلامة أحمد زكي باشا شيخ العروبة في مصر، والعلامة الأب أنستاس ماري الكرملي في العراق، والأديب ميخائيل نعيمة في المهجر وأيضاً في دوائر الاستشراق في الغرب.

كما تناول هذا المعجم بالنقد العلامة السوري الأمير مصطفى الشهابي حيث نشر بحثاً مطولاً في «مجلة المجمع العلمي العربي» التي كان يصدرها مجمع دمشق عنوانه: «نظرة في المنجد» نبه فيه ـ حسب قوله ـ على هنات عثر عليها أثناء مراجعته لأسماء بعض المواليد من نبات وحيوان وجماد، وذلك رغبة منه في أن يزيل أصحاب المعجم كل شائبة، سواء اهتدوا إليها بأنفسهم أو هداهم إليها غيرهم، والأمير الشهابي متخصص في علوم الزراعة والحيوان والجماد.

كان معجم «المنجد» في طبعاته الأولى يقتصر على المواد اللغوية، ولكن ألحق به فيما بعد معجم للأعلام من صنع الأب فرديناند توتل، فتصدى لهذا الملحق علامة الأردن الشيخ إبراهيم القطان، فأصدر كتاباً يقع في ٦٦٥ صفحة عنوانه: «عثرات المنجد في الأدب والعلوم والأعلام» نشره بمقدمة للعلامة محمد العدناني صاحب «معجم الأخطاء الشائعة».. وتناول القطان في مقدمته قضية النقد باعتبارها موضوعاً شائكاً ومرتقى صعباً، ولكنه شديد الأهمية وضروري لأنه يبحث عن الحقيقة ويرد الأمور إلى مواضعها.

وفي مصر، تصدى الأديب محمد عبد الغني حسن لمعجم الأعلام، فرصد في بحثٍ له جملة من الأخطاء التي وردت فيه، ورد بعضها إلى الترجمة؛ لأن المؤلف فرديناند توتل ترجم قسطاً كبيراً من مادته عن اللغة الفرنسية.

ومع أن المصنف الأصلي للمعجم هو الأب لويس المعلوف، فقد نبه الأمير مصطفى الشهابي إلى أن معجم الأعلام أغفل معلوفاً آخر هو العلامة

الدكتور أمين المعلوف باشا فهو ـ بتعبير الأمير الشهابي ـ «من أعلم علماء العرب بالمصطلحات العلمية. ولو لم يكن له إلا معجم الحيوان والمعجم الفلكي لكفاه ذلك فخراً لاسمه».

تقبل ناشرو «المنجد» هذه الملاحظات بصدر رحب واستدركوها في الطبعات التالية ورائدهم أن يبرأ المعجم من اي عيب ويصبح بحق مرجعاً موثوقاً به يعتد بمادته.

المعجم الوسيط

وعندما أصدر مجمع اللغة العربية في مصر الطبعة الأولى من «المعجم الوسيط» بجزئيه بإشراف إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار، أبديت ملاحظات جوهرية على بعض مواد المعجم كان أبرزها صنيع الدكتور عدنان الخطيب الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق، حيث نشر سلسلة من التعليقات في مجلة المجمع ثم جمعها في كتاب عنوانه «المعجم العربي ونظرات في المعجم الوسيط» صدر عن مجمع دمشق في عام ١٩٦٧.

وفي عرضه لهذه الملاحظات أثبت الدكتور الخطيب أنه كتبها «.. تلبية لرغبة اللجنة المشرفة على المعجم، غير مدعٍ بأني أحطت بجميع ما حواه المعجم من مواد، ولكني تصفحته ورجعت إليه في مسائل كثيرة، فإذا بي أقع على أمور تسترعي الانتباه، فسجلت ما استوقف نظري منها لعل في تداركها فائدة في طبعة المعجم الوسيط التالية».

وقال: «لا شك أن اللجنة الموقرة استعانت بالمعاجم المعروفة، فنقلت عن بعضها، وكان بعض ما نقلته يحتاج إلى إعادة النظر فيه». وقد وقعت ملاحظات عدنان الخطيب في ٢٤٥ صفحة، مما يدل على الجهد العلمي الذي بذله لتصويب ما اعتقد أنه يحتاج إلى تصويب.

وكان طبيعياً أن يجتهد مجمع القاهرة في تلافي الهنات التي وقعت في الطبعة الأولى من «المعجم الوسيط» فعهد إلى لجنة أخرى من أعضائه قوامها

الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور عبد الحليم منتصر وعطية الصوالحي ومحمد خلف الله أحمد في الإشراف على الطبعة الثانية، وهؤلاء سجلوا في مقدمتهم «أن مادة المعجم كانت ـ من حيث الكم ـ مفترقاً لأذواق الدارسين والنقاد وجمهرتهم، ممن عز عليهم أن يجدوا فيه كل ما أرادوا من لفظ أو ضبط أو تعبير». كما سجل رئيس المجمع الدكتور إبراهيم مدكور في مقدمته قوله: «في وسعنا أن نقرر أنه استقام لمجمعنا منهج في التأليف المعجمي يتمشّى مع طبيعة اللغة العربية ويحقق ما ننشد من تيسير ووضوح، فهي لغة اشتقاقية تقوم على أسر من الكلمات، وليس من الملائم أن نفرق شمل هذه الأسر وأن نوزع أفرادها بين جنبات المعجم لا لشيء اللهم إلا محاكاة لترتيب أبجدي صرف يلائم بعض اللغات الأخرى».

أما الطبعة الثالثة من «المعجم الوسيط» فقد أشرف عليها عبد السلام هارون وعلي النجدي ناصف والدكتور أحمد الحوفي ومحمد شوقي أمين والدكتور محمود حافظ (الرئيس الحالي للمجمع) وهؤلاء ـ كما يقول الدكتور إبراهيم مدكور في مقدمته ـ «توخوا بدقة التعريفات العلمية ووضوح العبارة وسلامة الأسلوب».

وصفوة القول، إن المسؤولين عن «المعجم الوسيط» استفادوا من الملاحظات التي أبديت على طبعاته السابقة وتداركوا كل ما نبه عليه النقاد من نقاط.

صاحب القاموس العصري

وما دمت في معرض الحديث عن صناع المعاجم، فإنني أعود بالذاكرة إلى عام ١٩٥١ عندما كنت أعمل بجريدة «المقطم» اليومية المسائية رئيساً لقسم الترجمة لا يفارقني فيه «القاموس العصري»، كما كنت مكلفاً من صاحب الجريدة الدكتور فارس نمر باشا بأن أكتب مقالات الصدر الافتتاحية اليومية.

كان «القاموس العصري» وقتها القاموس الوحيد من نوعه، وإن كان

هناك قاموس آخر نشره في المهجر خليل سعادة ولكنه لم يكن قريب المنال، كما أن قاموس «المورد» لصديقنا العلامة منير البعلبكي لم يكن قد صدر بعد.

وإذ كنت عاكفاً على عملي، لمحت بباب غرفتي صديقي العلامة سلامة موسى وهو يتأبط حزمة ضخمة لم يلبث أن وضعها على مكتبي قائلاً: إنها هدية من إلياس أنطون إلياس قوامها طبعتان جديدتان من معجميه الإنجليزي/العربي وكذلك العربي/الإنجليزي. يا لها من مفاجأة سارة غير متوقعة، فسألت سلامة موسى: هل وصلت شهرتي البازغة إلى هذا الرجل الضخم؟ فكلفك بحمل هذه الهدية الثمينة إليّ؟ فقال: إن المبادرة جاءت من صاحب المعجم لا منّي، وهو رجل جم التواضع غزير العلم يعرف أقدار الناس، ولولا أنه أنس من كتاباتك الجدية والصدق، لما فكر في السعي إليك بقواميسه.

وكان طبيعياً أن أهرع إلى زيارة إلياس أنطون إلياس في مطبعته بشارع الخليج المصري لشكره على هديته والاقتراب من هذه الشخصية التي كم أسعفتني قواميسها في عملي اليومي: وحرصت في لقاءاتي المتكررة على أن أسأله: كيف طرأت عليه فكرة العمل المعجمي، وما هي المشاق التي صادفها في تصنيف المعجم.. فأكد لي أنه منذ شبابه الباكر وهو مشغول بإعداد قوائم بالألفاظ التي يترجمها عن القواميس الإنجليزية، وأيضاً عن الكتب الأجنبية، وإنه كان يحرص على اقتناء الكتب المترجمة لكي يراجع مادتها على الكتب الفرنجية الأصلية، وأنه كان يدون ملاحظاته على هوامش القواميس الإنجليزية إلى أن اعتقد أن لديه محصولاً من المادة المعجمية يصلح قاموساً، فقرر أن يصدر الطبعة الأولى من «القاموس العصري» في صفحات معدودة كيما يهديه إلى الباحثين ويسترشد بملاحظاتهم عليه. ولم تكد هذه الطبعة تصدر حتى تناولها إلياس أنطون إلياس بالتنقيح والتصويب والإضافة، وهو ما ظل يواصله في جميع الطبعات التالية. وكان يحرص في كل طبعة جديدة على إثبات عدد الألفاظ التي أضيفت إلى القاموس كيما يزداد نمواً ونضجاً في كل طبعة جديدة.

بل قال لي: إنه كان يحرص قبل النوم على أن يضع إلى جواره وريقة

وقلما تحسباً لأي طارىء يوافيه في الرقاد، فيصحو على الفور ويقوم بتسجيله وينتفع به في عمله المعجمي.

وفي الوقت عينه قام شقيقه متري إلياس بإصدار قاموس مواز باللغة الفرنسية، في حين قام باحث صيني بإصدار قاموس عربي/صيني بعد تجريد القاموس العصري من الألفاظ الإنجليزية واستبدال الصينية بها.

هذا، وقد قرأت في عدد قديم من مجلة «الهلال» يعود إلى عام ١٩١٤ خبراً عن صدور معجم إلياس أفندي أنطون إلياس وأن الكلمات الإنكليزية فيه صححها المستر بيكويك وراجع الترجمة المستر إدوارد وانديك كما راجع عربيته أحد أئمة اللغة، وكان ثمن القاموس ٣٠ قرشاً مع أن عدد صفحاته ٤٥٠ صفحة وكانت أجرة إرساله بالبريد ٣ قروش.

وفي إحدى زياراتي لإلياس أنطون إلياس أهداني «مجموعة المصطلحات العلمية والفنية»، التي أقرها مجمع فؤاد الأول للغة العربية في الدورات الست الأولى، وقد طبعت في المطبعة الأميرية ببولاق في عام ١٩٤٢، وقام إلياس بمراجعة جميع مواد هذه المجموعة من الألفاظ منقحاً ومصوباً كثيراً منها ومسجلاً في وريقات بخط يده ملاحظاته واستدراكاته على هذه الألفاظ. ولعله كان الأحجى أن يهدي هذا الكتاب بكل ما ورد فيه من ملاحظات إلى المجمع كيما يستهدي به في عمله، ولعل مانعه من ذلك أنه لم يكن عضواً منتخباً في المجمع مع أن عمله في المعاجم كان يشفع له في الفوز بهذه العضوية.

وأقول في الختام إن صناع المعاجم يكادون يكونون «سوبر مان» لأن عملهم هو الأشق والأصعب بين مؤلفي الكتب بكل ألوان طيفها.



كلام مرسل عن السِّيرة الذاتيَّة

هل يتعين على كل أديب أو شاعر أو مفكر أن يسجل سيرته الذاتية بقلمه وفي حياته لتكون شهادة على عصره والظروف التي مر بها، عساها تكون نبراساً يهتدي به الآتون بعده إن اكتشفوا في هذه السيرة ما يستلهم أو يستعاد؟ هذا سؤال متروكة الإجابة عليه لذوي الشأن من حملة الأقلام، فمنهم من يستهويه هذا الفن الأدبي فيسجل سيرته الذاتية، ومنهم من يعرض عنه لاعتبارت يرتئيها، حتى وإن افتقد الآتون سيرة أديب معين وتمنوا لو أنه سجلها بنفسه كيما تلقى أضواء كاشفة على حياته وآرائه وعلاقاته بمعاصريه.

وعندما يقرر كاتب تسجيل سيرته الذاتية، فمعنى ذلك ضمناً أنه قد بلغ - في ظنه واعتقاده - مرتبة الأوج، وأن الناس متلهفة على معرفة الطريق الذي سلكه حتى وصل إلى القمة. وهذا القرار هو في حد ذاته اعتداد شديد بالنفس لا يخلو من نرجسية، وهو قرار لا بد أن كثيرين من كبار الكتاب قد تهيبوا اتخاذه، بدليل أنهم لم يتركوا وراءهم سيراً منشورة بأقلامهم. والقائمة طويلة للذين خلت آثارهم من سيرة ذاتية، وهي تضم أسماء من طبقة أحمد شوقي وخليل مطران وحافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعي، وإبراهيم عبد القادر المازني (وإن كانت رواياته مستوحاة من حياته) وأحمد حسن الزيات ومحمد فريد أبو حديد وإبراهيم المصري وعلي أدهم وفؤاد صروف وعبد الرحمن صدقي وجرجي زيدان ومحمود محمد شاكر وسواهم.

تحديات

وعندما يشرع الكاتب في الحديث عن نفسه، فهو يواجه تحديات تتمثل في مقدار ما في كتابته من عيار الصدق، ومقدار ما في عنصر «الأنا» من

تضخم، ومقدار الجرأة على الإفصاح عن الجوانب العاطفية في حياته، ومقدار ما في حياته من كبوات. وربما وجد نفسه مسوقاً إلى الحديث عن معاصريه ومقارنة نفسه بهم وإبداء رأيه فيهم سلباً أو إيجاباً.

وفي الأغلب الأعم، يعتمد الكاتب على الذاكرة في تسجيل سيرته الذاتية، والذاكرة خؤون حتى وإن تعلقت بصميم حياته، ومزالقها كثيرة. وربما استدقت حدة الذاكرة إذا كان الكاتب قد عوَّد نفسه منذ خروجه إلى دنيا الملأ العام على أن يدون مذكرات يومية تعينه على مغالبة داء النسيان في المستقبل. أو لعل الكاتب يجد في ثنايا مقالاته القديمة المنشورة وقائع يستند إليها في استذكار الماضي. والمؤكد في جميع الحالات أن الكاتب، إذ يجعل من نفسه محوراً لموضوعه، يمارس عملية انتقاء واستصفاء، بمعنى أن ينتقى من أحداث عمره ما يراه خليقاً بالتسجيل مسقطاً ما عداه مما قد يشينه، وأن يستصفي من كدور أيامه ما يضيف بهاءً إلى صورته في أعين القارئين، حتى وإن افتقرت صورته إلى هذا البهاء.

رواد

ولعل من الفائدة التذكير بفضل الرواد الأوائل الذين انبروا لتسجيل سيرهم الذاتية لأنهم رأوا في مسيرة حياتهم من الدروس والعبر ما قد ينفع الناس، ومن ثم أقدموا على تسجيلها بأنفسهم وبأقلامهم لعل التاريخ يعفيهم بعد ذلك من التزوير والاجتراء وسوء الظن، ويكاد كل منهم يقول: هذه هي صفحتي وتاريخي الصحيح فصدقوني وحاسبوني على ما جاء فيه ولا تعتدوا بما قد يقوله الآخرون عني في قابل الأيام.

ومن الذين شرعوا أقلامهم لكتابة سيرهم الذاتية طه حسين (في الأجزاء الثلاثة من كتاب «الأيام») وميخائيل نعيمة في كتابه ذي الأجزاء الثلاثة بعنوان «سبعون»، وعباس محمود العقاد في كتابيه «أنا» و«حياة قلم» وأيضاً في كتابه «في بيتي»، وسلامة موسى في كتابه «تربية سلامة موسى»، وأحمد أمين في كتابه «حياتي»، وتوفيق الحكيم في كتابه «سجن العمر»، ويحيى حقي في كتابه

«كناسة الدكان»، والشاعر اللبناني بولس سلامة في كتابه «حكاية عمر»، والشاعر المهجري إلياس فرحات في كتابه «ذكرياتي بين صباح الحياة ومسائها»، وزكي نجيب محمود في كتابه «قصة عقل»، ولويس عوض في كتابه «أوراق العمر»، وعبد الحميد جودة السحار في كتابه «هذه حياتي» وهو يمثل المرحلة المبكرة من عمره وحدها، والمؤرخ عبد الرحمن الرافعي في كتابه «المذكرات»، ولطيفة الزيات في كتابها «حملة تفتيش وأوراق شخصية»، وسيد قطب في كتابه «طفل من القرية»، والشاعرة جليلة رضا في كتابها «صفحات من حياتي»، والشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان في كتابيها «حياة جبلية حياة صعبة» و«الحياة الأصعب»، ولعل هناك أدباء آخرين سجلوا سير حياتهم ولكن بديهة الذاكرة خانتهم.

ومن الأحياء الذين سجلوا سيرهم الذاتية الشاعرة الأردنية الدكتورة ثريا ملحس في كتابها «أراقيم على مقابر الكون»، وأيضاً الدكتور محمود الربيعي في كتابه «في الخمسين عرفت طريقي».

تعرية

ولئن كان لويس عوض سلك مسلك أدباء الغرب في تعرية حياته وحياة أسرته، فقد أثار بذلك حفيظة المقربين منه في أسرته، لأنه تحدث عنهم بصراحة جارحة، ربما لكي يصور نفسه بعد ذلك بأنه العبقري الوحيد في هذه الأسرة الصعيدية، أي أنه فلتة.

وكنت سألت الدكتور فارس نمر باشا مؤسس مجلة «المقتطف» وجريدة «المقطم» وهو يقترب من سن الخامسة والتسعين: لِمَ لم يدون سيرة حياته ومذكراته، فقال لي: إن الرجل العام الذي يعمل في الحياة العامة الأدبية والسياسية يرى الدنيا بمنظاره الخاص، في حين يراها غيره بمناظيرهم المختلفة. فإذا ما سجل الوقائع التي عرفها أو عاصرها أو ساهم فيها من منظوره الخاص، تصدى له الآخرون بتسجيل روايات مغايرة كل المغايرة، بل لعلهم يكذبون تاريخه المسطور بقلمه. ولهذا استصوب الدكتور نمر ـ كما كنا

نخاطبه مسقطين لقب «باشا» ـ أن يدفن سيرته وذكرياته معه لأنه لن يستطيع من قبره ملاحقة مناوئيه.

وإذا كان كاتب عراقي هو ذو النون أيوب قد سجل في ثمانية أجزاء مغامراته كدون جوان في الداخل وفي الخارج، فقلة نادرة من المؤلفين هي التي جرؤت على تسجيل أمثال هذه المغامرات الدونجوانية في حياتهم.

وثمة أسلوب آخر لتدوين السيرة الذاتية من خلال فن أدبي مارسه صاحبها مثل كتابي «أنا والشعر» و«أنا والنثر» للمجمعي السوري شفيق جبري، و«حياتي في الشعر» لصلاح عبد الصبور، و«فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية» لعلي أحمد باكثير، و«فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية» لمصطفى عبد اللطيف السحرتي، و«القصة من خلال تجاربي الذاتية» لعبد الحميد جودة السحار.

الاستحقاق

وقد سئلت غير مرة لِمَ لا تدون سيرتك الذاتية؟ فقلت للسائلين: إن حياتي الذاتية ليس فيها ما يستحق التسجيل لكوني عشت بعيداً عن صخب الحياة وضجيجها. أما سيرتي الأدبية فقد اندست في ثنايا أحاديثي عن الأعلام الذين عاصرتهم وهي منشورة في كتاب ذي جزءين وبه صفيت حسابي مع الدنيا الأدبية.

على أن نجيب محفوظ طلع علينا بعد فوزه بجائزة نوبل ببدعة أسماها «أصداء السيرة الذاتية». وأقول ـ استناداً إلى ذوقي الخاص مع صداقتي العتيقة لنجيب محفوظ ـ إن هذا الكلام المرسل ليس له أي صلة بالسيرة الذاتية في شكلها وموضوعها، وإنما هي خواطر تداعت في مخيلة الكاتب، ولا يخلو كثير منها من عقم المعنى وغموضه وسقمه. ولعل سيرة نجيب محفوظ التي تستخلص من ثنايا رواياته هي الأصدق والأقرب إلى هذا الفن: فن السيرة الذاتية.

مما وعته الذاكرة

كيف ساهم الدكتور الأهواني في حملة التعريب في الجزائر

الدكتور أحمد فؤاد الأهواني (١٩٠٨ ـ ١٩٧٠) من أساتذة الفلسفة المعدودين ومن المتخصصين في الفلسفة الإسلامية، وله عشرات من المؤلفات والمترجمات تشهد له بطول الباع في هذا الميدان. وقد عمل أستاذاً للفلسفة في جامعة القاهرة سنوات طويلة، وانتدب للتدريس ولإلقاء محاضرات في عدد من البلدان العربية وفي الولايات المتحدة، وكان إلى ذلك نبيلاً في الخلق عف اللسان يتسم سلوكه بالمثالية ويعامل طلابه وزملاءه بإنسانية أصيلة. وكان من حسن حظي أن جاورني في السكنى قبل أن ينتقل من حي مصر الجديدة إلى حي المعادي.

هذه المؤهلات الرفيعة أهلته لاختياره بشخصه وبالاسم للعمل في إحدى الجامعات العربية ضمن مشروع التعريب الواسع الذي كانت تضطلع به الدولة هناك، فرحب الدكتور الأهواني بهذا العرض، وعده من أسباب التقدير العظيم لشخصه، فلا يجوز له رفضه. وحزم أمره، وسافر إلى العاصمة العربية التي استدعته، ونزل في أحد فنادقها.

ولم يكن مسموحاً وقتها لمن يغادرون مصر أن يحملوا معهم أكثر مما يعادل خمسة جنيهات مصرية، ولهذا طلب من المسؤولين في الجامعة عند وصوله أن يدفعوا له مبلغاً تحت الحساب يواجه به مصروفات الإقامة في الفندق والنثريات الضرورية. ولكنه فوجىء برفض هذا الطلب بحجة أنه لم يعين بعد، فلا يحق له أن يطلب أموالًا تحت الحساب. فقال للمسؤولين: ها أنا أمامكم جئت إليكم بنفسي من بلادي فعينوني في الجامعة. فقيل له: لا بد

قبل تعيينك من الاطلاع على شهاداتك الجامعية موثقة بالطريق الدبلوماسي الرسمي، فهذا هو نظامنا. فقال لهم: ولم لم تطلبوا هذه الشهادات عندما تم اختياري بالاسم وبناء على تاريخي الطويل المعروف، ولو طلبتموها قبل سفري من القاهرة لكان من اليسير تجهيزها إلى جانب جواز السفر وتصريح العمل وتأشيره الدخول. فقيل له: هذا هو نظامنا، ولن تعين إلا بعد استيفاء الشروط المقررة، ولا سبيل إلى تجاوزها أو التهاون فيها.

وإزاء هذا، أبرق الدكتور الأهواني إلى زوجته في القاهرة لكي تجهز الشهادات المطلوبة وتقوم بتوثيقها بالطريق الدبلوماسي وموافاته بها.

وفي هذه الأثناء كان الدكتور الأهواني يتلقى من إدارة الفندق الفواتير الخاصة بإقامته، وهو يمهلها ريثما يشرع في تسلم راتبه. وللمرء أن يتصور الحالة النفسية السيئة التي استولت على الدكتور الأهواني، فهو يعاني من الغربة المريرة، ومن البطالة بسبب تأخر قرار تعيينه، ومن مطالبات الفندق، ومن المعاملة غير الكريمة التي لقيها من الذين استدعوه. وما كان لشخصية شديدة الحساسية كالدكتور الأهواني أن تحتمل كل هذا العناء، ففاجأته وهو في الفندق نوبة قلبية قضت عليه، وقامت إدارة الجامعة بنقل جثمانه إلى ثلاجة وإخطار زوجته بوفاته، وصعقت الزوجة المكلومة، وعبثاً حاولت الحصول على تأشيرة للسفر إلى العاصمة العربية لاستصحاب جثمان زوجها، وظلت خمسة عشر يوماً تتردد على السفارة العربية وعلى وزارة الخارجية وتبعث بعشرات من البرقيات دون طائل، وأخيراً شحن الجثمان إلى القاهرة، فوصل ومعه فواتير الفندق التي لم تسدد.

وهكذا ساهم الدكتور العظيم أحمد فؤاد الأهواني في حملة التعريب!

الحساء المملوكي الأخضر

عندما أسندت رياسة هيئة الإصلاح الزراعي إلى المهندس سيد مرعي استعان بالصحفي محمد صبيح (١٩١٠ - ١٩٨٣) ليتولى إدارة العلاقات العامة في الهيئة ويشرف على مطبوعاتها ونشراتها بما له من خبرة طويلة في الصحافة

والتأليف. ومن أسف أن محمد صبيح صاحب التاريخ الطويل في العمل في الصحافة وإصدار عشرات من الكتب هو اليوم من مظاليم الصحافة فلا يذكره أحد ولا تسعى إليه أسباب التكريم في أعياد الصحافة والإعلام.

وذات يوم اتصل بي محمد صبيح قائلاً: إن وفداً من طلاب الجامعات الأميركية يزور مصر للتعرف على أوجه الحياة المختلفة فيها، وإنه ارتأى دعوة الوفد لتناول طعام الغداء في قصر تم الاستيلاء عليه وكان مملوكاً في المرج لإحدى أميرات البيت المالك، ورجاني أن أقف معه في الترحيب بهذا الوفد لأن أعوانه في الإصلاح الزراعي لا يجيدون اللغة الإنجليزية. ولما قلت له - لمحمد صبيح - إنني لا أعرف المكان ولا الطريق الذي يسلك للوصول إليه قال: إنه سيدبر لي وسيلة مواصلات تنقلني إلى هناك. فلبيت دعوته وذهبت إلى القصر. حيث ألفيت مائدة ممتدة عامرة بصنوف وأشكال من الأطعمة المصرية، ابتداءً بالحمام المحشو إلى ورق العنب والكرنب المحشو إلى الأرز بالخلطة وقد وقع علي عبء تفسير الأصناف.

وانتشر الطلاب والطالبات حول الخوان، وكل منهم يختار في صحفته ما يروق له من طعام أو ما يدعوه الفضول إلى تناوله من غرائب المأكولات المصرية. وكان مجلسي مع مجموعة من الطلاب والطالبات. وعندما غرفت الملوخية في صحاف خاصة لكل منهم تساءلوا عما يكون هذا اللون من الطعام. وهنا تدخل محمد صبيح قائلاً: إن اسم هذا الطعام بالعربية هو «الملوخية» وهو تحريف لكلمة «الملوكية» أي أن الترجمة الصحيحة لاسم الملوخية هي «الحساء الملوكي الأخضر». وتذوق الطلاب هذا الحساء متلذذين به بفضل التقلية.

ولكن طالبة خبيثة خاطبت محمد صبيح قائلة: لقد طردتم الملك، ومع ذلك تتمسكون بهذا الحساء الملوكي؟ فرد عليها صبيح قائلاً: صحيح ما تقولين، ولكن الشعب انتزع حقه من الملوك وجعل هذا الحساء شعبياً!

الوزير والثعبان

كان من عادتي أثناء عملي في الصحافة أن أراجع صحف الصباح الصادرة باللغتين الإنجليزية والفرنسية عسى أن أقع في أي منها على خبر فات الصحف العربية أن تنشره أو أن أصادف تعليقاً يستحق الرد عليه. وذات صباح فتحت جريدة الجوربال ديجبت على صفحة باللغة الفرنسية فقرأت فيها خبراً طريفاً مؤداه أن موظفي قسم الأرشيف بوزارة المالية اكتشفوا أن بين الأوراق ثعباناً؛ ففزعوا أشد الفزع، وأغلقوا الغرفة، ورفضوا أن يزاولوا عملهم إلى أن يزول هذا الخطر. فاستعانت الوزارة برفاعي من سكان أبي رواش الذي جاء ومعه آلات العزف والطبل، واستطاع أن يسحر الثعبان فخرج من مكمنه وقبض عليه، وتنفس الموظفون الصعداء. ونظراً لأن الصحف العربية لم تشر إلى هذا الخبر، فقد ترجمته وعلقت عليه تعليقاً ساخراً في الجريدة التي كنت أعمل بها واخترت له عنواناً «ثعبان في وزارة المالية». واتفق قبيل ذلك أن كان هناك تعديل وزاري عين فيه المحامي عبد الرحمن البيلي وزيراً للمالية فظن الذين قرأوا عنوان «ثعبان في وزارة المالية» بمن فيهم الوزير نفسه أنني أقصده بالذات! ولكن مطالعة الموضوع بددت هذا الوهم.

الشاعر إبراهيم ناجي والزوزوات!

الذين أرخوا للشاعر الدكتور إبراهيم ناجي، ولا سيما صالح جودت، وزعموا أن بطلة ملحمة الأطلال هي واحدة من ثلاث ممثلات يحملن اسم زوزو، وهن: زوزو ماضي، وزوزو نبيل، وزوزو الحكيم، وظنوا أنهم كشفوا بذلك عن سر أدبي.

ولكن الشاعر حسن توفيق لدى نشر المجموعة الكاملة لشعر ناجي وأتبعها بأعماله النثرية الكاملة أكد أن بطلة الأطلال هي عنايات محمود الطويّر .... وكانت جارة لناجي في حي شبرا الذي كان يقيم فيه في شبابه، وكانت هي حبه الأول، إلا أن قيام أسرتها بتزويجها من شخص آخر حطم قلب ناجي فتفجرت شاعريته بملحمة «الأطلال».

وقد اكتشف الشاعر حسن توفيق لإبراهيم ناجي مقالاً قديماً نشر في مجلة «الاستديو» في عام ١٩٤٨ بعنوان: «ثلاث زوزوات عرفتهن» أعاد إثبات نصه في كتابه «الأعمال النثرية الكاملة لإبراهيم ناجي».

ونظراً لطرافة هذا المقال ننقل منه آراء ناجي في الزوزوات.

فقد قال عن زوزو ماضي: «عرفتها، وهي أديبة صافية لم تشُبها السينما بشائبة، ولم ترنق حياتها أكدار الشاشة، عرفتها وهي تستوحي البحر وتنظم فيه شعراً، قالت زوزو تناجي البحر:

عرفتك والمصيف عليك زاه كقرن الشمس يضطرم اضطراباً
عرفتك والشتاء يمد ظلاً وينشر في جوانبك القتاما

هل تذكر هذا الشعر الآن فنانة السينما، وهل تعاوده، وهل تحن إليه. إنها تحب كل شيء أزرق حتى رسائلها».

وقال ناجي عن زوزو نبيل: «عرفت زوزو وهي في مستهل جمالها وعنفوان رونقها، عرفتها قبل أن تقبض عليها الإذاعة، فتمرمط هذا الرونق في تمثلياتها وتقضي على إشراقها الفخم في كواليس شارع علوي».

أما زوزو الحكيم فقال عنها ناجي: «هي الأخرى أديبة صافية، عرفتها قبل أن تنزلق إلى الشاشة، عرفتها وهي تكتب مذكراتها عن أدباء مصر جميعاً وقرأت لها أجمل فصل قرأته في حياتي عن زكي مبارك. عرفتها وهي تجاهد في تعلم الفرنسية وتناضل لتتعلم الإنجليزية وتقاتل لتكون أول فتاة مثقفة في مصر. فلما جرفتها السينما انتهت إلى «عفريت مراتي» فسكن العفريت بيتها، ومن يدري هل دب إلى قلبها.

مسكينة زوزو، إنها تحمل دماغاً رهيباً وقلباً رقيقاً طيباً».

* * *

فهل يستنتج القارىء من هذه الأوصاف أن الشاعر ناجي كان متيماً بواحدة من الزوزوات؟ ولا بأس أن أذكر أني شاهدت زوزو ماضي على شاشة التليفزيون تعترف بأنها هي بطلة الأطلال».

رحم الله الشاعر وكل بطلاته!

الشاعر أبو الوفا
يرثي سيد قطب

كان الشاعر محمود أبو الوفا صديقاً حميماً للناقد الأدبي سيد قطب وبحكم هذه الصداقة كان سيد قطب يبعث من السجن برسائل إلى أبي الوفا أطلعني عليها بنفسه.

وعندما توفي سيد قطب في ظروفه المأساوية، لم يستطع أبو الوفا أن يكتم حزنه عليه،فرثاه بقصيدة نشرها في ديوانه المجموع تحت عنوان: «سيد» حتى لا تمتد إليها يد الرقيب، قال فيها:

يا سيداً كان عندي	أعز من أصطفيه
يا طاهر الطرفين	من أمه لأبيه
يا أبعد الناس خلقاً	عن كل فعل كريه
أخي، ومن منك أولى	بكل وصف نزيه
وما ذكرنا عظيماً	إلا رأيناك فيه

وختمها بقوله:

وما بكى أي عصر	إلا أعز بنيه

وقد صرح لي الشاعر قبل وفاته في ٢٧ يناير ١٩٧٩ بأن أميط اللثام عن فحوى هذه القصيدة كي يعرف الناس أن هناك من يستطيع أن يعبر عن مشاعره في لحظة الألم العظيم، فلا يكتم شهادة ارتأى أنها شهادة حق في صديق مأزوم.

الشاعر عبد الرحمن شكري
يكتب بيسراه

عندما أصيب الشاعر عبد الرحمن شكري (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨) بفالج في النصف الأيمن من جسمه، عود نفسه على الكتابة بيسراه، وبهذه اليد كتب ٣٢ مقالاً بتوقيع ع.ش لأنه كان قد اعتزل الحياة العامة، ونشرها في مجلة

«المقتطف» بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥١ بعنوان: «نظرات في النفس والحياة» تناول فيها قضايا الفكر في الأدبين العربي والغربي.. وقد أوصانا بأن نحتفظ باسمه سراً فلا نفشي للقراء أنه كاتب هذه المقالات.

هذا وقد اضطلع الدكتور محمد رجب البيومي بنشر هذه السلسلة من المقالات بإذن خاص من عبد الرحمٰن اليشكري.





عقدة نوبل النفسية

أول عهدي بجائزة نوبل هو موضوع قرأته في إحدى الصحف وأنا ما زلت في المرحلة الثانوية من الدراسة فحواه أن هناك هيئة في النرويج تمنح جوائز سخية للسلام، وذيل الموضوع بعنوان هذه الهيئة في أوسلو عاصمة النرويج. فأقدمت بسذاجتي البريئة وبدافع من الفضول على توجيه رسالة إلى عنوان هذه الهيئة طالباً موافاتي بشروط منح الجائزة ومستفسراً عما إذا كان شخص مثلي مؤهلاً للحصول على جائزة السلام النوبلية! وبرجوع البريد تلقيت رسالة مهذبة من مقر الهيئة في أوسلو فحواها أن اختيار الفائزين بالجائزة يخضع لشروط صارمة، وإذا انطبقت هذه الشروط على أي شخص في أي مكان في العالم، فإن الجائزة تسعى إليه من تلقاء نفسها.

وازدهاني الغرور بتسلمي لهذه الرسالة، ولم أقطع الأمل في إمكان الحصول على الجائزة ذات يوم بحكم أنني رجل مسالم ولا يضمر شراً لأحد!

وصرت بعد ذلك أتابع ما تنشره الصحف سنوياً من أخبار نوبل والفائزين بهذه الجائزة. فعرفت أن جوائز السلام تمنح من مقر الهيئة في أوسلو بالنرويج، في حين تمنح جوائز الأدب والعلوم من مقر الهيئة في استكهولم عاصمة السويد. وكانت الصحف تشير إشارة عابرة إلى الفائزين بالجوائز إذا ما كانوا على شهرة متواضعة، في حين كانت تتوسع في النشر إذا كان الفائزون من ذوي الشهرة العريضة مثل برنارد شو وباسترناك، ولا سيما إذا اقترن منح الجائزة برفض من جانب الفائزين.

أما فيما يتعلق بجائزة الأدب النوبلية، فما أكثر ما كنا نقرأ بأقلام الكاتبين عبارات مثل: طه حسين أكبر من جائزة نوبل أو أن توفيق الحكيم

استوى على مرتبة عالمية تؤهله للفوز بالجائزة. أو أن العقاد يستحق الجائزة بجدارة. أو أن محمود تيمور هو الذي سيظفر بالجائزة. ولكن جميع هذه الكتابات كانت «للاستهلاك المحلي» كما يقول رجال السياسة، فلم تقترب الجائزة من أي من هؤلاء، ولا منحت قبل نجيب محفوظ أو بعده لأي كاتب عربي.

وقد نجحت الهيئة المشرفة على منح جوائز نوبل في إحكام السرية المطلقة على جميع أعمالها، بحيث لا يتسرب شيء منها إلى الرأي العام من خلال وسائط الإعلام المختلفة إلى أن يعلن قرارها، وهو عادة قرار مع سبب يوضح لِمَ منحت الجائزة لمن فاز بها، وذلك رغبة في إقناع الرأي العام العالمي بأن اختيارات الهيئة اختيارات صائبة ولا تنطوي على أي اعتبارات خاصة. ومع ذلك لم تنج الهيئة المشرفة على جوائز نوبل من الاتهام بأنها تميل مع الهوى، وبأن لها ميولاً سياسية أو عقائدية، وبأن جوائزها ليست سليمة مائة في المائة.

وإمعاناً في التكتم، فإن هيئة نوبل تبادر إلى الإعلان عن فوز أديب أو عالم بهذه الجائزة بتكليف سفير السويد في البلد الذي يقيم فيه الفائز بالتوجه فوراً إلى داره وإبلاغه الخبر بنفسه في نفس اللحظة التي يتم فيها الإعلان سواء في استكهولم أو في أوسلو.

وعندما أعلن عن فوز نجيب محفوظ بالجائزة «أغار» الصحفيون على منزله وكل منهم يحاول أن يظفر منه بتصريح خاص يطيره في أنحاء العالم. وعلى وجه التحديد سئل نجيب محفوظ هل أنت مطلع على الأدب السويدي - على اعتبار أن جائزته سويدية. فكان رده الفوري: نعم، فقد قرأت للأديب السويدي «أوجست سترندبرج» مسرحيته المعنونة «الأب». ولكنه لم يشر إلى اسم مترجم هذه المسرحية الذي كان أول من قدم أدب «سترنديرج» إلى القارىء العربي «وهو كاتب هذه السطور». وكنت عرفت نجيب محفوظ في عام ١٩٤٣ في لجنة النشر للجامعيين مع زملائه المؤسسين لهذه اللجنة وهم عبد الحميد جودة السحار وعادل كامل وعلي أحمد باكثير وتبادلنا الهدايا من

مؤلفات كل منهم، وكانت مسرحية «الأب» التي نشرتها هذه اللجنة ضمن هذه الهدايا المتبادلة.

ولا بأس من التذكير بما جرى عندما أعلن عن فوز نجيب محفوظ بالنوبلية. فقد تعالت الصيحات وقتها من جانب «غريمه» يوسف إدريس الذي قال: إن نجيباً خطف الجائزة منه، لأنه كان قد سافر بنفسه إلى استكهولم وتحقق من أنه هو وحده المرشح للجائزة. ولما استيقن من أن الجائزة «طارت منه» أخذ يسوق تعليلات سياسية وعقائدية قائلاً: إن هذه الاعتبارات هي التي رجحت كفة نجيب محفوظ مع أنه لم يكن مرشحاً للجائزة أصلاً.

وطبيعي أن هذا الكلام هو من قبيل دفاع الخاسر عن خسرانه، لأن الجائزة فاجأت الجميع بمن فيهم نجيب محفوظ نفسه. وما كان في وسع إدريس أو سواه أن يدس بأنفه في الأعمال السرية للجنة المانحة بسبب أسلوب التكتم الشديد الذي فرضته على أعمالها.

ومنذ ما فاز نجيب محفوظ بالجائزة، انفتحت شهية الأدباء العرب في كل مكان للحصول على هذه الجائزة، ولا سيما لأن قيمتها المالية تصل إلى مليون دولار! فإذا كانت ترجمة كتب نجيب محفوظ إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والأوروبية عموماً هي التي سلطت عليه الأضواء ففاز بالجائزة، إذن فليسع كل أديب حتى تحفى قدماه لكي يرى آثاره مترجمة إلى لغات الغرب. وإذا كان نجيب محفوظ قد ركز في رواياته على الحارة المصرية والمقاهي الشعبية، فليكتبوا عن الحواري والأزقة ولينتشروا في المقاهي مثله. وإذا كان لنجيب محفوظ حواريون من الحرافيش، فلتكن لهم «شلل» من «المتحرفشين». وكلما سمعوا أن مستشرقاً هبط القاهرة أحاطوه إحاطة السوار بالمعصم لإقناعه بترجمة آثارهم إلى لغات الصين واليابان وهولندا وإسبانيا وسواها حتى تكون أعمالهم تحت باصرة هيئة نوبل، ومن يدري فقد يكتب لهم الفوز المؤزر، وتصبح الملايين طوع يمناهم.

وهكذا تحولت جائزة نوبل إلى ما يشبه العقدة النفسية، يطمع فيها الأدباء العرب المقيمون في أوروبا، ومن تفرنسوا وتنجلزوا واعوجت ألسنتهم.

أما الطامعون فيها المقيمون في الوطن العربي من الأدباء والأديبات أيضاً، فقائمة أسمائهم أطول من ليالي الشتاء. فإن خاب أملهم، فالاتهامات جاهزة يصبونها على الجائزة وأصحابها ولا يسلم منها حتى الذين فازوا بها.

ومنذ فوز نجيب محفوظ بالنوبلية، ذهبت الجائزة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولكنها لم تتوقف عند أي عاصمة عربية حتى الآن، وإن كان محمد سلماوي رئيس اتحاد الكتاب المصريين والأمين العام لاتحاد الكتاب العرب يأمل في أن تكون لترشيحاته معجزة، فيتكرر فوز عربي بالجائزة، حتى لا تصبح جائزة نجيب جائزة يتيمة في كل تاريخ الأدب العربي.

وقد سئل الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري عن رأيه في جائزة نوبل، فقال: أنا أكبر من نوبل، ولكن فلوس نوبل تساعدني على تدبير أمور شيخوختي! ولولا التواضع والزهد لقلت بدوري ما قاله، وفيه كل العزاء لمن خالفتهم حظوظ نوبل!





حديث عن لغة الضَّاد

لغات العالم تكاد في تعددها تزيد حتى على عدد دول العالم، لأن هناك دولاً مثل الهند فيها مئات من اللهجات التي لا تقع في نطاق حصر. وهناك سويسرا التي تعترف بأربع لغات رسمية هي الفرنسية والألمانية والإيطالية ولغة الرومانش. وهناك كندا التي تعترف باللغتين الفرنسية والإنجليزية لغتين رسميتين لها. كما أن هناك لغات اندثرت، أو على الأصح، أصبحت تراثية مثل اللاتينية واليونانية القديمة والتركية القديمة.

ويعزى اختلاف اللغات تاريخياً إلى برج بابل الذي حاول بناته الارتفاع به حتى يصل إلى السماء، ولكن الله «بلبل» ألسنتهم فتعذر عليهم التفاهم في عملية البناء. وهكذا انقسم اللسان الواحد إلى عشرات من الألسنة.

وعندما قامت الأمم المتحدة استقر مؤسسوها على اتخاذ اللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والروسية والصينية لغات رسمية لها، ولكن نظراً لأن الدول العربية أصبحت تمثل عدداً كبيراً من أعضاء الهيئة، فقد وافقت على جعل اللغة العربية لغة رسمية سادسة.

صحيح أن الأمم المتحدة لم تضف إلى هذه اللغات الرسمية لغات حية أخرى مثل الألمانية واليونانية والهولندية، ولكنها مع ذلك سمحت لأصحاب هذه اللغات بأن يعبروا عن آرائهم في اجتماعات الهيئة ومنظماتها بلغاتهم الأم، ولكن من خلال مترجَم أو نصٍّ جرت ترجمته إلى لغات الأمم المتحدة الرسمية.

ولأن اللغة هي سبيل التفاهم بين الأمم، فقد جرت محاولة لاستحداث لغة عالمية تحل محل جميع اللغات المتداولة، وأطلق عليها اسم «الإسبرانتو». ولكن جميع دول العالم أبت أن تتنازل عن لغاتها القومية ولو

بتبني هذه اللغة العالمية التي تيسر التفاهم بين شعوب الدنيا كما كان يأمل الداعون لها.

وطبيعي أن تستمسك كل أمة بلغتها القومية كتابة ونطقاً. ولكن تركيا في عهد كمال أتاتورك قامت بتغيير الحروف العربية للغة التركية واستبدلت بها الحروف اللاتينية، وترتب على ذلك أن انقطعت تركيا تماماً عن تراثها التاريخي، وأصبحت اللغة التركية القديمة من اللغات الميتة.

وقد جرت في مصر محاولة مماثلة للمحاولة التركية، عندما تقدم عبد العزيز فهمي باشا إلى مجمع اللغة العربية بمشروع لكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية أسوة بما فعله أتاتورك في تركيا.

ولكن المجمع وقف وقفة صارمة أمام هذا المشروع وأجمع على رفضه من أساسه على اعتبار أنه يهيل التراب على كل تراث اللغة العربية، ولم يبال بأن مقدم المشروع هو شيخ القضاة.

على أن هذا المشروع لم يؤيده ـ ولكن من خارج المجمع ـ إلا سلامة موسى.

وكانت منظمة اليونسكو قد أجرت حصراً للغات الأجنبية التي ترجمت لها كتب عربية فاكتشفت أن هناك أربعين لغة قد ترجم إليها ولو كتاب عربي واحد.

ومع تعدد اللغات في العالم صار التفاهم بين المتكلمين بها يحتاج في حالات كثيرة إلى مترجم. بل إن المسؤولين في الدول المختلفة يفضلون دائماً التحدث بلغتهم القومية مع إجادتهم للغة أخرى أثناء محادثاتهم الرسمية مع أندادهم، تاركين للمترجم أن ينقل كلامهم إلى الطرف الآخر.

وقد تكون الترجمة الأدبية بين اللغات ميسورة إذا ما تشابهت الأسس الحضارية بينها، ولم تكن هناك فوارق غليظة بين هذه الأسس، ولكن التصدي للترجمة العلمية أو المتخصصة يتعين فيه مراعاة الدقة الحرفية، سواء من حيث الإلمام بالمصطلحات الخاصة بكل علم أو من حيث مراعاة الدقة المطلوبة،

ولا سيما عند ترجمة المعاهدات أو المواثيق أو العقود القانونية أو النصوص الرسمية.

ولعل عقبة المصطلحات العلمية هي العقبة الكؤود أمام كل من يحاول التصدي لنص علمي حتى وإن كان من المشتغلين به، وهي عقبة واجهت المترجم الأول في مصر وهو رفاعة رافع الطهطاوي ولكنه تغلب عليها بصياغاته الأدبية لا العلمية. صحيح أن هناك عشرات من معاجم المصطلحات صدرت في البلدان العربية من سنوات بعيدة، ولعل من أقدمها «معجم الحيوان» للفريق أمين المعلوف باشا، ولكن الحاجة الماسة إلى هذه المعاجم شجعت أفراداً وأيضاً مجامع على تصنيف معاجم للمصطلحات العلمية يستعان بها في الترجمات العلمية. بل إن في لبنان داراً للنشر هي دار لبنان تخصصت في إخراج معاجم المصطلحات والموسوعات إخراجاً علمياً دقيقاً. ولكن الملاحظ أن معاجم المصطلحات لا تتفق على مصطلح واحد مجمع عليه يتم تداوله في جميع البلدان العربية. ومن ذلك مثلاً أن جهاز الكمبيوتر يترجم في مجمع باعتباره «الحاسب الآلي» وفي آخر باعتباره «الحاسوب» مع شيوع الاسم الفرنجي له وهو الكمبيوتر، والتليفون المحمول يعرف في بعض المجامع بـ «الخليوي» وفي غيرها بـ «الجوال». أما التليفون العادي فهو «الهاتف» وكان يطلق عليه من قبل اسم «الإرزيز».

وفي سبيل توحيد المصطلحات، ولو في علم واحد مثل علم النفس، جرى الدكتور يوسف مراد أستاذ علم النفس ورائد جماعة علم النفس التكاملي، على مطالبة جميع أعضاء الجماعة وطلابه باستخدام المصطلحات السائغة التي استنبطها مع إثبات مسرد بهذه المصطلحات في ذيل كل كتاب ينشرونه تعميماً لها في التداول العام.

وكنت سألت صديقي العلامة الأمير مصطفى الشهابي رئيس مجمع دمشق عن الأسلوب الذي ترسَّمه في إعداد معجميه الكبيرين عن الزراعة والحراج. فقال لي: إنه شرع ابتداءً في جمع المفردات الخاصة بالفلاحة والحيوان والنبات من الكتب التي ألفها قدامى العرب، ثم غربلها واستخرج منها جميع

أسماء النبات والحيوان والمواليد التي عرفها العرب. ثم عكف على معاجم الضاد اللغوية واستخلص من ألفاظها كل ما جاء في باب الزراعة والنبات والحيوان؛ حتى إذا ما استوت لديه المادة العربية الأصيلة التي صحت لغة واستعمالاً وجرت على الألسنة العربية، قام بعملية المؤانسة والمجانسة بين هذه الألفاظ العربية وبين مقابلاتها باللغتين الفرنسية واللاتينية. ثم اجتهد بعد ذلك في ترجمة المصطلحات التي لم تعرض لقدامى العلماء لأنهم لم يعيشوا في القطبين الشمالي والجنوبي أو في الأدغال أو في فيافي آسيا والأمريكتين، وكلها ألفاظ اجتهد في ترجمتها ترجمة سائغة مع حرصه على التعريف بكل نبت أو حيوان مما لم تعرفه العرب قديماً وربما حديثاً.

ولأنني أمارس الترجمة أحياناً، وأراني مضطراً إلى استخدام عشرات من المعاجم العلمية، فكثيراً ما يعييني الاهتداء إلى مصطلح جديد لم يرد في ثنايا المعجم الخاص بمادته، وهو ما يدعوني إلى المطالبة بإجراء مراجعة دورية لجميع المعاجم العلمية كيما تضاف إليها المصطلحات الجديدة التي باتت تعد بالمئات بل بالآلاف، لأن مستحدثات العلم لا تتوقف وعجلة المصطلحات لا يكف هديرها.

وعندما كنت أعمل بالصحافة اليومية في أثناء الحرب العالمية الثانية، فوجئنا بالقنبلة الذرية تلقى على هيروشيما ونجازاكي في اليابان. وانهالت علينا البرقيات الصحفية تصف هذه القنبلة الماحقة، وكيف أنها تعتمد على شطر نواة الذرة. وهناك ما يسمى بالماء الثقيل وبالبلوتونيوم المخصب...، إلى آخر هذه المعلومات الطارئة على القارىء العربي. ولكنني لم أجد مشقة في ترجمة هذه البرقيات، لا بسبب «شطارتي» بل لأن أستاذي العالم فؤاد صروف كان ينشر في مجلة «المقتطف» مقالات عن شطر نواة الذرة والقوى المدمرة التي تنطلق من هذه العملية. وكنت أقرأ هذه المقالات بشيء من الاستخفاف، ولكن جاء هول الحرب مصدقاً لـ «نبوءات» صروف ومعيناً لي على شرح أخبار القنبلة الذرية لقرائي.

وإذا كانت الصحافة هي أول من يستقبل الفتوحات العلمية الجديدة،

توافيها من مستحدثات الحياة الهادرة بالتكنولوجيات، فهي ترتجل أحياناً مصطلحات يعز فهمها على القارىء دون أن تحاول شرحها وتوضيح معناها مثل «الآلية» و«الحوكمة» و«التوريق» و«التعهيد» و«الاحتباس الحراري» وغيرها، وهي مصطلحات حبذا تفسيرها للقارىء العادي، ولست أستثني نفسي من القراء العاديين.

ورحم الله الشاعر حافظ إبراهيم القائل بلسان لغة الضاد:

وسعت كلام الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات؟

والضاد لغة وحضارة وعلماً وعملاً هي ألف باء العروبة ابتداءً، وهي جامعتها الكبرى انتهاءً، وكل حديث عن العروبة يجب أن يبدأ بالضاد وينتهي بها.



العاكفون على شعر شوقي

لم يُقدّر للشاعر أحمد شوقي الملقّب بـ «أمير الشعراء» أن يطبع جميع أجزاء ديوانه الذي اختار له اسم «الشوقيات» في حياته التي فاضت روحه منها في عام ١٩٣٢، وقنع بطبع جزء واحد من «الشوقيات»، ثم أعاد طباعته بتقسيمه إلى جزئين، وغادر الدنيا وبقية شعره في ذمّة ولديه. وقد أخبرني الشاعر محمود أبو الوفا أن شوقي أوصى ولديه بأن يعهدا في الإشراف على طباعة أجزاء «الشوقيات» الباقية إلى أبي الوفا نفسه. وكانت بين شوقي وأبي الوفا جفوة بدّدها شوقي بأن أقام حفلاً لتكريم أبي الوفا وحيّاه بقصيدة كان ممّا جاء فيها قوله:

البلبل الغرد الذي هزّ الربى   وشجى الغصون وحرّك الأوراقا
سبّاق غايات البيان جرى بلا ساقٍ   فكيف إذا استردّ الساقا
لو يطعم الطب الصناع بيانه   أو لو يسيغ لما يقول مذاقا
غالى بقيمته فلم يصنع له   إلا الجناح محلّقا خفّاقا

وهو يشير في هذه الأبيات إلى ساق أبي الوفا التي بُترت في يفاعته.

وتحقيقاً لوصية شوقي، اضطلع أبو الوفا بالإشراف على الجزء الثاني من «الشوقيات»، غير أن الأديب محمد سعيد العريان ـ وكان له نفوذ لدى المطبعة ـ انتزع من أبي الوفا هذا التكليف، وأشرف على الأجزاء التالية من «الشوقيات» فاكتملت أجزاء الديوان في أربعة أجزاء.

واستقرّ في الأفهام أن هذه الأجزاء الأربعة من «الشوقيات» تضم كل شعر شوقي ـ عدا طبعاً مسرحياته الشعرية ـ فلا زيادة لمستزيد ولا مجال لأي استدراك.

ولكن د. محمد صبري الملقب بالسوربوني فاجأ المجتمع الأدبي بكتاب

كبير ذي جزءين يقع في ٧٠٠ صفحة بعنوان «الشوقيات المجهولة»، وأشار في بيان افتتاحي إلى أنه «وجد لشوقي أكثر من مائة وثلاثين قصيدة أو حوالي ٤٠٠٠ بيت من الشعر، وذلك بخلاف حوالي ١٠٠٠ بيت من المقطوعات والأدبيات المتفرقة، وبخلاف حوالي ستين مقالة أو قطعة نثرية، وكل هذا لم يسبق نشره في دواوين شوقي ومؤلفاته التي طبعت في حياته وبعد مماته. كل هذا التراث بعدما أفرغت أسرته كل ما في جرابها ونشرته.. ولولا أن الله قد وفقنا في العثور على هذا الكنز لظل جزء كبير من شعر شوقي دفيناً إلى الأبد، خصوصاً أن الكثير من قصائده ومقطوعاته كان ينشر في الصحف بلا إمضاء، أو بإمضاء مستعار. وقد كشفنا عن هذا الشعر الأخير المستتر، كما كشفنا عن الشعر الذي كان مطوياً في بطون الصحف والمجلات القديمة. إننا لا ندّعي العصمة في كل ما نسبناه لشوقي من شعر مجهول النسب، ولكن في استطاعتنا أن نؤكد، إذا كان هناك خطأ، أن نسبة الخطأ لا تتجاوز قصائد أو مقطوعات معدودة».

ثم جاء د. أحمد الحوفي وتناول بدوره شعر شوقي في كتاب ضخم ذي جزءين يقع في نحو ١٣٧٠ صفحة، واختار له عنوان: «ديوان شوقي.. توثيق وتبويب وشرح وتعقيب»، اعتقاداً من د. الحوفي بأن شعر شوقي لم ينشر نشراً علمياً، وأن «الشوقيات» في حاجة ماسّة إلى رعاية جديدة لتعرضه عرضاً يتلاءم ومكانة شوقي، عرضاً يُعنى بتقسيمه وترتيبه وتنسيقه وتكملته وضبط كثير من مفرداته، وشرح كثير من كلماته، وتصويب ما ورد بالشرح السابق في الطبعة الثانية، والتعقيب على بعض الكلمات والأبيات.

والحقيقة أن د. الحوفي بذل في خدمة شعر شوقي جهداً عنيفاً سواء لضبط نصوصه أو لتيسير مهمة الباحثين. فقد ذيّل كل قصيدة بتاريخ نشرها للمرة الأولى، وأوضح مناسبتها، وعرّف بالأعلام الواردة فيها أو الأماكن المشار إليها في أبياتها، كما شرح معاني الألفاظ فرادى، والمعنى المراد من كل بيت على حدة، هذا إلى جانب ما اصطنعه من فهارس مسهبة حسب موضوعات القصائد ومظانها اللغوية، وأنشأ فهارس للأعلام والأجناس والطوائف والقبائل والأماكن والقوافي.

وبفضل هذا العمل الباذخ الذي اضطلع به د. الحوفي صار في وسع الباحث أن يقع على ضالته في لحظة، وحسبه أن يعرف كلمة واحدة وردت في قصيدة لشوقي لكي يهتدي إلى القصيدة فوراً وبلا عناء.

مجزرة الشوقيات:

وتعرض «الشوقيات» في طبعاته التالية «المجزرة»، فحذفت قصائد بأسرها، أو تم اقتضابها وحذفت أبيات منها لأنها تناولت رموز عهد باتوا يسمّونه بالعهد البائد البغيض ـ وما هو كذلك! ـ، فخرجت «الشوقيات» مشوّهة لا تمثل صاحبها ولا ما توخاه من نظمها. وقد قام د. مصطفى الرفاعي ـ وهو طبيب ـ بإحصاء عدد الأبيات التي تعرضت لهذه «المجزرة» فإذا هي ٦٠١ من الأبيات، قام بردّها جميعاً إلى مواضعها في طبعة أصدرها بعنوان «الشوقيات الصحيحة» أي «الشوقيات» كما أراد لها صاحبها أحمد شوقي وليس كما أراد لها الرقباء.

ولم يسلم شعر شوقي من التزييف على يدي مزيّف محترف اسمه الشاعر محمد مصطفى حمام. كانت جماعة أبولو قد انتخبت الشاعر أحمد شوقي رئيساً لها، فدعا أعضاء مجلس الإدارة إلى كرمة ابن هانىء احتفاء بهم، ووجه إلى جماعة أبولو بإشراف رائدها د. أحمد زكي أبي شادي قصيدة مطلعها:

أبولو مرحباً بك يا أبولو   فإنك من عكاظ الشعر ظل

وبعد يومين اثنين من هذا اللقاء في كرمة ابن هانىء فاضت روح شوقي إلى بارئها، وخرج علينا الشاعر مصطفى حمام زاعماً أن أمير الشعراء استدعاه قبيل وفاته وقال له: إنه نادم على الحفاوة بجماعة أبولو، وعلى القصيدة التي وجهها إليها، ثم أملى عليه قصيدة ناقض فيها كل ما جاء في تحيته لأبولو مطلعها ـ حسب زعم حمام ـ:

أبولو ضلّة لك يا أبولو   فإنك من بقايا اللؤم ظل!

وهذه القصيدة المدسوسة على شوقي لم ترد لا في «الشوقيات» ولا في «الشوقيات المجهولة» ولا في «ديوان شوقي» ولا في «الشوقيات الصحيحة» لأن زيفها واضح ولا يحتاج إلى برهان... (مجلة العربي، (٦٢٩)، نيسان ٢٠١١).

لوديع فلسطين الحق...
في رفض إطلاق اسمه على شارع في تونس

• عبرت لصديق تونس القديم الكاتب المصري الكبير الأستاذ وديع فلسطين عن أملي في أن أرى أحد شوارعنا.. يحمل اسمه تقديراً له واعترافاً بالجميل نحوه لما أسداه من خير لبلادنا ولزعمائها في سنوات الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي.

حول هذا الموضوع، وصلتني من الأستاذ وديع فلسطين رسالة، يقول فيها:

«أضحكني قولك أنك تتمنى أن ترى اسمي مرفوعاً على أحد شوارع تونس وذلك لاعتبارين، أولهما أن صديقنا الأعز الحبيب شيبوب كان قد أبدى هذه الرغبة عندما طلبت البلدية منه ترشيح بعض الأسماء، وعندما عرفت ذلك منه رجوته أن يسحب ترشيحه، ومن حسن الحظ أن البلدية نفسها لم تر هذا الاقتراح وجيهاً. وثانيهما أن محافظة القاهرة أطلقت اسم أديبنا الكبير عباس محمود العقاد على بوليفار عريض في حي مدينة نصر ولم تطلقه على الشارع الذي كان يقيم فيه. وكان هذا البوليفار مجرد طريق فسيح في منطقة غير مأهولة. فتبارى أصحاب الأعمال في بناء ناطحات سحاب على جانبيه، وجاء التجار فأقاموا محلات فخمة تضارع الشانزليزيه حتى اكتظ الشارع على الجانبين بمتاجر من جميع الأشكال والألوان. وباتت المتاجر تعلن عن نفسها في الصحف: فهذا محل لأحذية عباس محمود العقاد، وذلك قصاب عباس محمود العقاد. وهناك كباريه عباس محمود العقاد، ومطعم عباس محمود العقاد، وبيتزا عباس محمود العقاد، ولحوم عباس محمود العقاد.. إلى آخره! وهكذا تحول هذا الكاتب الكبير إلى سلع تجارية تبدأ بالأحذية، وتعرج على اللحوم وتنتهي بالملاهي!.

ولعلك تشفق على اسمي من مصير كهذا المصير!».

كتاب «مصر المستقلة»
سيرة ذاتية لأمين يوسف بك

عملت بين عامي ١٩٤٥ و١٩٥٢ محرراً في جريدة «المقطم» المسائية اليومية التي عمرت ٦٤ عاماً. ولئن كان عملي الأساسي هو رياسة قسم الترجمة فلم نكن نعرف في ذلك الوقت التخصص الذي يلزم الصحفي بأن يقتصر على مهمة واحدة فقط، ولهذا ألفيت نفسي المحرر الدبلوماسي والاقتصادي والأدبي وأيضاً محرر الشؤون العربية إلى جانب كتابة مقالات الصدر اليومية كافتتاحية للجريدة.

وإذ كنت عاكفاً على مزاولة عملي في مكتبي، زارني ذات يوم ضيف لم أعرفه من قبل وهو محمد أمين يوسف بك، وإن كنت أعرف أنه والد الصحفيين الكبيرين مصطفى وعلي أمين. وبعدما قام بتعريف نفسه إلي قال: يبدو أنك الآن مشغول ولن أحاول أن أعطلك عن عملك، ولكن هل تقبل دعوتي إلى منزلي بعد ظهر هذا اليوم وذلك لرغبتي في أن أخصك بحديث عن أمور البلاد؟ فقبلت دعوته. وفي الموعد المحدد توجهت إلى داره التي وصفها لي، وهي فيلا تقع على ناصية شارع الإخشيد وشارع الروضة في جزيرة الروضة بالقرب من كوبري عباس.

ووجدت أمين يوسف بك في انتظاري، حيث أجلسني في صالون منزله بينما كان هو واقفاً يذرع الحجرة جيئة وذهاباً وهو يشير إلى مقعد إلى اليمين قائلاً: هنا كان يجلس الزعيم سعد زغلول باشا، وإلى مقعد إلى اليسار قائلاً: هنا كان يجلس الزعيم مصطفى النحاس باشا، وإلى مقعد ثالث قائلاً: هنا كان يجلس عدلي يكن باشا، وإلى مقعد في الوسط قائلاً: هنا كان يجلس

واصف غالي باشا، وهكذا. فقلت له: لقد أجلستني في محراب التاريخ، فأين أنا من هؤلاء؟

لا أذكر على وجه التحديد ما الذي أملاه عليّ أمين يوسف بك وهو يذرع الغرفة طولاً وعرضاً، فقد سجلته وقتها ونشرته في الجريدة دون أن أحتفظ بصور منه. ولكن ما زلت أذكر على وجه التحديد ما قاله لي عن السنوات العجاف التي مرت بمصر في عشرينيات القرن الماضي، فاستطاع أمين يوسف بك أن ينقذ مصر منها، تماماً كما أن سميه يوسف الصديق أنقذ مصر في سنواتها العجاف في العصر الفرعوني، حتى أن أمير الشعراء أحمد شوقي نظم قصيدة حيًا فيها أمين يوسف بك وقال عنه: إنه خليفة يوسف الصديق بعدما أبلى بلاء حسناً في إنقاذ مصر من المجاعة. ومع أن أمين بك أسمعني هذه الأبيات من حافظته، قد بحثت عنها في «الشوقيات» وفي «الشوقيات المجهولة» دون أن أعثر عليها.

وقد أصدر أمين يوسف بك كتاباً باللغة الإنجليزية نشره في لندن عنوانه «مصر المستقلة» فرغ من تأليفه في يناير ١٩٤٠ وصدر والحرب العالمية الثانية ما زالت دائرة. والكتاب يضم سيرته الذاتية من خلال تاريخ مصر الذي عاصره. وكتب مقدمته الصحفي البريطاني الشهير ويكهام ستيد الذي وصف «معجزة» أمين يوسف بك في إنقاذ مصر من المجاعة بقوله: «آخذاً بنظرية مساعدة الذات استطاع أمين بك أن يوفر لمصر سبعة ملايين جنيه استرليني في عامين من خلال قروض صغيرة حصل عليها من بعض الأصدقاء لإنشاء ٢٦ جميعة تعاونية في الدلتا وصعيد مصر تمكنت من مساعدة ٣٤٣,٠٠٠ أسرة فقيرة، وبلغ إجمالي رأسمالها نصف مليون جنيه استرليني».

ويقول أمين يوسف بك إنه وإن لم يكن على صلة طيبة برئيس الوزراء إسماعيل صدقي باشا بسبب مصاهرته للزعيم سعد زغلول باشا، فقد ارتضى أن يضطلع بهذه المهمة بتكليف من صدقي باشا. واستطاع بفضل هذه الجمعيات التعاونية أن يحقق لمصر خلاصاً من سنواتها العجاف في وقت لم تكن هذه التعاونيات معروفة في مصر.

والسيرة الذاتية لأمين يوسف بك - الذي شغل عدة مناصب في الدولة، سواء في مرفق السكة الحديد أو في النشاط التجاري كسفير تجاري غير رسمي متجول في أوروبا أو كوزير مفوض لمصر في واشنطن - تعتبر تكملة للتاريخ المصري، لأن دوره في صنعه يكاد يكون مجهولاً ولم يتناوله أي من المؤرخين المعاصرين. بل إن كتابه «مصر المستقلة» يكاد يكون غير معروف ولم يترجم - على ما أعلم - إلى اللغة العربية.

وبالإضافة إلى الأحداث التاريخية التي رواها أمين يوسف بك، وكان شاهداً عليها، فقد أبى أن يختتم سيرته الذاتية دون أن يسجل أحلامه الخاصة لمصر التي تمنى تحقيقها على يدي الزعيم سعد زغلول باشا فيما لو امتد به العمر، وهي أحلام تبدأ بالنهوض بالزراعة في وادي النيل؛ لأن الفلاحين كانوا في ذلك الوقت يمثلون الأغلبية الساحقة من السكان، وهي زراعة تهدف إلى إنتاج المحاصيل الزراعية بأسعار رخيصة، وزراعة من شأنها النهوض بالقطن والاستعانة بخبراء من أمريكا وإنجلترا في هذا الشأن.

الأحلام التي خطرت لأمين يوسف بك في أربعينيات القرن الماضي ما زالت تصلح لأيامنا الحاضرة كمبادىء عامة

وهو يحلم بأن تنتشر الجمعيات التعاونية في ربوع مصر لتخلص السكان من نفوذ المرابين وتحقق انخفاضاً في أسعار السلع الأساسية. كما أنه يحلم بأن يتوسع رجال الأعمال في استخدام العمالة المصرية عوضاً عن الأجانب مع تطوير التعليم بحيث يؤهل المصريين لهذا الغرض، فيصبح المصري «مواطناً صالحاً» واعياً لمسؤولياته الاجتماعية وعلى درجة مقبولة من الخبرة.

وهو يحلم بأن يتلقى الطلاب في مدارسهم معلومات تاريخية عن المدينة أو الإقليم الذي يعيشون فيه.

ولأن السياح في ذلك الوقت كانوا يتنقلون بالسكة الحديد والبواخر، فقد عمل أثناء توليه مهمة إصلاح هذا المرفق على تحسين الخدمة وتخفيض تكاليف الانتقال وتسهيل استخدام وسائل النقل الأخرى.

ومن الأحلام التي راودت أمين يوسف بك أن تعمل الأحزاب السياسية على الحد من الحزازات فيما بينها وأن يفطن الحزبيون إلى أنهم منذورون لخدمة الوطن وليس لخدمة أنفسهم.

ولم ينس المؤلف في أحلامه توفير الحرية الكاملة للصحافة مع حرصها على ألا تتجاوز النقد المستنير في ملاحقة أعمال الدولة.

ولعل القارىء يلاحظ أن هذه الأحلام التي خطرت لأمين يوسف بك في أربعينيات القرن الماضي ما زالت تصلح لأيامنا الحاضرة كمبادىء عامة، لأن الأحلام تراءت له في وقت كان فيه عدد سكان مصر نحو ٢٠ مليون نسمة، وينبغي أن تضرب في خمسين ضعفاً أو أكثر بعدما تشابكت وتعقدت الأوضاع في بلد تجاوز عدد سكانه ٨٠ مليون نسمة.

كتاب «مصر المستقلة» يعتبر من المراجع التي لا يصح إغفالها عند دراسة العلاقات بين مصر وإنجلترا

وكتاب «مصر المستقلة» يتناول قضية استقلال مصر بعد عقد معاهدة عام ١٩٣٦ مع بريطانيا، ولهذا توسع المؤلف في الحديث عن العلاقات بين مصر وبريطانيا في عهود أقطاب ذلك العهد: كرومر وكتشنر واللنبي ولورد لويد وبيرسي لورين ودنلوب وغيرهم. وطبيعي أن تكون أمريكا خارج هذه الدراسة لأنها كانت تتبع مبدأ «مونرو» فتنأى بنفسها عن التورط في مشكلات الدنيا الخارجية.

وفي اعتقادي أن كتاب «مصر المستقلة» يعتبر من المراجع التي لا يصح إغفالها عند دراسة العلاقات بين مصر وإنجلترا حتى وإن تراءت هذه العلاقات من خلال السيرة الذاتية لأمين يوسف بك، وهو الذي تنبأ له الكواكبي بأنه سيكون شخصية بارزة في عصره.



عكاظية حول بط الماحي!

الشاعر محمد مصطفى الماحي (١٨٩٥ ـ ١٩٧٦) من شعراء الوسط، فهو لا ينتمي إلى جيل أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران، ولا إلى جيل جماعة أبولو. فهو وسط بين الجيلين، ولا يندرج ضمن أي مجموعة من شعراء عصره لاستقلاله عنهم جميعاً. وشعره متين السبك يطرد على سنن الخليل ويخلو من أي تجديد أو من أي شطحات تُعزى إلى التجديد.

وعندما خرج إلى الحياة العملية عيّن موظّفاً في وزارة الأوقاف، ونزح بالتالي عن مدينته دمياط الساحلية، دون أن يقطع صلته بها، بل صار يعرف بالشاعر الدمياطي، واختار لإقامته حي حدائق القبة في القاهرة في شارع اتفق أن كان اسمه «شارع البحتري» وهي مصادفة جميلة ألهمت صديقنا المشترك الخطاط الكبير سيد إبراهيم نظم أبيات قام الماحي بتعليقها في إطار في غرفة الصالون مكتوبة بالخط الرائع لسيد إبراهيم ونصها:

قلت وقد جُزنا الحدائق غدوة … وبدت لنا دار الأديب البارع
من أنبأ «التنظيم» أن البحتري … الشاعر الماحي بهذا الشارع؟
فهما وإنْ بَعُدَ الزمان تشابها … فيما أفاضا من بيان ساطع
وكلاهما بلغ النهاية رقّة … وسما الأخير بهمةٍ وتواضع

فرد عليه الماحي بقوله:

يا سيدًا في كل ما تسمو به … همم الرجال ويا سعيد الطالع
إنْ قستني بالبحتري تلطفاً … فلأنت صنو أبي العلاء الرائع

و«التنظيم» هو الجهة الإدارية التي تطلق أسماء على الشوارع. أما الخطاط سيد إبراهيم فكان من عشاق المعري وكان هو وصديقنا المشترك كامل كيلاني يكادان يحفظان ديوان المعري.

وكان من عادة الماحي أن يدعو جملة من الشعراء إلى بيته ليتقارضوا الشعر ويناقشوا قضاياه في العصاري. فإذا اقتربت الساعة من الثامنة مساء، انفض الجمع دون أن ينسيهم الشعر احتساء الشاي والتهام صنوف الكعك. ومع أنني لست من فصيلة الشعراء، فقد كان الماحي يتكرم بدعوتي إلى هذه الجلسات، ربما اعتقاداً منه بأن عدوى الشعر قد تنتقل إليّ مع أنني أكاد أكون محصّناً تحصيناً أبدياً ضد هذه العدوى!

البط الدمياطي:

وذات يوم هاتفني الماحي داعياً إياي إلى ندوته المعتادة، ولكنه استدرك قائلاً: إننا سنؤخر موعدها إلى الثامنة مساء نزولاً على ظروف الشعراء المدعوين. وفي الموعد المحدد توجهت إلى دار الماحي، حيث صادفته جالساً في الحديقة الخلفية مع جاره وصديقنا المشترك الشاعر أحمد رامي. ولم يلبث رهط الشعراء أن تواكب في الحديقة. حتى إذا ما اكتمل عددهم دعانا الماحي إلى الدخول إلى المنزل، وإن كان الشاعر رامي اعتذر لارتباطه بموعد آخر. وهكذا ألفيت نفسي وسط حشد من الشعراء يضم محمود غنيم والعوضي الوكيل وأحمد مخيمر وحسن كامل الصيرفي ومختار الوكيل وعبد السلام شهاب. وفور انتقالنا إلى الدار، فوجئنا ـ مفاجأة سارة طبعاً ـ بموائد منصوبة توزعت عليها وتنوعت صنوف الطعام الشهي وكلها من نتاج دمياط التي تشتهر بنوع من البط صغير الحجم سهل الطهي حلو المذاق خفيف على المعدة بسبب سهولة هضمه، على خلاف البط البلدي ذي الشحم والدهن (والزفارة) مع صعوبة هضمه. فها نحن أمام طعام تفننت في إعداده زوجة الماحي، فهناك البط المسلوق والمشوي والمقلي والمحشو وهناك أيضاً حساء البط.

فقلت للماحي وأنا عاكف على بطه: لقد حسبت أن دعوتك بريئة تخلو من أي رشاوي من البط وملحقاته. فقال: إنها بريئة فعلاً وأنتظر حكمك بالبراءة. ولم أفطن إلى ما قصده الماحي بهذه العبارة. ولمّا «نسفنا» موائد

البط دعانا الماحي إلى صالون بيته لنبدأ الندوة الجدية، حيث رحب بنا المضيف وقال: إنه تعرّض لحملة جائرة من صديقه الشاعر محمود غنيم الذي اتهمه بأنه على شاكلة أهل دمياط بخلاً وتقتيراً ـ حتى ولو وصفوا هذا المسلك بأنه تدبير قائلين إن المرأة المدبرة هي الأفضل بين النساء ـ وقال: إن غريمه الشاعر يتهمه بأنه يستأثر وحده بالبط الدمياطي ويحرم زملاءه الشعراء من هذه النعمة. وقال: إنه بعد سماع المرافعات الشعرية من الجانبين ينتظر الحكم البات بالبراءة وليس بالإدانة.

قصيدة حلمنتيشية:

واتفق في ذلك الوقت أن صدر ديوان الماحي المجموع في أكثر من ٧٠٠ صفحة، وكأنه من حيث الحجم يضاهي دليل تلفونات القاهرة، وهو ما استوقف الشاعر الحلمنتيشي عبد السلام شهاب فجعل منه فاتحة قصيدته الحلمنتيشية عند افتتاحه حلبة المعركة حيث قال:

ديوان الماحي الدمياطي ... سبحان الوهّاب العاطي

وانتقل إلى البط الدمياطي، وهو لبّ المعركة فقال:

ولبيت الماحي صيتٌ في ... تربية البط الزغاطي

وهي قصيدة طويلة حاكى فيها عبد السلام شهاب الشاعر الحلمنتيشي المشهور حسين شفيق المصري فأضحكنا وأمتعنا حتى باستخدامه ـ نزولاً على أحكام القافية ـ عبارات عامية مثل «الحفلاطي» و«طاطي طاطي» وأيضاً بنت الشاطي وهي من دمياط. ومن أسف أنه لم يتسن لي الحصول على نص هذه القصيدة الفريدة.

وفور أن فرغ عبد السلام شهاب من إنشاد هذه العصماء الحلمنتيشية، وقف محمود غنيم وكأنه أسد هصور أو وكيل نيابة مقدام أو قائد معركة حربية هي معركة مصر، وشن على الماحي حرباً عواناً؛ لأنه في بخله الدمياطي المشهود استأثر بالبط الدمياطي ولم يترك لشاعر ولو ريشة من جناح بطة. ولأن هذه المساجلة فريدة في الشعر، فسأنقل نصها الكامل من ديوان غنيم الذي بدأ «مرافعته» بقوله:

قد سمعنا عن بطكم ما سمعنا فأكلنا بالأُذن حتى شبعنا
غير أن الأفواه تنطق همساً: ما عرفنا لذلك البط معنى
يا أبا مصطفى عليك سلام أفيرضيك أن شبعت وجعنا؟
وسع الناس كلهم بطك الناضج دُهناً لكنه لم يسعنا
جُدْ علينا ولو بطيف جناح لا تدعنا نشكو الطوى لا تدعنا!
نحن في عهد أزمة وغلاء قد رهنّا فيه المتاع وبعنا
نحن قوم لنا العفاف شعار إن سُقينا حساء بطّ قنعنا
وإذا نالنا كريمٌ بإحسان شكرنا صنيعه وأذعنا
ونذيق البخيل هَجْواً وبيلاً مثل حدّ السلاح ضرباً وطعناً
صاح، لا عذر بعد هذا، فقل لي: قد سمعنا ما قلته وأطعنا

فرد عليه الماحي بقوله:

يا أخي، يا غنيم، رفقاً بحالي إن عبد السلام بات يغالي
لا تصدق ما قاله، يا صديقي إنه شاعر رحيب الخيال
لم يزرني ولم أزره، ولكن هاجه الشوق للطعام الغالي
كان فيما مضى يقدَّم بط ودجاج محمر في المقالي
يوم كان الزمان سهلاً رخيّاً لا يمرّ الغلاء فيه ببال
فغدا البط والدجاج - كما تعلم - ضربين من ضروب المحال
غير أني - وقد تصورت ما قال صحيحاً - أراه سهل المنال
لك عندي وللصديق شهاب أسمن البط في قريب الليالي
ولمن شئت من محبّيك طرّاً أنا والله لست بالبخّال
فاقترح يا أخي - فديتك - يوماً واختبر - إن شككت - صدق مقالي

ورأى غنيم أن دعوة الماحي مذبذبة غير صريحة فعلق عليها بقوله:

أيها الشاعر الرقيق الحال أنا لم أدرِ أن جَيْبَكَ خالي
أنت قد بت تدعي الفقر حتى كدت أُهدي إليك قوت عيالي
ما طلبنا إليك ذبح فصيل وفحلين من فحول الجمال
بل طلبنا جناح أنثى من البط إلى الله تشتكي من هزال

فعلام الأسى، وطول التشاكي ... والتباكي على الزمان الخالي؟
لست من يدعو الضيوف بقلب ... بـل بـقـولِ مـمـزق الأوصـال
لست ممن يدعو بطرفٍ قريرٍ ... بـل بـطـرفٍ ذي مـدمـعٍ سيّـال
مُـومِـئـاً نـحـو بـاب دارك ... للضيف بيمناك طارداً بالشمال
والكريم الكريم يدعو بقلب ... ثـابـتٍ ثـابـتٍ ثـبـات الـجـبـال
يـا ابـن دمـيـاط إن دمـيـاط ... إن عَدَّتْ بينها تعدّك ابن حلال
إن دمياط مهبط الشعر لكن ... هي في الحرص مضرب الأمثال
إن أنـجـالـهـا كـثـيـر ولـكـن ... أنت، يا صاح، أنجب الأنجال
بِكْـرُهـا أنـت حـكـمـة وبـيـانـاً ... وفتاها حرصاً على الأموال
صاح دعني من أكل بطك دعني ... أوثر الجوع إن عرضي غالي!

فأجاب الماحي إجابة لا تزيد عن سابقتها فتيلاً بقوله:

يا صديقي، لقد عهدناك عَدْلاً ... منصفاً في المقال والأفعال
أنا لا أشتكي ـ كما قلت ـ فقراً ... لا، ولا البخل خصلة من خصالي
فلِمَ الجور والتشكك فيما ... سُقته باكياً لرقة حالي؟
فيمَ نكرانك الغلاء وكل الناس ... يـشـكـون مـن أذى مُـغـتـال
فـإذا لـم تـحـسّـهُ فـهـنـيـئـاً ... لك ما قد جمعت من أموال
أنا عندي من القناعة كنز ... ومـن الله فـضـلُـه الـمـتـوالـي
إن دمـيـاط ذات جدٍّ وقـصـد ... لا لـحـرص ولا لـسـوء فـعـال
تضع الحق في النصاب ولا تفعل ... فـعـل الأطـفـال والـجُـهَّـال
هل أجاريك في دعابتك الحرَّى ... وأنـت الـمـداعـب الـمـتـعـالـي
لا وحسبي أني أعود إلى دعوتك ... الـيـوم صـادقـاً فـي سـؤالـي
مع من شئت من محبِّيك إني ... لا أماري ولست بالبخّالِ
فاقترح ـ يا أخي ـ فديتك يوماً ... واختبر ـ إن شككت ـ صدق مقالي

لم يقتنع الشاعر محمود غنيم بصدق الماحي، فجرّد عليه حملة شعواء لا ترحم حيث قال:

١ ـ دون الوصال

بالله، يا ذات المحيا الضاحي ... قد طال بي ليلي، وأنتِ صباحي!

قالت: أتطمع في الوصال ودونه ... قُبَلُ النجوم وأكل بط الماحي؟

٢ ـ ليلى المريضة في العراق

ويلاه! ليلى بالعراق مريضة ... قد أصبحت في عالم الأرواح!

كيف السبيل إلى الدواء، وإنما ... هو درهم من دهن بط الماحي؟

٣ ـ حامل الأوسمة

قال الصديق: لقد وصلت فزيّنوا ... صدري بألف قلادة ووشاح

فسألته: أَولِّيتَ عرشاً؟ قال: لا ... لكن لمحت خيال بط الماحي

٤ ـ مصارع الآساد

ساءلته: من أنت؟ قال: أنا الذي ... يدري الكماة المعلَمون كفاحي

صارعت آساد الشرى، فصرعتها ... لكن عجزت أمام بط الماحي

٥ ـ الفرسان الثلاثة

لو أن «هانيبال» جاء محارباً ... في ألف ألف مدجّج بسلاح

أو أن «نابليون» عاد و«هتلراً» ... لم ينجحوا في غزو بط الماحي

٦ ـ المستحيلان

لا شيء في دنياك غير متاح ... من يَسْعَ كُلِّل سعيهُ بنجاح

إلا طبيباً قام يُحيي ميّتاً ... أو طامعاً في أكل بط الماحي!

٧ ـ في زحل

لَما تكشفت النجوم وأفلحوا ... في غزوها بالعلم أي فلاح

ساءلت عن زحلٍ أفيه خلائق؟ ... قالوا: وجدنا فيه بط الماحي

٨ ـ محتضر يتمنى

شاهدت خِلّي وهو يلفظ روحه ... فسألته ما تشتهي يا صاح؟

فأجاب: أطلب من حبيبي قبلة أو قطعة من لحم بط الماحي

٩ ـ مهر الخطيبة

قال الخطيب: لقد فقدت خطيبتي وا طُول حزني بعدها ونواحي!

كيف السبيل إلى الزواج ومهرها هو ريشة من ريش بط الماحي؟

بعد هذه الهجمات التترية التي شارك فيها هانبيال ونابليون وهتلر، علق الماحي قائلاً:

يا أخي يا غنيم سامحك الله! فما كنتُ يا أخي بالشّحاح

كم قصيد دبّجته كنت فيه مثلاً في براعة اللّماح

تحسب البط نعمة الله حتى بتّ ترضى بريشة من جناح

مرة تطلب الحساء وأخرى تتغنّى بالبط في إفصاح

أتُرى: ليس في البسيطة شيء يملأ البطن غير بط الماحي؟

إن ذكرت الغلاء يوماً تشككت وبالغت في مقالة لاحي

ورفعت السياط حتى كأني جئت ذنباً فوق الرضا والسماح

كم تأتّى مستنفراً في حديث خالب للعقول والأرواح

في خيال مجنّح وبيان أين منه بلاغة الوضّاح؟

صُغتُ فيه ملاحماً وحكايات تجلّت في أجمل الأوضاح

ولقد كدت أحزن اليوم حتى أتلقى العقاب كل صباح

فهو عتَبٌ محبّب بل نكات مسكراتٌ للنفس مثل الراح

غير أني أعود ألمح ما يسفر عنه البيان من إلحاح

فسل الرحمة التي أمر الله بها، هي شيمة السُّماحِ

فاقترح يا أخي ـ فديتك ـ يوماً واختبر ـ إن شككت ـ صدق الماحي

وكانت خاتمة هذه المساجلة قول الشاعر محمود غنيم:

يقولون: ما للشعر غاض معينه وكنت تقول الشعر في البط محكما؟

فقلت لهم: قد كان جوعي ملهمي فلمّا أكلت البط لم ألق ملهما

فلا شكر للماحي إذا لم يثنّها فإن هو ثنّى كان أسخى وأكرما

وإلا فـإنـا قـائـلـون لـبـطـه: «إلى حيث ألقت رحلها أم قشعما»
وأهـون مـن هـذا الـذي لـو أنـنـي حفرت بظفري في الجنادل منجما
لـه الله بـطّـاً صـدتـه بـقـصـائـدي تكاد تصيد النجم من كبد السما!

وفي ختام هذه السهرة الشعرية، احتكم الماحي إلى الحاضرين وكله أمل في أن ينصفوه من تهمة البخل والاستئثار بالبط الدمياطي، فأجمع الحاضرون على أن التهمة باطلة فقد سقطت بعد تناول الطعام الشهي في بيت الماحي، فكانت هذه آية لا على بخله بل على كرمه وسخائه.

غير أن الشاعر غنيم اعترض على هذا الإجماع قائلاً: إن مأدبة واحدة لا تكفي، فلا بد للماحي من أن يثنّي وربما يثلث ليثبت أن الكرم سجية مستمرة وليست مجرد نزوة طارئة كالتي خبرناها.

وحتى لا يضيع صوتي في خضم هذه المجادلات الشعرية، لا سيما أن الماحي كان قد صارحني بأنه ينتظر حكمي بالبراءة، فقد وجهت إليه رسالة قلت له فيها إن حكمي الشخصي على هذه المعركة هو البراءة الناصعة الساطعة، وهل ثمة برهان على البراءة أبلغ من مأدبة البط «العصماء»؟!





سلمى الكزبري..
المستبسلة في رحاب العلم والأدب

فتنتها مي زيادة فأخذت تطارد أخبارها حتى أصدرت عنها موسوعة هي الأهم «مي زيادة مأساة النبوغ». قلت لها: لقد فتحَتْ باب الأمل أمام الذين ودعوا مرحلة الشباب بروايتها «الحب بعد الخمسين»، فقالت: إنها رواية في حب الوطن والأحفاد

لولا القلم المنصف لزميلتنا الأديبة الكبيرة صافي ناز كاظم لما عرف المعنيون بالأدب في مصر نبأ وفاة الأديبة السورية الكبيرة سلمى الحفار الكزبري التي ودعت الدنيا مساء يوم الجمعة ١١ أغسطس ٢٠٠٦ في بيتها الجبلي في بيت مري، ودفنت في مقبرة الشهداء في بيروت دون تشييع جنازتها بسبب ظروف الحرب، وكأنها اختارت يوم الهول يوم وداع، فانطبق عليها قول الشاعر أحمد شوقي في رحيل مصطفى لطفي المنفلوطي الذي توفي يوم الاعتداء على الزعيم سعد زغلول باشا فلم يمش في جنازة سلمى إلا قلة، وبتعبير شوقي:

اخترت يوم الهول يوم وداع
ونعاك في عصف الرياح الناعي
من مات في فزع القيامة لم يجد
قدماً تشيع أو حفاوة ساع

وصفت الأسرة سلمى الحفار الكزبري في نعيها المنشور بأنها «الأديبة والناشطة في أعمال الخير والخدمات الاجتماعية»، ولعلي أضيف إلى ذلك أنها كانت مشاركة فعالة في كثير من المناسبات الثقافية، وليس آخرها

المهرجان الكبير الذي أقامته في قاعة اليونسكو في بيروت في عام ١٩٩٩ برعاية رئيس الجمهورية اللبنانية العماد أميل لحود للتذكير بفضل الأديبة الكبيرة مي زيادة، وهو احتفال شارك فيه أدباء من مصر وسورية والسعودية ولبنان وأمريكا، وكان من أبرز نتائجه إقامة تمثال نصفي لمي زيادة تبرعت بنفقته النائب بهية الحريري وتم نصبه في تقاطع شارعي جبران خليل جبران ومي زيادة في العاصمة اللبنانية.

ولدت سلمى الحفار الكزبري في دمشق في أول مايو ١٩٢٣ لأب منخرط في النشاط السياسي هو لطفي الحفار الذي تولى رئاسة الوزارة السورية، وإن كان أكبر إنجازاته هو تحقيق مشروع جر مياه عين الفيجة إلى منازل السكان هناك وجعله مشروعاً وطنياً يملكه الأهالي في حين كانت الشركات الاستثمارية الأجنبية تطمع في تنفيذه وتملكه. وبلغ من إعجاب سلمى بأبيها ووفائها له أنها نشرت سيرته ومذكراته وأوراقه في كتاب ضخم يسجل مآثر هذا الوالد البار بوطنه وأسرته.

تلقت سلمى دراستها الأولى في معهد للراهبات في دمشق فأتقنت اللغة الفرنسية وساعدها والدها في إتقان اللغة العربية في حين علمت نفسها اللغة الإنجليزية وتابعت دروساً في العلوم السياسية بالمراسلة مع معهد اليسوعيين في بيروت. ولم تلبث أن أجادت اللغة الإسبانية بفضل مرافقتها لزوجها الدكتور نادر الكزبري الدبلوماسي السوري الذي عمل في تشيلي والأرجنتين في أمريكا الجنوبية وفي إسبانيا كذلك. وقد تزوجت سلمى مرتين، في المرة الأولى تزوجت في عام ١٩٤١ من محمد كرامي شقيق الزعيم اللبناني عبد الحميد كرامي وأنجبت منه ابنها الوحيد نزيه الذي تربى في اليتم لأن أباه توفي بعد عامين من الزواج. وقد أصبح نزيه كرامي اليوم محامياً مرموقاً في طرابلس الشام بعد نيله درجة الليسانس في الحقوق من جامعة القاهرة.

وفي عام ١٩٤٨ تزوجت سلمى من الدكتور نادر الكزبري وأنجبت منه ابنتين هما الدكتورة رشا الطبيبة المهاجرة في كندا «زوجة محمد بسام الخجا» وندى زوجة مالك محمصاني.

وبرغم الأعباء العائلية الثقيلة التي تزايدت على سلمى امتشقت القلم استجابة لموهبتها الأدبية المبكرة، فكان أول كتاب أصدرته هو «يوميات هالة» الذي صدر في عام ١٩٥٠، وهو مذكرات لا تخلو من سيرة ذاتية لشابة في دور المراهقة تنكرت فيه المؤلفة وراء اسم «هالة». وفي عام ١٩٧٠ أي بعد عشرين عاماً ـ أصدرت استكمالاً للسيرة الذاتية بعنوان «عنبر ورماد».

وبوصفها زوجة لرجل دبلوماسي تنقلت بين عدد من عواصم العالم مما هيأ لها فرصة ذهبية لصقل شخصيتها والاستزادة من ثقافات العالم والتوفيق الجميل بين تقاليد الشرق وطرائق الغرب. فلا اطرحت كل ما يمت إلى أصولها، ولا استغرقت في مظاهر لها عليها مآخذ كثيرة.

غير أن هذا الاغتراب الاضطراري عن الوطن لم يحل دون متابعة سلمى الحفار الكزبري لهواية الكتابة فأصدرت طائفة غير قليلة من الكتب تندرج من حيث موضوعاتها في السيرة مثل «حياة الأديبة جورج صاند» ومجموعة «نساء متفوقات» ومصنفاتها عن مي زيادة، أما في باب الأقاصيص والروايات، فقد أصدرت «حرمان» و«زوايا» و«عينان من إشبيلية» و«الغريبة» و«البرتقال المر» و«حزن الأشجار» و«الحب بعد الخمسين»، وفي الشعر نشرت ثلاثة دواوين باللغة الفرنسية هي «الوردة المنفردة» و«نفحات الأمس» و«بوح»، وباللغة الإسبانية ديوان «عشية الرحيل»، وفي باب الرسائل، نشرت مع الدكتور سهيل بشروتي كتاب «الشعلة الزرقاء» وهو مجموعة الرسائل المتبادلة بين جبران خليل جبران ومي زيادة، كما نشرت ما تلقته من رسائل الشاعر نزار قباني الذي زاملته عندما كان هو وزوجها دبلوماسيين يعملان في العاصمة الإسبانية، وفي باب المحاضرات نشرت كتابين هما «في ظلال الأندلس» و«بصمات عربية ودمشقية في الأندلس».

ومن آيات التقدير والتكريم التي حظيت بها سلمى الحفار الكزبري منحها وساماً إسبانياً رفيعاً وفوزها بجائزة البحر المتوسط من جامعة باليرمو بصقلية وحصولها على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي في عام ١٩٩٥ ـ مناصفة مع الدكتور حمدي السكوت ـ.

ومع أن مجمع اللغة العربية بدمشق هو الذي رشح سلمى الحفار الكزبري لنيل جائزة الملك فيصل فإن العضوية النسائية في هذا المجمع ذهبت إلى الدكتورة ليلى الصباغ والدكتورة فاتن محجازي والمصرية الدكتورة وفاء كامل فايد.

فتنت سلمى الحفار الكزبري فتنة طاغية بالأديبة مي زيادة فأخذت تطارد أخبارها وكل ما يتعلق بها في رحلات خارجية إلى مصر وإيطاليا وأمريكا، واجتهدت في أن تقابل كل من كانت له صلة بمي وكذلك بجبران وتحرت كثيراً من الموضوعات الملتبسة حول هذه الأديبة التي ظلمها أقرب الناس إليها. ولئن سبقت الأديبة السورية وداد سكاكيني إلى إعداد دراسة وافية ومنصفة عن الأديبة مي زيادة من واقع مؤلفاتها وكتابات المعاصرين لها، فإن العمل العظيم الذي أنجزته سلمى الحفار الكزبري يكاد يندرج ضمن الموسوعات الشاملة الموثقة، سواء كتابها الضخم «مي زيادة أو مأساة النبوغ» وهو في جزأين، أو كتابها «مي وأعلام عصرها»، أو كتابها «الشعلة الزرقاء» الذي ترجم إلى عدد من اللغات لأنه يضم جملة من رسائل جبران إلى مي حيث كان يتجنب استخدام لفظة الحب في وصف علاقته بمي واختار لها هذا التعبير الرمزي وهو «الشعلة الزرقاء». ومع تحفظ جبران أو تهربه من البوح بحبه، فقد قطعت سلمى الحفار الكزبري بأن ما كان بين مي وجبران كان قصة حب مكتملة الأركان، ونفت بذلك ما زعمه الزاعمون من أن مي متعلقة بعباس محمود العقاد حتى وإن جعلها بطلة من أبطال روايته «سارة».

وكما يذكر لسلمى الحفار الكزبري أنها زارت القاهرة خصيصاً للبحث عن قبر مي زيادة بين مقابر الموارنة في مصر القديمة، واهتدت إلى مكانه المهجور حيث صارحها حارس المقابر بأنها مقبرة لا يزورها أحد، وصورت الحالة المزرية التي آلت إليها مقبرة مي، وسجلت صورة للضريح وهو يحمل عبارة «هنا ترقد نابغة الشرق، زعيمة أديبات العرب، المثل الأعلى للأدب والاجتماع المرحومة مي زيادة، دفنت في ٢٠ أكتوبر ١٩٤١ صلوا لأجلها».

كانت مي تستقل بهذه المقبرة، تحيط بها الخضرة، فلما باتت لحداً

مهدماً، أغرى ذلك المسؤولين عن مقابر الموارنة، فنقلوا رفاتها إلى فجوة في جدار علقوا عليها عبارة مختصرة هي «الأديبة مي زيادة نابغة الشرق سنة ١٩٤١».

وأذكر في هذا المقام أن أسرة زيادة في مدينة شحتول الجبلية في لبنان رغبت في نقل رفات مي من مصر إلى حيث يقام لها ضريح ومزار في شحتول على غرار ضريح ومزار جبران في بشرى. غير أن الثورة التي تزعمتها صافي ناز كاظم في حينها أحبطت هذه المحاولة. وقد زرت مدينة شحتول بصحبة سلمى الحفار الكزبري وشهدت صور مي زيادة تغطي جميع الطرق المفضية إلى المدينة. وزرت المنزل الذي كانت مي زيادة تقيم فيه، وإن كان «الورثة» اقتسموه فيما بينهم فصار منزلين منفصلين. كما رأيت شجرة الزيتون التي كانت مي تتسلى تحتها بعصره. وشهدت الآلة الكاتبة التي كانت تكتب عليها خواطرها. ومع ذلك لم تتحمس سلمى الحفار الكزبري لنقل رفات مي احتراماً لاختيارات مي في وصيتها المكتوبة.

ويبدو أن الأدب يعدي أحياناً، وما دامت أم نزيه كرامي تشتغل بالأدب، فلم لا تكون لنزيه هذه الهواية التي تمثلت في رواية نشرها بعنوان: «الضوء الكاشف».

وعندما أهدتني سلمى روايتها «الحب بعد الخمسين» قلت لها إنك فتحت باب الأمل أمام الذين ودعوا مرحلة الشباب، وتمثلوا بقول شوقي:

شيّعت أحلامي بقلب باك

ولممت من طرق الملاح شباكي.

ولكن سلمى أفحمتني بقولها: عندما تقرأ الرواية ستكتشف أنها تدور حول حب الوطن وحب الأحفاد ـ ولها تسعة أحفاد ـ.

ومع ذلك فإن الشاعر السوري الكبير بدوي الجبل «أحمد سليمان الأحمد» رحب بالحب في أي سن وقال في المقدمة التي كتبها لهذه الرواية:

أتسألين عن الخمسين ما فعلت

يبلى الشباب ولا تبلى سجاياه

في القلب كنز شباب لا نفاد له

يعطي ويزداد ما ازدادت عطاياه

فما انطوى واحد من زهو صبوته

إلا تفجر ألف في حناياه

يبقى الشباب ـ ندياً في شمائله

فلم يشب قلبه إن شاب فوداه

كانت سلمى تعالج بنظام الغسيل الكلوي مرتين أسبوعياً، وقال لها الأطباء إن هذا العلاج يستمر على مدى العمر. ولكن انتقالها إلى الجبل في لبنان بسبب ظروف الحرب حال بينها وبين متابعة العلاج في بيروت، فتفاقمت حالتها وعجل ذلك بوفاتها، وخلفت بذلك أسى عميقاً لأسرتها: لزوجها الدكتور نادر الكزبري وابنها المحامي نزيه كرامي وابنتيها الطبيبة رشا وشقيقتها ندى، وقررت الأسرة أن يكون العزاء في وقت لاحق في مسقط رأسها بدمشق نظراً للظروف الراهنة.





رحل في صمت

أما الراحل في صمت فهو الأديب المصري الدكتور حسين علي محمد أستاذ الأدب العربي في اليمن والسعودية، وبسبب ذلك تغرب عن مصر طويلاً من عام ١٩٨٥ إلى أن أدركته الوفاة في الرياض في ٢١ يوليو ٢٠١٠ عن عمر ناهز الستين.

ولد الدكتور حسين علي محمد في قرية العصايد بمركز ديرب نجم بمحافظة الشرقية في الخامس من مايو ١٩٥٠. ونال درجة الماجستير عن رسالة وقفها على صديقي الشاعر المسرحي السوري عدنان مردم بك ـ وأعتقد أنني كنت واسطة العقد بينهما ـ أما رسالة الدكتوراة فقد كان موضوعها «البطل في المسرحية الشعرية في مصر».

وعندما تلقيت من الرياض مكالمة هاتفية مفجعة بوفاة الدكتور حسين علي محمد راجعت الصحف المصرية، وحتى المعنية بالأدب، فلم أقع فيها على خبر وفاته ولا حتى على نعي الأسرة. فقد مات كما كان الأديب عباس حافظ يقول: «مات فطيساً»!

لا أزعم بأنني كنت ذا صلة شخصية وثيقة بالدكتور حسين علي محمد، حيث لم أره في حياتي إلا مرتين اثنتين: مرة عندما تكرم بزيارتي في بيتي من نحو عشرين عاماً ومرة عندما صادفته في رابطة الأدب الحديث من نحو عشر سنوات. ولكن حافز الوفاء دفعه إلى مكاتبتي طوال هذه السنين، وفي كل رسالة سؤال أو أكثر عن الأدب والأدباء، ولم أكن أضن عليه برأيي أجريه في صدق وصراحة وكأننا في مناجاة ودية لا رقيب عليها. ولعل رسائلي أربت على العشرات. وكنت أعتقد أنها مجرد «دردشات» ستستقر في أدراج مكتبه على اعتبار أن مرسلها ليس من ذوي الحيثية الأدبية ولا يعد مرجعاً وثيقاً في

شؤون الأدب، ولا يعتد برأيه لدى الدارسين والباحثين ـ وهي حقيقة أعرفها عن نفسي دون اصطناع أي تواضع مقيت.

ولكنني فوجئت بـ حسين علي محمد يصدر كتاباً عنوانه: «سفير الأدباء فلان» اعتمد فيه اعتماداً أساسياً على الرسائل التلقائية المرتجلة التي كنت أوافيه بها، وأضاف إليها ترجمة لحياتي ومقالات نشرت عني في صحف مصرية وعربية. ولقب «سفير الأدباء» أطلقه عليّ للمرة الأولى الأديب العراقي وحيد الدين بهاء الدين، ثم جاء الشاعر المهجري جورج صيدح فأضاف إليه أنني سفير للشعر المهجري، وها هو الدكتور حسين علي محمد يلتقط هذا اللقب ويجعله عنواناً للكتاب الذي وضعه عني، وهو كتاب طبعه على نفقته الخاصة ثلاث طبعات، وكان في كل طبعة يتوسع في الحفاوة بي. هذا علماً بأنني أعرف من حقيقة أمري أنني أفتقر إلى وجاهات السفراء وإلى ترف مكاتبهم وأيضاً إلى أرصدتهم!

ولست أذكر أنني شكرت الدكتور حسين علي محمد على هذا الفضل المبذول والأريحية السخية. ولعلي اعتبرت كتابه مجرد حلقة في سلسلة من الكتب شرع في إصدارها من عشرين عاماً بعنوان «أصوات معاصرة» وزاد عدد إصداراتها حتى اليوم على ١٣٥ كتاباً جاعلاً من نفسه دار نشر لمعاصريه.

ولكن أنّى للأريحي أن يكف عن عطائه، إذ لم يقنع بهذا الكتاب الذي أصدره تكريماً ووفاءً لصديق له، ولا بالكتب التي طبع عليها عبارات إهداء لهذا الصديق، بل طفق يملأ شبكات الإنترنت بأحاديث عني. فكنت أسمع من الأصدقاء الذين يتابعون هذه الشبكات أنني «منتشر» عليها، فأتشكك في كلامهم لأنني لا أتعامل مع الإنترنت ولا دراية لي بتقنياتها ولا بكل المستحدثات الإلكترونية الوافدة. وكنت أحسب أن هؤلاء الأصدقاء يبالغون إلى أن تطوع بعضهم باستخراج نسخ من مقالات حسين على محمد التي كان ينشرها ويعيد نشرها. فهذا مقال عن الشاعر نزار قباني في مرآة فلان، وثمة مقال آخر عن العلامة نقولا الحداد في مرآة فلان، ومقال ثالث عن العلامة محمود محمد شاكر في مرآة فلان، ومقال عن أربع أديبات في نفس هذه

المرآة، وهو يقدم لكل فصل من هذه الفصول بعبارات يؤكد فيها أن صاحبها هو سفير الأدباء ولا سواه!

وبكل الصدق أقول إن حسين علي محمد يدهشني بكل هذا الاهتمام من جانبه وكأنه «يبشر» بي بين قوم لا يعرفونني، ولا أظنه سمع كلمة شكر واحدة مني، بل لقد تعمدت ألا أكتب عن أي من مؤلفاته خشية أن يظن بأننا نتقارض الثناء. وهو تقصير بل جرم اقترفته في حق هذا الصديق الصدوق، ولا أرى حرجاً في المجاهرة به ولو بعد غيابه.

وبوصفه أستاذاً في الجامعات السعودية، كان يحرض طلابه وكذلك طالباته على الاتصال بي سواء هاتفياً أو بالزيارة، حيث أقنعهم بأنني قد أفيدهم في الرسائل الجامعية التي اختاروا الكتابة في موضوعاتها. فهذه فتاة سعودية تسأل بالهاتف عما إذا كان قد سبق لباحث أو باحثة كتابة رسالة جامعية عن الشاعرة المصرية جميلة العلايلي. وهذه طالبة أخرى تزورني مع زوجها وتقول: إن قدميها قد حفيتا في البحث عن مؤلفات الأديب إبراهيم المصري، فجاءت تستعير كتبه لتصويرها وإعادتها.

وقد علمت من إخواننا السعوديين أن الدكتور حسين علي محمد كان يتمتع بصداقة عدد كبير من الأدباء وأساتذة الجامعات هناك بفضل علمه وخلقه وشخصيته و«رهبنته» في محراب العلم. وكان بالتأكيد خليقاً بالتكريم في ندوة «الاثنينية» التي يرعاها الأريحي الكبير الشيخ عبد المقصود خوجة لتكريم الأعلام ذوي الجدارة وفي حياتهم.

وللدكتور حسين علي محمد نحو أربعين كتاباً منها تسعة دواوين وسبعة كتب في النقد والأدب ومسرحيتان شعريتان، وقد نشر كل هذه الكتب ضمن سلسلة «أصوات معاصرة» كما قام بجمع ديوان الشاعر الضرير محمد العلاني الذي زاملني لفترة قصيرة في الجامعة الأمريكية، ولكنه انسحب عندما اكتشف أن الدراسة باللغة الإنجليزية التي لا يحسنها.

و«الأصوات المعاصرة» ضمت كتباً من تأليف صابر عبد الدايم ومحمد جبريل وعبد العزيز الدسوقي وإبراهيم سعفان وعبد المنعم عواد يوسف

وحسني سيد لبيب وأحمد زلط وعبد الله السيد شرف وآخرين. وفي اعتقادي أن الدكتور حسين علي محمد كان ينفق من جيبه الخاص على هذه السلسلة بدافع من أريحيته.

إن وفاة الدكتور حسين علي محمد تعد فاجعة شخصية بالنسبة لي، فهو قد أنفق عمراً طويلاً في محاولة جادة للرفع من شأني، دون أن يثبط من همته أن هذه القضية هي في عرفي واعتقادي قضية خاسرة.

رحم الله هذا العالم الجليل والأخ النبيل فقد كان أمثولة على صدق الوفاء وأريحية البذل والعطاء.



أبو القاسم كرّو في «الهلال»

في عددها الأخير (جويليه ٢٠٠٥) نشرت مجلة «الهلال» القاهرية مقالة مطولة بقلم وديع فلسطين (القبطي) حول رسائل الأدباء، تحدث فيها بإسهاب عن تبادل الرسائل بين الأدباء والكتاب وما نشر منها، مثل: رسائل الأمير الكاتب شكيب أرسلان، والعلامة أحمد تيمور، ومصطفى صادق الرافعي، وإبراهيم العريضي، وعجاج نويهض المتوفى عام ١٩٨٢ (وقد كان يكتب رسائل تقع الواحدة في ٢٠ صفحة يردفها بملحق من ١٠ صفحات ثم يذيلها باستدراك من ٥ صفحات وبهوامش من ٣ صفحات). وعباس محمود العقاد الذي كانت له مراسلات مع محمد خليفة التونسي.

وقد لاحظ الكاتب أنه نشرت مؤخراً في عمّان الرسائل التي بعثت بها الشاعرة العراقية نازك الملائكة إلى الأديب الأردني عيسى الناعوري.

ويقول وديع فلسطين: «واجتمعتْ لدى العلامة التونسي أبو القاسم محمد كرو ـ أطال الله بقاءه ـ مجموعة ضخمة من رسائل الأدباء انتقى منها طائفة قام بنشرها.

ويعزى إلى العلامة كرو الفضل الأول في نشر الرسائل الأدبية التي تبادلها الشاعر أبو القاسم الشابي مع صديقيه محمد الحليوي وعبد الخالق البشروش، وهي رسائل لا غنى عنها لأي دارس للأدب التونسي وأعلامه ولو في الفترة القصيرة التي جرى فيها تبادل هذه الرسائل بسبب الموت المبكر للشابي عن ٢٥ عاماً. . .».



صفحات سقطت
من سجل مؤرخي الأدب

تهيأ - لي بحكم التداول بين الصحافة والأدب - الوقوف على أشياء عزَّ على مؤرخي الأدب أن يلموا بها في ما دونوه عن الماضي القريب الذي يرتد إلى الأربعينيات من القرن الماضي.

وفي هذه السطور بعض من حكايات الصحافة والأدب التي انتهت إليّ أخبارها من واقع الاحتكاك الشخصي، وليس عن طريق المطالعة أو السماع.

عقّاديات

حكايات عباس محمود العقاد كثيرة، ومعاركه الصحفية والأدبية اشتعلت على مدى العمر، فكان يتصدى لمن يواجهونه في حلبة النزال بوجوه سافرة، أما الذين كانوا يطعنونه من الخلف أو يهاجمونه خارج الساحة، فقد كان يغفل أمرهم اعتداداً بنفسه وقلمه، وازدراء لمسلكهم الذي لا يستقيم مع الأخلاقيات الأدبية. وقد قال لي مرة إنه كره الشاعر أحمد شوقي كراهة لا سبيل إلى التراجع فيها لأنه كان يستأجر حثالة الأدباء فيهاجمونه في الصحف، عوضاً عن أن يخرج إليه في مبارزة كما كان يفعل الفرسان في زمن مضى.

وكنت ألاحظ أن بعض ناشئة الأدب، الذين طالت أيديهم فعرفوا الطريق إلى الصحف التي تصدر خارج مصر، يهاجمون العقاد بشراسة

ويسخرون من آرائه، وهم مطمئنون إلى أنه لن يطلع على ما ينشرونه بعيداً عن عينيه. فكنت من ناحيتي أجمع للعقاد هذه المقالات وأوافيه بها ليكون على اطلاع على ما يقال عنه في صحف لا تصل إلى يديه. وكان من عادته أن يكتفي بالسخرية من هؤلاء الناشئين، فيصفهم مرة بأنهم «عيال الأدب»، ومرة أخرى بأنهم من «الشباب الناهد». ولم يحاول أبداً أن يدخل في نقاش مع أي منهم حتى لا يكون ذلك سبباً في ذيوع شهرتهم ورفع أقدارهم.

ومن حكايات العقاد أنه كان شديد الالتزام الصارم بالمواعيد، رافضاً أي عذر يساق لمن يتخلف عن موعد معه. وعندما كان عضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية مع زملائه طه حسين وعزيز أباظة وإبراهيم بيومي مدكور ومَن إليهم، توجه من بيته في مصر الجديدة إلى مقر المجلس في الزمالك في الموعد المحدد لحضور اجتماع يعقده المجلس برياسة الوزير كمال الدين حسين. ونظر العقاد في ساعته وقال: إن موعد افتتاح الجلسة أزف ولن ننتظر أحداً، فليتفضل الدكتور طه حسين برياسة الجلسة وافتتاحها. ولكن الدكتور طه قال: لا بأس من الانتظار قليلاً ريثما يحضر الوزير. فما كان من العقاد إلا أن قال: إذن أرأس أنا الجلسة، وأعلن افتتاحها قائلاً: لا بد من احترام المواعيد واحترام الحاضرين وكلهم من أعلام الفكر.. وشرع ينظر في البنود المدرجة في جدول الأعمال، فلما حضر الوزير متأخراً، أفسح له العقاد ليرأس الجلسة وأخطره بما تم أثناء غيابه.

ومنذ وفاة العقاد في ١٢ مارس ١٩٦٤، درج عامر العقاد ابن شقيقه على الاحتفال في كل عام بذكرى ميلاد العقاد التي تحل في ٢٨ يونيو (وهو من مواليد ١٨٨٩). وكان يطلب مني المشاركة في هذه المناسبة.

وفي إحدى المرات أعددت كلمة لإلقائها في هذا الحفل، وتوجهت إلى بيت العقاد حيث استقبلني عامر قائلاً: إن الرئيس محمد نجيب والدكتور محمد صلاح الدين باشا يجلسان في الصف الأول، فقم بتحيتهما. كان الرئيس أنور السادات قد أفرج عن الرئيس محمد نجيب، فصار يتردد على المنتديات الأدبية، ورأيته غير مرة في مكتبة الأنجلو المصرية يختار مجموعة من الكتب، فإذا همَّ بدفع ثمنها رفض صاحب المكتبة صبحي جريس أن يتقاضى منه شيئاً قائلاً: إن هذه هدية متواضعة من المكتبة التي شرفتها بزيارتك. ولم تكن لي سابقة معرفة بالرئيس محمد نجيب، ولا رغبت في أن أتزلف إليه. أما الدكتور صلاح الدين باشا وزير الخارجية في حكومة الوفد الأخيرة فكان صديقاً قديماً لي لم أره من سنوات طويلة. ومع ذلك آثرت أن أجلس في آخر صف في القاعة دون أن أحييه ما دام يجلس إلى جوار الرئيس محمد نجيب.

وعندما نودي باسمي لإلقاء كلمتي المعدّة سلفاً، توجهت إلى ما وراء مكتب عامر الذي يفصلني عن الجالسين في الصف الأول، وشرعت في إلقائها. وختمت كلمتي المكتوبة بعبارة استعرت جزءاً منها من أستاذنا أحمد حسن الزيات حيث وصف عبد الناصر بأنه من «الطوال من ذوي السلطان» وقلت: إن العقاد عرف كيف يحترم نفسه ويحترم قلمه ففرض احترامه على الطوال والعراض والقصار من ذوي السلطان! وهممت بالإنصراف، فوقف الرئيس محمد نجيب وصافحني، فقلت له: إنما قصدتك بالعراض من ذوي السلطان!

وحل موعد صلاة الجمعة، فانصرف الرئيس محمد نجيب، وأنست بعد ذلك بصحبة صديقي الدكتور محمد صلاح الدين باشا فكان هذا آخر لقاء لي معه.

مؤرخ اليمن

في عام ١٩٤٨ التقيت في ندوة المجاهد الفلسطيني الكبير محمد علي الطاهر، المعروف بأبي الحسن، بمؤرخ اليمن الشيخ عبد الواسع الواسعي، وهو رجل قصير القامة، يتحدث بصوت هامس وبلهجة يمنية. فأخبرني أنه يزور القاهرة لكي يطبع كتاباً كبيراً يسجل فيه تاريخ اليمن من أقدم العصور وإلى العصر الحديث، ووعد بأن يزورني في الجريدة التي أعمل بها لكي يقدم إليّ نسخة منه بمجرد صدوره.

وبُعيد ذلك، وفَى الشيخ الواسعي بوعده، وزارني لتقديم الكتاب الكبير بجزئيه عن تاريخ بلاده التي كان يحكمها إذ ذاك الإمام يحيـى حميد الدين. ولم يكد كتابه يظهر حتى تواردت أنباء من اليمن عن قيام عبد الله بن الوزير المستشار الشخصي للإمام يحيـى بانقلاب، وأعلن نفسه إماماً خلفاً للإمام يحيـى الذي أشيع أنه لقي حتفه. وشرع ابن الوزير في اختيار وزرائه للقيام بحركة إصلاحية في البلاد، وأنشأ مجلساً تشريعياً من ٦٠ عضواً.

ولما كان مؤرخ اليمن راغباً في تسجيل تاريخ بلاده إلى آخر لحظة، فقد أصدر لكتابه ملحقاً عن حركة ابن الوزير الإصلاحية التي رأى فيها الشيخ الواسعي إنقاذاً لليمن (السعيد!) من جهالات عهد الإمام يحيـى. وزارني في مكتبي وهو متهلل لكي يقدم إليّ هذا الملحق قائلاً: إن ابن الوزير سيحقق لليمن عصراً زاهراً.

ولكن ثورة ابن الوزير أخمدت بأسرع مما يتصور، وتبين أن الإمام يحيـى على قيد الحياة خلافاً للشائعة الكاذبة. وخشي الشيخ عبد الواسع الواسعي أن يقع هذا الملحق في أيدي حكومة الإمام فتقطع عنقه. ولما توجهت في الصباح إلى مكتبي وجدت الشيخ عبد الواسع في انتظاري منذ الفجر، وطلب استرداد هذا الملحق الذي أَعْمَلَ في جميع نسخه الإعدام متكتماً أمره تماماً. وعندما تسلم الملحق مني قال: لقد أنقذت حياتي. ومن

حسن حظه أن آلات الاستنساخ والتصوير التي انتشرت اليوم لم تكن معروفة في ذلك الوقت، وإلا لخشى من أن أكون قد احتفظت بنسخة من الملحق تعرضه للمهالك.

ومن قبيل الاستطراد أذكر أنني التقيت في ندوة أبي الحسن بالأمير البدر ولي عهد الإمام يحيى قبل زوال مملكته، كما التقيت في جنازة بالمشير عبد الله السلال الذي قاد الثورة على عهود الأئمة، وكان وقتها مجرد لاجيء سياسي عافته جميع مظاهر السلطة.

كما التقيت بالأمير علي عبد الكريم ولي عهد سلطان لحج قبل أن تندمج جميع مشيخات الجنوب في دولة اليمن.

سكرتير طه حسين

أخبرني الأديب يوسف الشاروني، زميلي في المرحلة الثانوية، بعد اطلاعه على ما كتبته عن طه حسين وسكرتيره في عدد من مجلة «الهلال»، بأنه عرف من أسرة زوجة فريد شحاته بأنه توفي في كندا التي كان قد هاجر إليها بعد تركه العمل مع طه حسين، ولعل هذا يفسر فشلي في تسقط أخباره من واقع أدلة التليفون في الولايات الكندية المختلفة.

الزحف النسائي
في قطر

في رسالة تلقيتها من الدوحة أن الديوان الأميري أصدر مؤخراً مرسوماً بتعيين الأديبة الدكتورة هدى النعيمي عضواً في المجلس الوطني للثقافة والفنون في قطر. وهو مجلس يؤدي مهمة وزارة الثقافة في هذه البلاد، وكانت الأديبة الدكتورة كلثم جبر قد عينت عضواً في هذا المجلس بمرسوم سابق.

وهاتان الأديبتان ظفرتا بدرجة الدكتوراه من مصر ولكن في غير المجال الأدبي. فالدكتورة هدى النعيمي نالت درجتها في الفيزياء النووية، في حين نالت الدكتورة كلثم جبر درجتها في علوم الاجتماع، ولكنهما تهويان الأدب، إذ أصدرت الدكتورة هدى ثلاث مجموعات قصصية عنوانها «المكحلة» و«أنثى» و«أباطيل»، وأصدرت الدكتورة كلثم مجموعة بعنوان: «وجع امرأة عربية» كتب مقدمتها رجاء النقاش.

وهناك زميلة ثالثة لهما هي الدكتورة هيا محمد الدرهم التي نالت درجة الدكتوراة من القاهرة في موضوع الأدب المهجري، وهي تعمل أستاذة في كلية البنات بجامعة قطر، ولها كتاب كبير عن «صورة البحر في الشعر العربي الحديث بالخليج».

ولهؤلاء الأديبات الثلاث مشاركات في عدد من المؤتمرات الأدبية التي عقدت في العواصم العربية المختلفة، فكنَّ صورة مشرفة لقطر في هذه المجتمعات.

أمريكيتان تحملان
اسم علي شلش

كان الأديب الدكتور علي شلش متزوجاً من سيدة أمريكية أنجب منها ابنتين، وكان في سنواته الأخيرة قد قرر أن يقيم في لندن التي توسع فيها النشاط الثقافي العربي بسبب هجرة عدد غير قليل من الأدباء العرب إليها ملتمسين مزيداً من الحرية في التعبير عن آرائهم. وبسبب كثرة المطبوعات العربية التي باتت تصدر عن العاصمة البريطانية من صحف ومجلات وكتب، قرر عدد من الناشرين العرب اعتبار لندن منطلقاً لنشر كتبهم وتوزيعها في ربوع العالم العربي.

وعندما توفي الدكتور علي شلش فجأة في القاهرة في ٢٣ أكتوبر

١٩٩٣ ظلت أرملته تقيم مع طفلتيها في لندن، وهي إقامة فقدت مبررها بعد ارتحال الزوج، فقررت أن تعود إلى الولايات المتحدة مع طفلتيها اللتين اكتسبتا الجنسية الأمريكية وإن بقيتا تحملان اسم علي شلش. وكان علي شلش يشرف على سلسلة «نقاد الأدب» الصادرة عن هيئة الكتاب، ولا أدري لم لا تخصص حلقة من هذه السلسلة لمنشئها، إذ كان علي شلش بدوره من نقاد الأدب.

عيسى خليل صباغ

توفي في الولايات المتحدة مؤخراً عيسى خليل صباغ، وهو أمريكي من أصل عربي قابلته للمرة الأولى في القاهرة في عام ١٩٥٣ عندما زارها لحضور العرض الأول لرواية «مجد العرب» التي قام فيها بتمثيل دور الملك عبد العزيز آل سعود في فتح الرياض ودحر آل الرشيد وتوحيد بلاد الحجاز تحت إمرته. وقد اشترك في تمثيل هذا الفيلم ممثلون أمريكيون وممثلون هواة من العرب وصورت مناظره في أرض الجزيرة العربية وفي المواقع التي شهدت معارك ابن سعود.

وكان عيسى خليل صباغ يعمل إلى جانب ذلك مديراً للقسم العربي لراديو صوت أمريكا سنوات طويلة، وكان من كبار أعوانه في برامجه رائد أبولو الدكتور أحمد زكي أبو شادي.

وكان صباغ رشيق القوام جميل الصورة له لحية صغيرة (سكسوكة) يسميها المجمعيون «الثعنون»، وهي مؤهلات كانت ترشحه للظهور على شاشة التليفزيون ولكنه كان يختبىء دائماً وراء ميكرفون الإذاعة.

ولعل أكبر شهادات ظفر بها عيسى خليل صباغ في حياته هي القصائد التي وجهها إليه أبو شادي في دواوينه المهجرية الأربعة التي أشرفت بنفسي على تحقيق مخطوطاتها ونشرها وهي ديوان «الإنسان الجديد» وديوان «النيروز

الحر» وقد صدرا في عامي ١٩٨٣ و١٩٨٨ على التوالي عن دار ومطابع المستقبل في القاهرة، وديوان «من أناشيد الحياة»، وديوان «إيزيس» وقد صدرا عام ١٩٩٩ في مجلد واحد عن دار الجديد في لبنان.

وقد أحصيت في هذه الدواوين الأربعة ٩ قصائد نظمها أبو شادي في تحية صباغ في مناسبات شتى، وهي قصائد لا تخلو من الدعابة مثل الأبيات التي قالها أبو شادي عند حصول صباغ على الجنسية الأمريكية وفيها يقول:

بُشراك! هذا العم عيسى صار فينا العم سام.

انظر إلى عثنونه فلقد تزايد واستقام.

قد كان في حزم الشيوخ فصار في زهو الغلام.

من ذا يطاوله، وهذي الناطحات له تقام.

وختمها بقوله:

فاليوم عيسى كالرشيد وحقه حق الغرام!

المكتبات الخاصة

ما زالت المكتبات الخاصة التي يدأب الباحثون في اقتنائها على مدى العمر تؤرق أصحابها بشأن مصيرها، ولا سيما إذا كان «الورثة» مبتوتي الصلة بالعوالم التي شغلت صاحب المكتبة. وقد أخبرني الروائي السوري الدكتور عبد السلام العجيلي أنه على استعداد للتنازل عن مكتبته الخاصة لمن يتعهد برعايتها والحفاظ عليها فلا يفرط في أي من مفرداتها لأن نجليه الطبيبين لا يشاركانه في اهتماماته الأدبية.

أما الأديب التونسي أبو القاسم محمد كرّو، وهو الذاكرة الحية للثقافة والوطنية في تونس، فقد وهب مكتبته الخاصة التي تضم أكثر من ١٣ ألف

مجلد إلى كلية الآداب بمنوبة (وهي الجامعة التونسية الأولى) فأقيم بهذه المناسبة حفل أكاديمي كبير لافتتاح قاعة «أبو القاسم محمد كرو» التي تتصدرها صورة للمهدي بحضور ممثل لرئيس الدولة وبإشراف وزير التعليم العالي. وتبارى الخطباء في الإشادة بهذه الهبة الثمينة التي يفيد منها الباحثون والعلماء.

وللأديب «أبو القاسم محمد كرو» أكثر من أربعين كتاباً مؤلفاً، وهو عضو في مجامع اللغة العربية في مصر وسورية والأردن والعراق، وعضو في عشرات من الجمعيات العلمية العربية والتونسية، وشغل منصب المستشار الثقافي في تونس سنوات طويلة ومنح وسامان للاستحقاق وكذلك وسام الجمهورية التونسية وجائزة الدولة التقديرية في النقد.

وقد قام أبو القاسم منذ يفاعته بدور السفير الأدبي التونسي، فزار جميع البلدان العربية وعقد صلات وثيقة مع أعلام الأدب فيها، وبفضله أطللنا على الساحة الأدبية في تونس وعرفنا أعلامها الكبار، وهو أول من عُنِي بنشر آثار الشاعر الكبير «أبو القاسم الشابي» فصار ملء السمع والبصر في العالم العربي كله.



العبرة من حياة رائدَين

عرفت شاعر الأقطار العربية خليل مطران في سنوات عمره الأخيرة، وكان قد بلغ من الشهرة أقصاها حتى كان اسمه يردف باسمي الشاعرين الكبيرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم. وكان قد منح رتبة البيكوية من الطبقة الأولى فصار اسمه يذكر في الأوراق الرسمية بحضرة صاحب العزة الأستاذ خليل مطران بك. وكان زميلاه شوقي وحافظ قد سبقاه إلى الحياة الأخرى في عام ١٩٣٢ في حين امتد به العمر إلى عام ١٩٤٩ وليس حوله زوجة ولا ولد.

ولكن لا الشهرة ولا المجد ولا المنزلة الأدبية والاجتماعية التي اجتمعت لمطران حالت دون إصابته بأمراض مقعدة، فكان لا يتحرك إلا متوكئاً على كتفين، وكان بيته الكائن في أول شارع التوفيقية (شارع عرابي الآن) مقصد عشرات من الأطباء الذين لا يغادرونه بعد الكشف عليه إلا وقد امتلأت قسائم الروشتات بصنوف كثيرة من الأدوية والحقن وما إليها حتى ازدحم سطح «البيانو» في غرفة الجلوس بما يشكل صيدلية كاملة من الأدوية.

وكان مطران يكثر من ترديد بيتين من الشعر هما:

ولي كبد مقروحة من يبيعني بها كبداً ليست بذات قروح.

أباها عليّ الناس، لا يشترونها، فمن يشتري ذا علة بصحيح.

وكان يقول لي: ليتني أستطيع أن أبادل كل ما حققته من مجد أدبي بمجرد القدرة على المشي على قدمي بدلاً من التوكؤ على كتفي خادمي «عباس».

وكنت في ذلك الوقت أذرع القاهرة جيئة وذهاباً سيراً على القدمين، في حين أرى زملائي وأترابي يمرقون بسياراتهم الفارهة، فأكاد أحسدهم، ولكنني

تعلمت من مطران أن أحمد الله على نعمة السير على القدمين. وبرغم الأمراض الكثيرة التي نهشت جسد مطران الناحل فلم أره ابداً يتضجر أو يشكو. فقد كان مستسلماً لمقاديره راضياً بحظوظه معزياً نفسه بأن هذه هي إرادة السماء التي يستسلم لها.

كما عرفت الدكتور محمد مظهر سعيد عميد الفلسفة وعلم النفس الذي وهب حياته حتى بعدما بلغ الثمانين من العمر وبعد وفاة زوجته المربية نظلة الحكيم لا للعلم وحده، بل لتربية أجيال من المثقفين، الذين كان يستقبلهم في داره ويحاضرهم في منتدياتهم ولا بأس أن تمتد محاضراته إلى ساعة متأخرة من الليل. وكنت أراه دائم التفاؤل، حتى لقد نظم قصيدة طويلة جميلة عبر فيها عن فلسفته في الحب والتسامح والرضا بنعم الله، مطلعها:

هبات الله لا تُحصى ولكن حياتك بينها أسمى الهبات.

وفي إحدى الأمسيات التي قضاها يحاضر في منتدى، هبط من سيارة الأتوبيس بالقرب من منزله في ليلة دامسة الظلام. وإذ كان يهم بعبور الشارع العريض افترسته سيارة مسرعة ثم تلقفته سيارة أخرى قادمة من الاتجاه المقابل، وقضى نحبه على الفور. وأدركت وقتها عمق فلسفته بقوله إن الحياة هي أسمى هبات الله. وليتنا نعتبر من حياة هذين الرائدين العظيمين.



الانسحاب
من الحياة الفكرية

لا تنطبق المواصفات الوظيفية على كل مشتغل بالفكر والثقافة والأدب. ولئن جاز للموظف في سلك البيروقراط أن يحال إلى التقاعد في السن المحددة قانوناً، فإن هذه القاعدة لا تسري على كل من يحمل قلماً ويطالع الجماعة بآثاره المنشورة. فالحياة الفكرية لا تعرف الإحالة إلى المعاش، ولا يقدم الكاتب أو الأديب على إغماد قلمه لأن عمره الافتراضي قد انتهى ببلوغه هذه السن الحاكمة، ولكن ما دام صاحب القلم هو السيد الآمر في مصيره الأدبي - في مجتمع حر يتيح له حرية التعبير عن رأيه - فله إن شاء أن يعتبر أن رسالته قد اكتملت وأنه أدى واجبه على خير ما يشتهي وآن له أن يستريح في سني العمر المقدر له أن يعيشها. وله من ناحية أخرى أن يواصل العطاء ما دامت أوضاعه كلها تيسّر له ذلك.

على أن عامل السن ليس هو العامل الوحيد الذي يملي على الأديب أن ينسحب من الحياة الأدبية، فهناك عوامل أخرى، منها ما هو شخصي، ومنها ما هو مجتمعي، تدفعه دفعاً إلى الانسحاب من دنيا تضطرب فيها المقاييس الأدبية، وتحتدم فيها المعارك التي تدور حتى حول البديهيات، وتختلف فيها مذاهب الفكر واتجاهاته.

فمن الأدباء من أحرق كتبه مثل أبي حيان التوحيدي، ومنه من أنهى حياته بنفسه مثل الشاعر فخري أبو السعود (١٩١٠ ـ ١٩٤٠) الذي دمرته الوحدة بعد الانفصال عن زوجته الإنجليزية وغرق ابنه الوحيد بطوربيد صوبته غواصات النازي على سفينة كانت تنقل الأطفال الإنجليز إلى كندا هرباً من الإغارات الألمانية على المدن البريطانية. ومنهم الأديب إسماعيل أحمد أدهم

(١٩١١ ـ ١٩٤٠) الذي عثر على جثته على شاطىء الإسكندرية، وقيل: إنه انتحر وقيل: إنه قتل بسبب رسالته المطبوعة بعنوان: «لماذا أنا ملحد». ومنهم الأديب الشاعر اللبناني خليل حاوي (١٩٢٥ ـ ١٩٨٢) الذي انتحر احتجاجاً على الحرب الأهلية في لبنان. ومنهم الأديب الأمريكي إرنست همنجواي (١٨٩٨ ـ ١٩٦١) الذي لم يعلل أحد سبب انتحاره. ومن الأدباء من انتهت حياته بفاجعة لا إرادية مثل الشاعر صالح شرنوبي (١٩٢٤ ـ ١٩٥١) الذي افترسته عجلات قطار الدلتا. ومثل الباحث جاك تاجر الذي صرعته عجلات مترو مصر الجديدة.

بل إن هناك من راودته في فترة من حياته فكرة الانتحار، ومنهم طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) وعباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤).

الانسحاب وأسبابه

على أن هناك أدباء آثروا الانسحاب من الحياة الأدبية لاعتبارات تتعلق بكل منهم. فالعلامة محمود محمد شاكر (١٩٠٩ ـ ١٩٩٧) لم يستكمل دراسته في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بسبب اختلافه مع طه حسين، وهجر مصر إلى السعودية. ولدى عودته آثر الاعتكاف في داره على كتبه وأوراقه نائياً بنفسه عن الوظائف الحكومية وغير الحكومية، باستثناء قبوله العمل مديراً لتحرير الطبعة العربية من مجلة «الريدرز دايجست» على مدى ست سنين بناء على إلحاح محررها صديقه فؤاد صروف (١٩٠٠ ـ ١٩٨٥). كما أن الشاعر عبد الرحمن شكري (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨) انسحب بهدوء من الحياة الأدبية عندما هاجمه تلميذاه عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩) هجوماً شرساً في كتابهما «الديوان» ووصفاه بأنه «صنم الألاعيب» بل شككا في قواه العقلية. وعندما عاوده الحنين إلى القلم، نشر طائفة من الفصول في مجلة «المقتطف» بعنوان «نظرات في النفس والحياة» وكان يوقعها بالحرفين الأولين من اسمه «ع.ش». وكنت وقتها من المسؤولين عن تحرير مجلة «المقتطف» وكان شكري ينهانا عن الإعلان عن اسمه الصريح ككاتب

لهذه الفصول. ولشكري مقالات أخرى كثيرة نشرت في مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) وكان يوقعها بإمضاء «قارىء» في حين كان الزيات يعلن أن المقالات «لأحد أساطين الأدب الحديث». وله مقالات في مجلات أخرى جمعها أستاذنا الكبير الدكتور محمد رجب البيومي في كتاب عنوانه «دراسات في الشعر العربي» بتكليف وموافقة من الشاعر شكري.

ومن الذين انسحبوا من الحياة الأدبية الروائي عادل كامل الذي زامل نجيب محفوظ وعبد الحميد جودة السحار (١٩١٣ ـ ١٩٧٤) وعلي أحمد باكثير (١٩١٠ ـ ١٩٦٩) في إنشاء «لجنة النشر للجامعيين». وعندما أدرك هذا الروائي ـ الذي بات شبه مجهول ـ أن الأدب لا يطعم خبزاً، انصرف إلى مهنة المحاماة يحقق من خلالها طموحه المادي. وكنت أزوره في مكتبة في الحين بعد الحين إلى أن صفى أعماله وأغلقه ليلحق بزوجته وابنتيه بعدما هاجرن إلى الولايات المتحدة، وانقطعت بعد ذلك أخباره تماماً.

وليس من الحقائق المجهولة أن الشاعر إبراهيم ناجي (١٨٩٨ ـ ١٩٥٣) كان قد قرر الانصراف نهائياً عن الشعر والأدب، بل سافر بقصد الهجرة إلى إنجلترا كاحتجاج صامت على الحملة الشعواء التي جردها عليه طه حسين والعقاد عند صدور ديوانه الأول «وراء الغمام». ولكنه ارتأى بعدما هدأت نفسه الثائرة أن يواجه أزمة النقد لا بالاستسلام ولكن بالتحدي، فعاد من هجرته يتابع أداء رسالته ويفرض على الحياة الأدبية احترام صنيعه الأدبي.

زوال عصر الشموع

وكنت في فترة الخمسينات والستينات من القرن الماضي أعاني من الإنكشاريات المتغالظة، فقررت بدوري الانسحاب من الحياة الأدبية. وكتبت رسائل إلى الأصدقاء الذين كانوا يواصلونني برسائلهم الأدبية مودعاً إياهم قائلاً لهم إن الأمية أسلم، وها قد عدت أمياً! وأشفق عليّ وقتها الأديب الشاعر السوري الدكتور زكي المحاسني (١٩١١ ـ ١٩٧٢) فوجه إليّ قصيدة

على صفحات مجلة «الأديب» اللبنانية كان مما جاء فيها قوله:

حكم أقدارنا بأنا شموع   لا نحاول إطفاءها نحن قسرا

فمازحته قائلاً: إن عصر الشموع قد أخلى مكانه «للكلوبات» والغاز الطبيعي ثم الكهرباء والفلورسنت، واقتصرت مهمة الشموع على حفلات العرس تحملها الوصيفات حول العروس في ليلة جلوتها!

وهناك من آثر الهجرة النهائية إلى الخارج مثل الأديب العراقي الدكتور صفاء خلوصي (١٩١٧ ـ ١٩٩٥) الذي اختار أكسفورد للإقامة فيها، ومثل الأديب الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) الذي اختار أمريكا للإقامة الدائمة فيها. وهناك عدد لا يحصى من الذين ركبوا مراكب الهجرة إلى كل أنحاء العالم لاعتبارات تتفاوت من حالة إلى أخرى. وكان الدكتور محمد صبري السوربوني (١٨٩٠ ـ ١٩٧٨) يفكر بدوره في الهجرة النهائية إلى فرنسا ليحقق هناك مشروعات علمية تعذر عليه تحقيقها في الوطن.

رسالة المخضرمين

ولكن عندما يجيء الإنسحاب من الحياة الأدبية بعد تكريم من أرفع مستوى، فهو ما يدعو إلى العجب. فالأديب التونسي الكبير أبو القاسم محمد كرو الذي استكمل عامه الثمانين في أول يوليو ٢٠٠٤، فاجأ المجتمع الأدبي في بلاده ببيان نشره بعنوان «وداعاً أيها القلم وآخر الكلمات» استهله بقوله «مهداة إلى جميع الذين يحملون عني أمراضاً في نفوسهم، داعياً التاريخ أن يحاسب الجميع بالأفعال لا بالأقوال». وختم بيانه بقوله: «أما أنا وقد بلغت الثمانين سنة وزهاء الثمانين كتاباً، فأعلن بأنني لن أكتب حرفاً بعد الآن ولن أرد على أحد مهما كان. أما حقوقي كافة فأنا متمسك بها، تأتي لي أو للورثة طوعاً أو عن طريق المحاكم، واللهم اشهد بأني قد بلغت وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

ولقد جاء انسحاب أبي القاسم محمد كرو من الحياة الأدبية بعد منحه الجائزة المغاربية الثقافية الكبرى التي تمنحها حكومة تونس لأديب فرد تميز

بإنتاجه الغزير وبخدمة الثقافة على مدى سنوات عمره تتويجاً لكفاحه الأدبي والفكري واعترافاً بأياديه على الثقافة عامة.

وأثار انسحاب العلامة كرو من الحياة الأدبية عاصفة من الاحتجاجات نشرتها الصحف التونسية داعية إياه إلى العدول عن قراره لأن الرسالة الأدبية ليست لها نهاية يتم الوقوف عندها. ومن ناحيتي راجعت أخانا كرو قائلاً: إن دور المخضرمين من أمثالنا في المرحلة الحالية هو التذكير في المقام الأول بفضل الذاهبين الذين تجهلهم الأجيال الطالعة، وتصويب الأغاليط الفاحشة التي يتورط فيها الكتاب، والوقوف في وجه التيارات الهابطة التي تحاول هدم قواعد الضاد.

وكان تعليقه هو أن الأغاليط قد فشت حتى في الدراسات الجامعية، ولن يسعفه العمر مهما امتد في الاستدراك على هذه الأغاليط. أما محاولات هدم حصون الضاد فقد تأخر أوان التصدي لها.

إفساح الطريق للشباب

ومن ناحية أخرى، أعلن الصحفي الأديب المغربي عبد الكريم غلاب الاستقالة من رئاسة تحرير جريدة «العلم» المغربية والانسحاب من الحياة الفكرية تماماً. والغريب أيضاً أن هذا الانسحاب جاء بعد تكريمين ظفر بهما غلاب في الفترة الأخيرة، إذ منح بدوره الجائزة المغاربية الثقافية الكبرى من حكومة تونس، كما أصدرت الدكتورة سعاد الصباح كتاباً تذكارياً عنه قدم إليه في حفل كبير. ولأنني مبتوت الصلة بعبد الكريم غلاب، مع أنني أتابع نشاطه منذ ما كان يدرس في مصر، وقرأت كتبه «القاهرة تبوح بأسرارها» و«الماهدون الخالدون» و«الشيخوخة الظالمة»، فلست أعرف على وجه التحديد أسباب انسحابه من الحياة العامة، اللهم إلا إن كان مراده إفساح الطريق أمام الشباب خشية اتهامه بأنه يقف عقبة في سبيل أجيال جديدة تطمع في أن تتوافر لها فرص التقدم والارتقاء. ولا أحسب أن عنصر الشيخوخة هو الذي أملى على غلاب الاستقالة من الحياة العامة، فهو يعترف عند تسجيل سيرته بأنه ما زال شاباً يرفض الشيخوخة التي نعتها بالظلم.

أما الطبيب الروائي السوري الدكتور عبد السلام العجيلي، فقد أزمع هو أيضاً الانسحاب لا من الحياة الأدبية التي يعشقها كهواية ولكن من ممارسة الطب في عيادته الخاصة في مدينة الرقة البدوية في شمال سوريا. وهو بذلك قد تفرغ للأدب، فرحبت بذلك دوائره في سوريا، وإن لم يجد مثل هذا الترحيب من مرضاه الذين كانوا يجدون في طبه نزعة إنسانية، وهي نزعة كادت تختفي بعدما تحول الطب إلى «بزنس» وتجارة ومشروعات استثمارية.

وإن كنت شخصياً سأفتقد طبه لأنني كنت أقول دائماً: إنني جربت أدبك ولم أجرب طبك! ولكن شاءت الظروف أن أصاب بتسمم غذائي أثناء زيارتي لدمشق من بضع سنوات فأسعفني العجيلي بطبه، وابتاع من جيبه الخاص ثمن الأدوية التي قدمها إليّ، ولولا طبه الذي ودعه الآن لودعت الدنيا في دمشق الفيحاء ولانضممت بدوري إلى المنسحبين بلا عودة!.



عبد المقصود خوجة
ربع قرن في خدمة الثقافة بتكريم الأعلام في حياتهم

أصدرت ندوة الاثنينية التي يرعاها في جدة الأستاذ عبد المقصود خوجه سجلاً ليس من المبالغة وصفه بأنه تاريخي، يعرض ما قامت به هذه الندوة من الإسهام في خدمة الثقافة بتكريم الأعلام في حياتهم على مدى ربع قرن كامل من ١٤٠٣ ـ ١٤٢٨هـ ـ ١٩٨٢ ـ ٢٠٠٧م. وأحمد الله لأنني صادقت عدداً غير قليل من الذين كرمتهم هذه الندوة، كما أنني نعمت بأياديها عندما ضمتني إلى الصفوة الذين استحقوا منها التكريم والإشادة، وهو تكريم يزيد من روعته أنه كان استدراكاً لتقصير من جانب الوطن الذي أنتمي إليه. وهذه تحية متواضعة إلى رائد الاثنينية في مناسبة عيدها الفضي.

صدر اثنان وعشرون مجلداً من الاثنينية.. تمثل في مجموعها استعراضاً موثقاً لسير أعلام من المملكة وخارجها.

نشأ عبد المقصود خوجه في بيئة أدبية يتصدرها والده الشيخ محمد سعيد عبد المقصود خوجه، الذي رأس تحرير أول جريدة صدرت في عهد الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية، وهو الذي حفل عمره القصير بكثير من المآثر الدالة على سعة أفقه واستشرافه المستقبل الباهر لأبناء أمته.

وكان عبد المقصود في يفاعته يجالس كبار القوم من أهل العلم والثقافة، فلا يكاد يعي ما يقولون، لأنه كان فوق قدراته على الفهم. ولكن الحقيقة التي استقرت في وجدانه هي احترام الكلمة، وفي البدء كانت الكلمة، وفي المنتهى تبقى الكلمة، كما جاء في مقدمة سجل ربع القرن. فالكلمة

الصادقة الأمينة هي التي تفتح جميع الأبواب على مصاريعها أمام كل من ينشد الحكمة وسداد الرأي ونعمة الرشاد.

فلما استقام عود عبد المقصود خوجه ـ وهو قد كان نهماً في القراءة بصيراً بأقدار الرجال، سواء في المملكة أو خارجها ـ وإشباعاً منه للرغبة في مصاحبة المفكرين وقادة الرأي والحفاوة بهم، طرأت عليه فكرة اجتماع الشمل في دارته في أيام الاثنين من كل أسبوع، وصارت هذه الندوة المنتظمة تعرف «بالاثنينية». وكانت بدايتها في الثاني والعشرين من المحرم لعام ألف وأربعمائة وثلاث للهجرة (٨ نوفمبر ١٩٨٢م). وكان أول المكرمين في الندوة صديقنا علامة الجزيرة عبد القدوس الأنصاري، وجاء صديقنا الشاعر الكبير طاهر زمخشري تالياً له في التكريم.

وتوالت هذه الندوات الأسبوعية إلا في فترة الصيف من عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٢م) وإلى هذا اليوم، وفي خلالها تم تكريم ٢٨٧ من الشخصيات البارزة في المملكة والخارج حتى تاريخ ١٤٢٦/٣/٩هـ (١٨ أبريل ٢٠٠٥)، ولعل عدد المكرمين أربى الآن على ٣٠٠، هذا عدا الندوات التي أطلق عليها اسم «على ضفاف الاثنينية».

وتسجيلاً لوقائع هذه الندوات صدر حتى الآن اثنان وعشرون مجلداً تمثل في مجموعها استعراضاً موثقاً لسير رجال ـ رحل بعضهم بعد ذلك ـ أفنوا أعمارهم في خدمة العلم والثقافة وكل فروع المعرفة.

والسراة من الرجال يستمدون سراوتهم إما من جاه الأسرة، وإما من جاه المنصب، وإما من جاه الثروة. ولكن أبرزهم الذين يستمدون سراوتهم من أريحياتهم المبذولة طوعاً في غير مَنّ أو ارتجاء مثوبة. فهؤلاء يسلكون في حياتهم مسلك العطاء لا الأخذ، والإيثار لا الأثرة، والتضحية لا بغية الاستئثار، وهم يؤدون رسالتهم مدفوعين إليها بسخاء نفس وقلب ويد، وقرارهم إعلاء شأن القيم، وتجسيد الفضائل، وتدارك أوجه القصور من جانب المجتمع. فهم أمة قائمة بذاتها، استصفت من الحياة أصدق معاييرها، وانطلقت تطبق هذه المعايير على الناس والأشياء والمعاملات.

ولست أغالي إذا قلت إن الشيخ عبد المقصود خوجه بتاريخه الممتد في خدمة الثقافة، بعد في صدارة الصدارة من هؤلاء الأريحيين. فقد حمل على كتفيه أعباء أمة بأسرها، ينقب بعينيه الفاحصتين عن مفاخر الرجال في كل صقع عربي أو أجنبي، ثم لا يلبث أن يتصدى لتكريمهم في ندوة «الاثنينية»، فيذيع بذلك مآثرهم، ويشعرهم بأن حياتهم لم تكن عبثاً، وأنها تلقى التقدير الجميل من صفوة المجتمع السعودي الذي يغشى هذه الندوة.

وما جزاؤه الوحيد إلا رضاء النفس والضمير، وإلا الإحساس بأنه قد أسدى خدمة إنسانية قبل أن تكون خدمة ثقافية أو فكرية.

لم تقتصر جهود عبد المقصود خوجه على إقامة الاثنينية بل تعداه إلى نشر المجموعات الكاملة لأدباء وشعراء من المملكة وخارجها

وليست تقتصر أيادي خوجه على إقامة هذه الندوة، بل لقد اضطلع بمفرده بنشر المجموعات الكاملة لأدباء وشعراء من المملكة وخارجها. وكم أسعدني أن أتلقى هذه المجموعات لعدد من الأصدقاء، منهم الشاعر حسين سراج والشاعر عبد الله بلخير والشاعر المهجري زكي قنصل.

ولي مع عبد المقصود خوجه تجربتان شخصيتان تستحقان التسجيل للدلالة على ما يتمتع به هذا الرجل السري النفس من حب للإنصاف وحرص على الحقيقة.

فقد كنت نشرت في جريدة «الحياة» اللندنية حديثاً مستطرداً عن صديقي الشيخ حافظ وهبة الذي اقترن اسمه بعمر طويل قضاه في خدمة السعودية، وكان مما ذكرته في هذا الحديث نقلاً عنه وعن كتابه «خمسون عاماً في جزيرة العرب» أن الملك عبد العزيز آل سعود عينه حاكماً لمكة. وبمجرد ظهور المقال، بعث الشيخ عبد المقصود خوجه بتعليق إلى الجريدة استهله بتحيتي - ولم يكن يعرفني - ثم استدرك عليّ بقوله إن الملك عبد العزيز لم يعين أحداً من غير السعوديين حاكماً لأي أقليم في الجزيرة. ولم أحاول مناقشة الشيخ

عبد المقصود في هذا الأمر؛ لأنه أدرى بالحقيقة، ولأنني إنما كنت راوية لما سمعته من صاحب الشأن.. ولكن الذي أدهشني أن يتسع وقت الشيخ عبد المقصود لقراءة حديثي، وأن يتفضل مشكوراً بالتعليق عليه حرصاً منه على رد الأمور إلى نصابها. وأذكر بين عضادتين أن الشيخ حافظ وهبة طلب إليّ أن أترجم إلى اللغة الإنجليزية كتابه «جزيرة العرب في القرن العشرين»، وهي ترجمة قام بنشرها في لندن بعنوان ARABIAN DAYS ثم رجاني أن أترجم كتابه الثاني «خمسون عاماً في جزيرة العرب»، وبمجرد شروعي في هذا العمل انتقل الشيخ حافظ إلى رحمة الله، فتوقفت عن متابعته. ولو كنت أنجزته لحرصت على إثبات التصحيح الذي نبهني إليه الشيخ عبد المقصود، كما فعلت عندما أوردت سيرة الشيخ حافظ في كتابي ذي الجزئين عن أعلام العصر الذين عرفتهم.

أما التجربة الثانية فتتمثل في أنني تلقيت رسالة عامرة بعبارات التقدير من الشيخ عبد المقصود ـ دون أن تكون قد نشأت بيني وبينه أي صلة مباشرة ودون أن أكون واقفاً على أنشطة «الاثنينية» ـ أعرب لي فيها عن رغبته في تكريمي في هذه الندوة الأسبوعية. ولأنني أعرف الناس بمدى تواضع حظوظي في الحياة، فقد كتبت إليه شاكراً أريحيته وراجياً أن يعفيني من شرف لا أستأهله. ولكن أنَّي لصاحب الفضل أن يتخلى عن فضله، فقد اعتبر اعتذاري كأن لم يكن، وعاد يكرر دعوته بإلحاح شديد، سواء برسائله أو بهواتفه، مما زادني صموداً في موقفي، ورحت أرجوه اعتباري قضية ميؤساً منها. بيد أن ذلك لم يثن الشيخ عبد المقصود عما انتواه، فظل يلاحقني برسائله وهواتفه، ويحرض عليّ أصدقاءنا المشتركين على مدى عامين كاملين إصراراً منه على أن أقبل دعوته، وإصراراً من جانبي على اعتقادي بأنني لست أهلاً للتكريم. وحسبت أنني قد حسمت الأمر، وأن الشيخ قد اقتنع بوجهة نظري، ولكن كيف لعبد المقصود خوجة أن يقرّ بالهزيمة في هذه «المعركة» التي افتعلها معي.. فعاد يرجوني بمزيد من الإلحاح والإلحاف أن أقبل دعوته. وعندئذٍ قلت لنفسي: كيف أرفض هذه البادرة النبيلة من رجل هذا مقامه؟ ومن ثم

كتبت إليه قائلاً: إنني ألبي دعوته لا بقصد تكريمي، بل بقصد التواصل مع هذه الشخصية الفذة والتعارف مع رواد «الاثنينية» الأماثل. وضرب الشيخ عبد المقصود صفحاً عن هذا التحفظ من جانبي، ولم ألبث أن وجدت نفسي في حشد حاشد من أهل الفضل، جمع الشيخ عبد المقصود شملهم في بيته العامر المعمور لكي يسمعوني كلاماً طيباً لم أسمع بمثله من قبل في هذا الموقف، وعلى مدى خمسة وستين عاماً عملت فيها بالصحافة والأدب. واعتبرت كلامهم، وكنت يومها في الثمانين من عمري - رثاءً أسلفوه لي يجمّله الصدق والوفاء، حتى وإن اتسم بكثير من المبالغات. وكنت وأنا جالس في هذا الحفل أردد مع صديقي شاعر الأقطار العربية خليل مطران:

في الحاضر استسلفت ما سيقوله التالون عنيّ

ولم أملك وأنا أشكر الشيخ عبد المقصود خوجه على فضله إلا أن أقول له بلسان عيي: العجز عن الشكر أبلغ الشكر. وفي مناسبة العيد الفضي لندوة «الاثنينية» بعد قطعها شوطاً من المفاخر امتد على مدى ربع قرن، لست أشك في أن السعودية تفتخر بابنها البار الشيخ عبد المقصود خوجة الذي يقيم عرساً حقيقياً في أماسي «الاثنينية» الأسبوعية، عرساً للفكر وللخلق وللقيم وللفضائل وللمكرمات، وهو في حفاوته بضيوفه لا تفارقه بشاشة وجهه ونقاء قلبه، ضارباً بذلك مثلاً رائعاً في التواضع وصفاء النفس وسماحة الروح.

والشيخ عبد المقصود يختار فرسان منتداه الذين يكرمهم في حياتهم بحرص شديد، فلا يزدهيه أصحاب الكراسي والمناصب، ولا تغويه الوجاهات الاجتماعية أو الألقاب الطنانة، ولا ينساق مع العامة من سواد الناس، وإنما يعرف كيف يغربل الأسماء فتتحصل في غرابيله قمم من رجال الفكر والثقافة والأدب والمجتمع، تحظى منه بآيات التكريم السخي. وحسبه أن يشهد له القوم بحسن الاختيار وبسلامة المعايير وبتتبعه الدقيق لأخبار المفكرين وسيرهم، أياً كانت البقعة التي يعيشون فيها، وأياً كانت حظوظهم من اعتراف الجماعة بمحرزاتهم أو حتى بجحودها لهم.

يحرص على تسجيل وقائع ندواته في مجلدات مطبوعة يتوالى صدورها بتوالي انعقاد الندوة

واستكمالاً للدور الباذخ الذي تضطلع به «الاثنينية» وحتى لا يتبدد كل ما قيل في ندواتها في الهواء كبخار مآله إلى الاضمحلال، فإن عبد المقصود خوجه يحرص على تسجيل وقائع ندواته في مجلدات مطبوعة يتوالى صدورها بتوالي انعقاد الندوة. وهي في مجموعها تمثل مرجعاً ثميناً لسير الأعلام، بل لعلها أقرب ما تكون إلى الموسوعات الشاملة التي لا يفتأ الباحثون يرجعون إليها وهم مطمئنون إلى سلامة بياناتها وصحتها وعمق مادتها؛ لأنها منقولة من أفواه أصحابها ومن سيرهم الذاتية الصادقة. وما أكثر ما عييت في الظفر ببيانات موثقة عن أعلامنا المعاصرين الذين أغفلتهم كتب «المصادر» المتاحة، فلم أجد ضالتي إلا في موسوعة «الاثنينية» التي تتأبى مادتها على كل طعن، وهي قد استكملت اليوم ٢٢ مجلداً ضخماً.

والذين حظوا مثلي بالتكريم في «الاثنينية» يفاجأون في الحين بعد الحين بهدايا تتدفق عليهم من صاحب «الاثنينية»، تتمثل في نفائس الكتب التي ينشرها نهوضاً منه بالرسالة الثقافية التي نذر نفسه لها. وإذا كانت كتب الناشرين التجاريين تقبع في المستودعات، فإن مطبوعات «الاثنينية» تنفر من المستودعات وتطارد القراء حيثما يكونون.

وأعرف شابة مصرية كانت تعد أطروحة للماجستير عن الشاعر المهجري زكي قنصل، وخشيت أن تكون دواوين هذا الصديق التي استعارتها منيّ مُفتقرة إلى أحدث ما نظمه، فأشرت عليها بالكتابة إلى الشيخ عبد المقصود تستهديه ديوان الشاعر الذي نشره في ثلاثة أجزاء، وبعد أيام كان الديوان بين يديها هدية من ناشره الأريحي.

ولا أخالني بقادر ـ وأنا حديث العهد نسبياً بمؤاخاة الشيخ عبد المقصود خوجة ـ على الإحاطة بأطراف هذه الشخصية الرائعة التي أسرتني بعواطفها الجياشة، وبهرتني بأصالتها وعروبتها الصافية. ولتكن هذه الأسطر الكليلة تحية حب وإكبار وتقدير لهذا الشامخ في تواضع في مناسبة العيد الفضي «للاثنينية».

ذكريات تستعيدها الأسماء

في زحام الحياة الخانق وضجيجها الزاعق وهديرها الصاخب تتوه أسماء كان لأصحابها كيان ووجود لا سبيل إلى نسيانهما. وإذا كانت الأجيال الطالعة تجهل أخبار بعض الذين أسدوا إلى الجماعة خدمات جلى في ميادين الفكر والثقافة، فإن الذاكرة ـ مهما خانتهما وسائلها ـ ترى من الواجب عليها أن تستعيد ذكرى هؤلاء الراحلين، وأن تصور بعض ما استأثر باهتمامهم فعبروا عنه شعراً ونثراً يكاد أكثره يضيع. وصاحب هذا القلم المتواضع قد نذر البقية الباقية من عمره لمحاولة إنصاف الذين ظلمتهم حظوظهم في دنيا الفكر والثقافة ممن عرفهم في رحلة الحياة. أما الذين لم يعرفهم فأمرهم موكل لمؤرخي الأدب ومحترفيه.

قاسم الخطاط

كان الأديب العراقي قاسم الخطاط يحرر عموداً يومياً في جريدة عربية تصدر في لندن بعنوان «شمعة». فلما وافته المنية في تونس في ١٧ يناير ٢٠٠٣ ظهر العمود وقد كتبت عبارة «انطفأت» تحت عنوانه الأثير «شمعة».

وقاسم الخطاط تعرفه مجتمعات الأدب في مصر منذ ما نزح إليها من العراق في عام ١٩٥٣ لاستكمال دراسته القانونية في معهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية. وعين وقتها ملحقاً بجامعة الدول العربية وتقلد فيها وظائف شتى سواء في قسم الصحافة أو في مركز البحوث إلى أن تولى رياسة معهد المخطوطات العربية عام ١٩٧٦ بدرجة مستشار. وعندما انتقلت الجامعة العربية إلى تونس، انتقل معها واستقر هناك إلى آخر العمر. وقد هيأت له إقامته الطويلة في القاهرة على مدى عشرين عاماً أن يوطد علاقاته مع

كثيرين من رجال الفكر والأدب. وكان مكتبه وبيته ملتقى لأبناء أمة العرب كلما هبطوا القاهرة. ومما يذكر لقاسم الخطاط ويشاد أنه في أثناء تدهور العلاقات بين مصر والعراق، كان بشخصيته المشبعة بحب العروبة، وبثقافته التي تتسامى فوق الصغائر السياسية، يعد السفير الدائم للعراق في مصر، لا بتكليف رسمي، بل بأريحية من نفس ترى مستقبل العرب في تآلفهم لا في تنافرهم.

وقد عرفت الخطاط عن قرب طوال هذه السنوات، وحرصت عندما زرت تونس من نحو عشرة أعوام على الاتصال به وزيارته في بيته. وكان قد تزوج سيدة فاضلة من القيروان ـ هي السيدة هدى الخطاط ـ بعد وفاة زوجته الأولى.

ولئن استغرقت الأعمال الإدارية في الجامعة العربية قاسم الخطاط، فلم يصرفه ذلك عن العناية بالتأليف. فاصدر مع زميليه مصطفى عبد اللطيف السحري (١٩٠٢ ـ ١٩٨٣) والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي رحمه الله كتاباً عن معروف الرصافي حياته وشعره، كما أصدر رواية «الملكة الكادحة» وشفعها بعد ذلك برواية «البقعة الخضراء».

وقبل مجيء الخطاط إلى القاهرة ـ وهو من مواليد بغداد عام ١٩٢٣ ـ تعرض للسجن، وهي ضريبة يؤديها كل حر لأنه تعاطف مع ثورة رشيد عالي الكيلاني في عام ١٩٤١. وعمل بعد خروجه من السجن في وزارة الأوقاف وديوان مجلس النواب ومديرية التقاعد، وأصدر في عام ١٩٤٥ مجلة «إخوان الصفاء» وحرر في عدد من الصحف العراقية. وبفضل دراسته القانونية اختارته الدولة لتمثيلها أمام المحاكم العراقية وتقديم الاستشارات القانونية.

وعندما أسندت إليه إدارة معهد المخطوطات في الجامعة العربية ـ وهو أصلاً غير متخصص في هذا الميدان ـ كان ساعده الأول والأكبر محمد رشاد عبد المطلب (١٩١٧ ـ ١٩٧٥) الخبير المتعمق في المخطوطات. وفي يناير ١٩٧٥ تلقى قاسم الخطاط من بغداد نبأ وفاة أبيه، فأقام سرادقاً لتقبل العزاء في جامع عمر مكرم، وافتقدنا بين المعزين رشاد عبد المطلب، وتوهمنا أن

جفوة حدثت بين مدير المخطوطات ووكيلها. ولكننا عرفنا في اليوم التالي أنه بينما كان عبد المطلب يرتدي ثيابه للتوجه إلى السرادق للعزاء سقط ميتاً، ولم يكن عمره يزيد على ٥٨ عاماً.

وكانت الجامعة العربية قد قررت افتتاح مكتب إعلامي لها في أديس أبابا. واختارت قاسم الخطاط لرياسته، فأقامت رابطة الأدب الحديث في القاهرة حفلاً لتوديعه، وسافر إلى هناك. ولكننا فوجئنا بعد أيام بعودته إلى القاهرة لأن حكومة إثيوبيا رفضت افتتاح هذا المكتب.

وقد خلف قاسم الخطاط مشروعات لم يتسن لها النشر، منها رواية إمبراطورية الزنزانة رقم ١٢، وقصة في رسائل عنوانها «البلابتي العزيزة» ومجموعة من الأقاصيص وجمهرة كبيرة من المقالات التي كان ينشرها في بغداد بعنوان «همسة» ثم بات ينشرها في لندن بعنوان «شمعة».

ولئن تولت شؤون المخطوطات أجيال جديدة ربما جهلت قاسم الخطاط، فإن تاريخ معهد المخطوطات يسجل له ما أحرزه من فتوحات في أثناء اضطلاعه بمهامه.

الشاعر حسن كامل الصيرفي

ولد الصيرفي في دمياط في ٦ سبتمبر ١٩٠٨ وتعلم في المدارس الثانوية، واستكمل دراسته بالمراسلة وعمل موظفاً في وزارة الزراعة، ثم انتقل إلى مجلس الأمة (مجلس الشعب حالياً) مديراً لإدارة الصحافة. وظل يشغل هذا المنصب إلى تقاعده في عام ١٩٦٨، وإن كان انتدب في خلال ذلك سكرتيراً لتحرير مجلة «المجلة» عند إنشائها على يدي الدكتور محمد عوض محمد (١٨٩٥ ـ ١٩٧٢) وسكرتيراً لمجلة «الكتاب العربي».

والصيرفي من شعراء جماعة أبولو المؤسسين لها، وقد اختاره مجمع اللغة العربية بدمشق عضواً مراسلاً فيه.

اشتهر الصيرفي بكونه شاعراً حيث صدر ديوانه الأول «الألحان الضائعة» في عام ١٩٣٤، وله ديوان سابق عليه عنوانه «قطرات الندى»، لم ينشر حتى

الآن. ثم أصدر ديوان «الشروق» وأتبعه بثلاثة دواوين في مجلد واحد بعنوان «صدى ونور ودموع»، وأعد للنشر عشرة دواوين صغيرة نسبياً لكل ديوان موضوع يستقل به كديوان لشهر زاد وثانٍ للمراثي وثالث للغزل وهلم جرا. وحار في أمر نشرها إلى أن اتصلت به السيدة جيهان السادات عندما كانت تعد رسالة الماجستير عن الشاعر الإنجليزي شلي وأثره في جماعة أبولو، فأعرب لها الصيرفي عما يلقاه من صعوبة في نشر هذه الدواوين العشرة، فما كان منها إلا أن اتصلت هاتفياً بأنيس منصور في دار المعارف، وأشارت عليه بنشرها. وعلى الفور دب النشاط في الدار وأنجزت فعلاً طبع ستة دواوين هي «عودة الوحي» وقد أهداه الشاعر إلى السيدة «التي تفضلت فمنحت دواوين شعري نسمة أمل في أن ترى النور، أقدم نفحة وفاء تصدر عن صادق الشعور». وديوان «النبع» و«نوافذ الضياء» و«شهر زاد» و«صلواتي أنا» و«زاد المسافر». ولكن لما تراخى نفوذ السيدة الأولى، وخرج أنيس منصور من دار المعارف، توقف نشر الدواوين الأربعة الباقية، ولعلها ـ بعد وفاة الصيرفي في ١٩ مايو ١٩٨٤ ـ ما زالت مركونة في إحدى الزوايا، ربما إلى آخر الدهر.

غير أن تحولاً كبيراً طرأ على اهتمامات الصيرفي الأدبية، ولعل ذلك كان استطراداً للمقالات الأدبية والدراسات النقدية التي كان ينشرها في مجلات «أبولو» و«المقتطف» و«المجلة» وغيرها. فنشر دراسة عن «حافظ وشوقي» ثم اتجه بجمع قواه إلى تحقيق كتب التراث، فحقق «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسي و«طيف الخيال» للشريف المرتضى و«لطائف المعارف» للثعالبي. ثم تصدى لديوان البحتري فنشره في طبعه ضخمة في خمسة أجزاء مثقلة بالهوامش والتعليقات، وهو عمل جاد مجهد، ومع ذلك انبرى له محق زميل هو عبد السلام هارون (١٩٠٩ ـ ١٩٨٨) متناولاً إياه بالنقد والتعليقات في كتاب مستقل أصدره بعد ذلك.

ولم يكد الصيرفي يفرغ من تحقيق ديوان البحتري، حتى عكف على إصدار ثلاثة دواوين ضخام لثلاثة من الشعراء الذين لم يلتفت إليهم المحققون، وهم «عمرو بن قميئة» و«المتلمس الضبعي» و«المثقب العبدي»،

وقد أثار صدور هذه الدواوين بديلاً عن الأعداد الدورية لمجلة معهد المخطوطات العربية انتقادات وجهت إلى مدير المعهد قاسم الخطاط، على زعم أنه بهذا التصرف قد ألغى المجلة وحوَّلها إلى كتب. ولكن الخطاط رد على منتقديه قائلاً: إن لنشر التراث أولوية على المقالات المعقودة على كتب التراث والتي تنشرها المجلة عادة، وإن هذا العمل الباذخ الذي قام به الصيرفي هو كسب كبير للمجلة ولقرائها المتخصصين.

عرفت الصيرفي لأول مرة في ندوة «المقتطف» إذ كان حريصاً على الانتظام في حضورها. كان على شيء من القصر مع اعتدال في القوام. وكان جميل الصورة، وإذا مشى جر ساقيه جرّاً، ربما لعلة قديمة في ساقيه. وكان خفيض الصوت إلا إن طرأت له فكاهة لم يستطع كتمانها، وعندئذٍ يعلو صوته مجلجلاً في القاعة. وكان رجلاً ودوداً، يفتح صدره للناس ويستقبلهم بحفاوة ولا سيما عندما عمل سكرتيراً لتحرير مجلات وزارة الثقافة.

وعندما ظهر ديوان الشاعر إبراهيم ناجي عن وزارة الثقافة بتحقيق محمد ناجي، شقيق الشاعر وكان ضريراً، وصالح جودت (١٩١٢ ـ ١٩٧٦)، وأحمد رامي (١٨٩٢ ـ ١٩٨١) وأحمد عبد المقصود هيكل رَحِمَهُ اللَّهُ، تبينتُ أن الديوان المنشور أغفل كثيراً من شعر ناجي، فكتبت سلسلة من المقالات في مجلة «الأديب» اللبنانية بعنوان «شعر ناجي المضيع» رصدت فيها طائفة من القصائد التي سقطت من هذا الديوان. فكان الصيرفي يتتبع هذه الفصول ويحصر عدد الأبيات التي اهتديت إليها ويسجل ذلك في مقاله الشهري بمجلة «المجلة» مع تصويب أية أخطاء مطبعية وقعت في هذه الأبيات أثناء الطبع.

وعندما أصدر الشاعر نزار قباني (١٩٢٣ ـ ١٩٩٨) ديوانه «طفولة نهد» في القاهرة أهداني نسخة منه، وتلقيت بعد ذلك من الصيرفي ديوانه «الشروق»، فعقدت على الديوانين مقالاً تناولت في قسمه الأول ديوان نزار وفي قسمه الثاني ديوان الصيرفي ونشرته في إحدى المجلات ولعلها «منبر الشرق» لصاحبها علي الغاياتي (١٨٨٥ ـ ١٩٥٦). وعند صدور المقال، عاتبني الصيرفي عتاباً شديداً لأنني قدمت ديوان الشاعر الناشىء نزار على

ديوانه، وهو الذي له أسبقية مقررة في ميدان الشعر. فقلت له: إنني راعيت تواريخ وصول الديوانين إليّ، فقد تلقيت ديوان نزار قبل ديوانه، فسخر من دفاعي الهزيل، وإن كان تسامح معي لأن رأيي في شعره كان طيباً.

تزوج الصيرفي من السيدة نعمت حسيب شقيقة السيدة زينب حسيب التي كانت الحب الأول للشاعر أحمد زكي أبي شادي (١٨٩٢ - ١٩٥٥) والتي أفرد لها ديواناً كاملاً يحمل اسمها. ولكن الصيرفي لم ينجب. وعندما توفيت شقيقته بعدما وضعت طفلها، تولت زوجة الصيرفي رعاية هذا الطفل (يحيى قدري) إلى أن أصبح اليوم محامياً مرموقاً.

أم كلثوم والشاعر أبو الوفا

مرت يوم ٣ فبراير ذكرى وفاة المطربة أم كلثوم التي خلدها كثير من الشعراء في شعرهم. أما الشاعر محمود أبو الوفا (١٩٠١ - ١٩٧٩) فقد تناولها في إحدى قصائده التي نظمها بعد احتراق القاهرة في عام ١٩٥٢ وسخر فيها من الأوضاع الاجتماعية التي جعلت فقراء مصر ينتقمون من أغنيائها بإحراق العاصمة، وفيها يقول:

تسمعون الآن شكوى الفقراء

دائماً يشكون ظلم الأغنياء

ما الذي تشكونه، يا جحداء؟

عندنا الراديو وسهرات المساء

وليالي أم كلثوم الوضاء

ليلة واحدة فيها الغناء

عن غذاء وكساء ودواء

بل عن السودان أيضاً والجلاء

قل لهم: استشعروا بعض الحياء!

من يقول اليوم إن الأغنياء

ليس فيهم رحمة بالفقراء؟
وهمو ـ لو لم يكونوا رحماء
بكمو، يا هؤلاء الضعفاء
لاقتنوا الأرض جميعاً والسماء
فإذا أنتم عبيد أو إماء
عندهم، لا تستحقون البقاء
فاحمدوه، واشكروا للأوصياء
أنهم خلّوا لكم هذا الهواء!
ترى هل يصدق هذا الوصف على ما يكابده الناس في أوضاعنا الحالية؟

الشاعران شوقي وإبراهيم طوقان

لم يزاول الشاعر أحمد شوقي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢) التدريس في حياته، وإن كنا عرفنا عدداً من الشعراء في مصر عملوا بالتدريس ثم تركوه إلى أعمال أخرى مثل محمود غنيم (١٩٠٢ ـ ١٩٧٣) ومحمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥) وسيد قطب (وقد كان شاعراً (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦) والعوضي الوكيل (١٩١٥ ـ ١٩٨٣) وعامر محمد بحيري (١٩١٢ ـ ١٩٨٨) وغيرهم. فقد كانت وظيفة المعلم تستحق التبجيل والاحترام قبل أن تتفاقم آثار مدرسة المشاغبين، وتنعكس على العملية التربوية الحالية.

ولأن شوقياً كان يرى في التدريس مهنة سامية فقد وصف المعلم بقوله:

قم للمعلم وفه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

ولئن كنا في يومنا الحاضر نفتقد هذا التبجيل للمعلمين، ولا نراهم رسلاً للثقافة أو الأخلاق، فإن الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان (١٩٠٥ ـ ١٩٤١) الذي اشتغل بالتدريس وعانى من متاعبه، عارض أمير الشعراء في ما ذهب إليه بقوله:

«شوقي» يقول وما درى بمصيبتي

«قم للمعلم وفه التبجيلا»

أقعد، فديتك، هل يكون مبجلا

من كان للنشء الصغار خليلاً؟

ويكاد يقلقني الأمير بقوله

«كاد المعلم أن يكون رسولا»

لو جرب التعليم شوقي ساعة

لقضى الحياة شقاوة وخمولا!

والذي يده في النار ليس كالذي يده في الماء... كما يقولون.

الأدب العربي في أستراليا

أدت الأوضاع غير المستقرة في عالمنا العربي إلى نزوح كثيرين من الشباب إلى أنحاء العالم المختلفة ينشدون هناك العيش الآمن والحرية المكفولة، والكرامة المصونة، والمستقبل العريض «وكل مكان ينبت العز موطن» كما قال الشاعر، ولكن إذا كانت مآرب الحياة تفرض على كثيرين من النازحين البحث عن عمل مهنى يتفق مع تخصص كل منهم، فالمهندس يتفرغ للهندسة، والطبيب للطب، والصيدلي للصيدلة، والتاجر للمتاجرة، فإن البعض اختار لنفسه ميداناً يحفر فيه الصخر، هو ميدان الأدب العربي في مجتمع تهيمن عليه لغات أجنبية تكاد تنسي المرء لسانه العربي.

وقد أدهشني أن أتلقى من الأديبة السورية منى الدروبي بعض أعداد فاخرة من مجلة تصدر في أستراليا في طبعتين عربية وإنجليزية عنوانها: «كلمات» يحررها رغيد النحاس ويستعين بهيئة استشارية من أدباء سوريا ولبنان ومصر وأمريكا ودول الخليج وجزر المحيط الهادي، وهي مجلة مطبوعة طباعة أنيقة في قطع الكتب المتوسطة الحجم، وتتناول موضوعات أدبية وثقافية وعلمية، عدا قصائد الشعراء. وقد صادفت بين كتاب المجلة والمسؤولين عنها أسماء أعرفها منها عيسى فتوح ويوسف عبد الأحد ومنى الدروبي ونهاد شبوع

ونوبل عبد الأحد إلى جانب أسماء أخرى تُكتشف من متابعة آثارها. فهل ينتقل إشعاع الأدب المهجري إلى أستراليا بعدما كاد يخبو في العالم الجديد بأمريكتيه الشمالية والجنوبية والوسطى أيضاً؟

ولكن المجلة اضطرت إلى التوقف عن الصدور لباهظ تكاليفها.





المقطم
بين الجبل والجريدة

للمقطم تاريخ معي بدأ من المرحلة الثانوية في ثلاثينيات القرن الماضي في وقت كان فيه جبل المقطم صحراء جرداء تعج بالصخور غير المستوية. وكان تسلق الجبال عموماً وجبل المقطم خصوصاً واقتحام مغاراته هواية رياضية تستهوي بعض المغامرين دون أن أكون منهم. ومع ذلك، فقد خضت هذه التجربة بفضل المستر جراي، وهو مدرس إنجليزي كان من أساتذة المدرسة الإنجليزية بجزيرة الروضة.

لم يكن جبل المقطم ومغاراته تمثل إغراء لأحد سواء لغشيانها أو لسكناها، وحتى الرهبان الذين كانت لهم بقايا «قلايات» متناثرة في الجبل قد هجروها.

وعلى الرغم من ذلك، فإن جبل المقطم كان يمثل بالنسبة لمستر جراي تحدياً يستحق التعرض له مهما تكبد في سبيل ذلك من مشاق ومخاطر. حيث كان المستر جراي يبشرنا بأننا سنقدم على مغامرة هي جزء من عمل فرقة الكشافة المدرسية. وفي يوم العطلة الأسبوعية كان يحشدنا في فناء المدرسة ويطلب من كل منا أن يحمل معه زاده وغذاءه، وإن أمكن كشافه «أي الطورش»، وننطلق إلى الأراضي الزراعية بالقرب من سفح المقطم حيث كان الفلاحون يحتفون بنا ويقدمون لنا نتاج زرعهم من خيار وطماطم ويوسفي وبرتقال ويرفضون تقاضي ثمنها لأن مظهرنا يدل على أننا مجرد تلاميذ مصروفهم اليومي ملاليم بمقاييس ذلك الزمن.

ومتى اجتزنا الأراضي الزراعية شرعنا في تسلق جبل المقطم يقودنا

مدرسنا إلى حيث يشاء ودون أن تكون له سابق معرفة بطبيعة الأرض التي نسلكها. فإذا ما بلغنا إحدى المغارات - وهي متعددة في جبل المقطم - وقف قائدنا وقال: إن من لا يحمل كشافاً «طورش» عليه أن يحمل فرع شجرة لإشعاله قبل دخول المغارة الأولى.

فالمشاعل هي التي تضيء لنا مسالكنا المجهولة وراء قائدنا الذي ينبه علينا بأن ننظر دائماً تحت أقدامنا خشية أن تكون هناك حفرة أو حتى بئر ننزلق فيها. ولم يكن في المغارة شيء يستوقف النظر، وإنما كنا نخوض متاهة ليس فيها زرع ولا أثر لبناء أو قائمة أو عارضة، وكنا - طبعاً - نخشى التعرض لهجوم من العقارب أو الحيات، ولكن علام تعيش هذه الزواحف في أرض لا نبت فيها ولا حياة. ولكن كانت تصاحبنا الوطاويط نسمع نعيبها وضربات أجنحتها دون أن تجرؤ على التعرض لنا لأن المشاعل تفزعها. كنا نسير في طريق لا نعرف له من معالم إلا الرمال التي تغوص فيها أقدامنا، بل كنا لا نعرف وجهتنا، وهل نسير شمالاً أو جنوباً، أو شرقاً أو غرباً. حتى إذا ما لمحنا بصيص نور، أدركنا أننا نقترب من فتحة للمغارة ندلف منها خارجين، وكثيراً ما كنا نضطر إلى الزحف على بطوننا لكي نخرج من فتحة ضيقة. فإذا ما قضينا وطرنا من مغارة انتقلنا إلى أخرى لنكرر التجربة بنفس الأسلوب، حتى إذا ما نالنا شيء من الإجهاد، اخترنا أرضاً مستوية نفترشها لالتهام ما معنا من طعام قبل أن نقفل راجعين إلى مدرستنا ومنها نتفرق إلى منازلنا.

وكان الأستاذ الإنجليزي يكرر هذه المغامرات أسبوعياً، فتستهوي الطلاب، ولا يتقاعس أحد عن المشاركة فيها، فهي مغامرة شبه مأمونة وإن لم تسفر عن اكتشاف أي أثر ذي قيمة.

موكب الحمير

وعندما انتقلت إلى الجامعة الأمريكية ألفيت نفسي وسط نحو ثلاثين من الطالبات والطلاب المستجدين، فالطلاب جاؤوا من مدارس للبنين والطالبات من مدارس للبنات، فكانت هذه أول تجربة للاختلاط بين الجنسين يضاف إلى

ذلك أن الزملاء والزميلات كان منهم ـ إلى جانب المصريين ـ جنسيات أخرى كالأرمن واليونانيين والشوام والفلسطينيين واليهود، بل كان معنا طالب ألباني.

وكان طبيعياً أن يكون التعارف بل الاندماج بين أبناء «هيئة الأمم المصغرة» عسيراً، وأن تكون هناك موانع جليدية تحول دون الامتزاج في جو جامعي صحي.

ولكن فوجئنا بدعوة من العميد هوارد لزيارته في بيته في ضاحية المعادي، وفوجئنا مرة أخرى لدى وصولنا بأن هناك ثلاثين حماراً في انتظارنا مع سائسيها. ودعانا العميد إلى ركوب هذه الحمير، وكان هو يتقدمنا بنفسه على صهوة حماره!

ومن المعادي تسلقنا طريقاً يفضى إلى جبل المقطم في موكب لا يتكرر، وهو موكب ثلاثين طالباً وطالبة على متون الحمير. وكانت الحمير هي التي تقوم بمهمة التعارف والتقارب بين الطلاب والطالبات لأنها تسير حسب طبيعتها، فيجد الطالب نفسه محاذياً بحماره طالبة زميلة، فيتبادلان الحديث أو حتى الابتسام، وتتكرر هذه المواقف بفضل الحمير. ولأن هذه كانت المرة الأولى والأخيرة التي امتطيت فيها ظهر حمار، فلم أعرف كيف أحافظ على توازني وسقطت على بقعة رملية، فما كان من الزميلة التي تصادف أن كان حمارها بحذاء حماري أن ترجلت وساعدتني على العودة إلى ظهر الحمار وكلانا يمزح من طرافة هذا الموقف.

وظل موكبنا (الحماري) يسير إلى أن بلغنا ساحة مستوية على جبل المقطم، فترجلنا وقضينا وقتاً جميلاً في لعب الكرة والمزاح البريء وإلقاء النكات. وطبعاً تناولنا ما كنا نحمله معنا من أطعمة في حين كان السائسون يتعهدون حميرهم بالبرسيم ويتناولون هم طعامهم. وبقينا في هذا الجو الودي المرح إلى أن أطلت العتمة، فعدنا إلى حميرنا قاصدين بيت العميد هوارد حيث وجدنا زوجته وقد أعدت لنا «بوفيهاً» عامراً بأطايب الفطائر والشطائر والمشروبات الباردة والساخنة. وكانت هذه التجربة كفيلة بتحطيم كل الجسور بين الطلاب، فإذا نحن أسرة واحدة وإن تعددت هوياتنا.

المقطم الجريدة

وكنت على موعد جديد مع المقطم عندما تركت العمل في جريدة الأهرام التي عملت بها بعد تخرجي في قسم التوزيع بين عام ١٩٤٢ و١٩٤٥ أي منذ ٦٩ عاماً قبل أن يولد جميع العاملين حالياً في هذه الجريدة من مديرين وصحفيين وموظفين وعمال، والتحقت بجريدة «المقطم» كواحد من محرريها.

وكان يؤرقني سؤال أحببت معرفة الإجابة عنه، ألا وهو: لم اختير جبل المقطم ليكون اسماً لهذه الجريدة؟ وهي جريدة يومية مسائية سيرتبط بها عملي المهني في المستقبل. وتقدمت من الدكتور فارس نمر باشا الباقي على قيد الحياة من مؤسسي الجريدة الثلاثة، أما زميلاه فهما شاهين مكاريوس الذي توفي في عام ١٩١٠ والدكتور يعقوب صروف الذي توفي في عام ١٩٢٧ في حين مد الله في عمر نمر باشا إلى سن الخامسة والتسعين حيث توفي في ديمسبر ١٩٥١، وعنّ لي أن أسأل الدكتور نمر باشا عما أغراه من جبل المقطم فاختاره مع زميليه اسماً للجريدة. فقال: عندما جئنا من بيروت إلى القاهرة في عام ١٨٨٥ لكي نستأنف إصدار مجلة «المقتطف» الثقافية الشهرية، اشترينا مطبعة خاصة بالمجلة واستخدمنا عمالاً ومشرفين. ثم اكتشفنا أن المطبعة تنجز طباعة «المقتطف» في أسبوع وتبقى خاملة بقية الشهر ونتحمل خلاله أجور العمال والمشرفين. وعندئذٍ قررنا إصدار جريدة يومية مسائية - حتى لا نكون في منافسة مع الأهرام الصباحية التي سبقتها إلى الصدور بأربعة عشر عاماً. واحترنا في اختيار اسم للجريدة. ولكن طرأ علينا خاطران: أولهما أن صاحبي الأهرام سليم وبشارة تقلا لا يحملان أي درجات علمية في حين أن الدكتور نمر باشا والدكتور يعقوب صروف كانا يحملان درجة الدكتوراة من جامعة نيويورك كما كانا أستاذين في الكلية السورية الإنجيلية (وهو الاسم القديم لجامعة بيروت الأمريكية)، أي أن أصحاب «المقطم» على درجة علمية أكبر من صاحبي «الأهرام»، أما الخاطر الثاني فهو أن أهرام الجيزة بنيت من صخور اقتطعت من جبل المقطم، وأردنا أن نقول للناس إن

جريدة «الأهرام» وإن سبقت إلى الصدور، فإن «المقطم» هو الأصل، فمن حجارته بنيت الأهرام في الجيزة على أيدي الفراعنة.

وقد صدر العدد الأول من «المقطم» في عام ١٨٨٩ واستمرت في الصدور إلى منتصف نوفمبر ١٩٥٢، اي أنها عاشت ٦٤ عاماً كانت في خلالها الثانية بعد «الأهرام» من حيث العمر ولا تقل عنها أهمية.

تلك ذكريات عن الجبل والجريدة عشتها سنوات طوالاً دون أن تعدو عليها عوادي النسيان.



باشاوات ولكن عرسان

قليني فهمي باشا صعيدي من مغاغة عاصر خمسة من حكام مصر هم الخديو عباس حلمي والخديوي توفيق (قبل عباس حلمي فهو والده) والسلطان حسين كامل والملك فؤاد والملك فاروق، وقد تعامل بحكم وظائفه في الدولة مع الأربعة الأولين دون الخامس، حيث شغل مناصب مثل مدير ديوان «جفالك» بالدائرة السنية، ومدير الدخوليات (الضرائب) ومدير دار الضربخانة، وهي دار ضرب أو سك النقود وغيرها.

وفي عام ١٩٤٧ رغب قليني فهمي باشا في إقامة تمثال نصفي له ينصبه في قصره بمدينة مغاغة. فاستضاف شقيقي الأكبر المثال لويس على مدى شهر كامل، كان في أثنائه يطلب من الباشا أن يجلس أمامه لينقل تقاطيع وجهه إلى أن أنجز التمثال، وكلف المثال عبد البديع - الذي اغتيل في حادث إجرامي - بأن ينحته بالرخام ثم شحن التمثال، ولعله ما زال ينتصب في محله في حديقة القصر في مغاغة.

وعندما علم قليني فهمي باشا بأنني شقيق للمثال وأعمل بالصحافة، أهداني مجموعة من مؤلفاته التي تضم مقالات سبق نشرها في الصحف تدعو إلى الإصلاح. وقد قيل وقتها إنه كان يستعين ببعض الصحفيين في صياغة هذه المقالات ومنهم صديقنا أسعد حسني الذي كان يعمل في صحف عدة آخرها جريدة «الجمهورية» كما رأس تحرير مجلة «العالم العربي» لسنوات طوال.

ومن جملة هذه الكتب كتاب عنوانه «أعمال الملوك» تحدث فيه عن أدوار سياسية اضطلع بها، كما سجل حكايات طريفة تستحق وقفة.

كبير البطارسة

عندما عين بطرس غالي باشا (الجد الأكبر للبطارسة) وزيراً للخارجية في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني زين له بعض المقربين إليه إحياء حفلة راقصة في منزله يدعى إليها رجال السلك الدبلوماسي والوزراء ومن إليهم من الأكابر. وكان الضوء الكهربائي في ذلك الوقت لا يعم العاصمة، فأشار عليه البعض بضرورة إضاءة الحفلة بالكهرباء كيما تستكمل وسائل بهجتها وأسباب فخامتها. وقالوا لبطرس غالي باشا إن في دار الضربخانة لضرب النقود وسكها وابوراً لتوليد الكهرباء يمكن استعارته لأداء هذه المهمة بنجاح.

كانت الضربخانة في ذلك الوقت تتبع المصلحة التي يديرها قليني فهمي باشا بالمالية. واستيقن بطرس غالي باشا من أن تحقيق هذه المهمة قد يكون عسيراً نظراً لأن قليني باشا رجل عنيد ولن يفرط في وابور الكهرباء ويعيره إليه. وهنا تطوع حنا بك باخوم ـ الموظف بوزارة الحقانية ـ بالسعي لتذليل هذه العقبة معتمداً في ذلك على صداقته لأحمد بك أسعد مدير الضربخانة دون حاجة إلى المرور على قليني باشا. ورحب بطرس غالي باشا بقيام حنا بك باخوم بهذه المهمة.

ولما توجه حنا بك باخوم إلى صديقه أسعد بك مدير الضربخانة أفهمه أنه لا يستطيع التصرف دون تلقي الأوامر من رئيسه قليني باشا بصفته المدير العام الذي تتبعه هذه المصلحة. وأشار عليه بأن يتوجه إلى قليني باشا بصفته المدير العام لاستئذانه في استعارة الوابور، فإن وافق تمت العملية.

وعندما اتصل حنا بك باخوم بقليني باشا تليفونياً أخبره بأنه لا يستطيع التصرف بناء على مكالمة تليفونية ورجاه أن يقدم إليه مذكرة مكتوبة يستطيع البت فيها.

وإزاء هذا التدخل الفج من جانب حنا باخوم بك كان من رأي قليني باشا تقديمه إلى محاكمة تأديبية لأنه تدخل في أمور ليست من اختصاصه حتى ولو كان ذلك بإيعاز من معالي وزير الخارجية بطرس غالي باشا.

وهنا رأى فؤاد المانسترلي باشا وزير الحقانية أن يسعى لحماية موظفه حنا بك باخوم. فزار قليني فهمي باشا ورجاه صرف النظر عن محاكمته. وكان لا بد من الرجوع إلى وكيل المالية المستر دوكنس الذي وافق على رغبة وزير الحقانية وعدم محاكمة موظفه حنا بك باخوم.

وعلق قليني فهمي باشا على هذه التدخلات غير المشروعة في عمله بإيعاز من وزير الخارجية بطرس غالي باشا بأنه لن يتجاسر أحد بعد الآن من الموظفين صغيراً أو كبيراً على التدخل في شؤون غيره.

ولكن قليني باشا سكت عن إيراد أي شيء عن الحفلة الراقصة في منزل وزير الخارجية بطرس غالي باشا وهل أقيمت أو ألغيت أو أضيئت بالشموع والمصابيح.

نازلي فاضل

وتحدث قليني فهمي باشا عن الأميرة نازلي فاضل التي كانت تقيم في منزلها صالوناً يشهده عظماء ذلك العهد، ومنهم الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية وسعد زغلول باشا رئيس الوزراء وقاسم أمين وكان يشهده أحياناً اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر.

واشار قليني باشا إلى أن هذه «البرنسيسة» قامت بترجمة كتاب من تأليف أبيها المرحوم مصطفى فاضل باشا حمل فيه على مظالم السلطان العثماني عبد الحميد وقامت بطباعته.. فغضب السلطان وطلب من سمو الخديوي عباس حلمي الثاني أن يحاول استرضاء الأميرة بكل ما لديه من الوسائل وبكل ما في ميسوره من مغريات مع جمع نسخ الكتاب وإرسالها إليه. فقام الخديوي بتنفيذ كل ما طلبه السلطان العثماني.

ومع أن الأميرة نازلي فاضل دأبت على ذم السلطان وهاجمت كل تصرفاته، فقد تلقت دعوة من السلطان لزيارة الآستانة. وخشي جميع أصدقاء الأميرة من المخاطر المحيطة بهذه الدعوة ونصحوها بعدم السفر. وكان قليني باشا من جملة الناصحين.. ولكنها ضربت صفحاً بكل هذه النصائح، ولبت

دعوة السلطان، وسافرت إلى الآستانة، ولكنها احتاطت للأمر، حيث بادرت بمجرد وصولها إلى عاصمة الخلافة بالتوجه إلى دار السفير البريطاني حيث نزلت في ضيافته. وفي اليوم التالي توجهت إلى سراي السلطان وبصحبتها مندوب من قبل السفير، فاستقبلها السلطان استقبالاً حسناً، وأنعم عليها بكثير من العطايا والهبات وعادت مكرمة إلى مصر.

ويقول قليني باشا: إنه توجه لزيارتها والسلام عليها فوجد أن لهجتها قد تغيرت تجاه السلطان. وقال لها: سبحان من يغير ولا يتغير، فقالت: سأجيبك عن سبب هذا التغيير في الحال، وأمرت أحد توابعها بأن يحضر صندوقاً فتحته أمامي وفيه ما يبهر الأبصار من جواهر كريمة ولآلىء ثمينة وأحجار من الماس والذهب الخالص، وقالت: هذا ما أوجب تبدل لهجتي نحو جلالة مولانا الخليفة، فضحكت كثيراً!

ومما ذكره قليني باشا أن محاولات جرت لتزويج الأميرة نازلي من محمود فخري باشا وهو الذي تزوج من الأميرة فائقة ابنة الأميرة شويكار من السلطان أحمد فؤاد فعين سفيراً أبدياً لمصر في باريس ـ ولكنها رفضت. كما حاولوا تزويجها من أحد الأمراء فرفضت، ولكنها سافرت إلى تونس وتزوجت من ضابط اسمه بوحاجب أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء في تونس.

ولصديقنا علّامة تونس أبو القاسم محمد كرو كتاب كبير عن الأميرة نازلي فاضل.

بلقيس وماري

صحيح أن أخبار قليني فهمي باشا لم تكن تحتل الصفحات الأولى من الصحف، ولكن دارت الأيام، وأصبحت أخباره تتصدر صفحات الصحف، وذلك عندما سافر إلى تركيا للاصطياف، وهناك تزوج من بلقيس ملكة جمال تركيا، وعاد بها إلى مغاغة المحافظة لتشعل ثورة ضد الباشا المتصابى، حيث استصدر ذووه حكماً بالحجر عليه واضطروه إلى تسريح بلقيس تسريحاً «سخياً».

وتكرر نفس الشيء مع رئيس وزراء سابق هو دولة محمد توفيق نسيم باشا الذي سافر إلى النمسا للاصطياف وعاد بصحبة زوجة نمسوية اسمها ماري هوبنر كانت تعمل ممرضة أو عاملة في الفندق، فتكررت إجراءات الحجر عليه واضطر إلى تسريحها بنفس هذا السخاء.

باشوت ولكن عرسان!





دستور الدكتور مظهر سعيد

هبات الله لا تحصى ولكن حياتك بينها أغلى الهبات

بهذا البيت اختتم الدكتور محمد مظهر سعيد، الذي كان يعتز بلقب «عميد الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتربية» قصيدة طويلة جميلة المعاني سهلة العبارة اختار لها عنوان «دستور الحياة السعيدة». وهو قد خصني بنصها مكتوباً بخط يده الواضح. ولعله لو أدرك عصر الكمبيوتر لتشابهت خطوطه مع آلاف الخطوط، ولما صار لنصٍّ مكتوبٍ بخط اليد أن يرى النور أو أن يعتبر من الآثار التي ينبغي الحرص عليها.

فاجأني الدكتور محمد مظهر سعيد عندما لقيته للمرة الأولى في ندوة أدبية بأنه تناول دماغي بين يديه وأخذ يتفرس فيه ثم قال لي: إن تشكيل هذا الدماغ هو نفس تشكيل دماغ رمسيس الثاني! واعتبرت كلامه من قبيل المزاح، لكنه أكد أن التكوين واحد في الدماغين، فقلت له وأنا في دهشة من هذا الاكتشاف: إنني أنتمي إلى أسرة صعيدية، وصعايدة مصر يرتدون إلى أصول قد تمتد إلى عصور الفراعنة، لأنهم لم يعرفوا في حياتهم الاختلاط بأجناس أخرى، ولا عرفوا الهجرة إلى الخارج، ولهذا لا أستبعد أن يكون واحد من أجدادي القدماء من فراعنة مصر، سواء أكان رمسيس الثاني حسب استنتاجك أم كان شخصاً من عوام أو صعاليك العصر الفرعوني!

والتقيت بالدكتور محمد مظهر سعيد بعد ذلك في جمعية الشابات المسيحية، حيث تراءى لسكرتيرة الجمعية أن تناقش المشكلات العاطفية للشابات من خلال ثلاثة أجيال من الباحثين، فاختارت الدكتور مظهر سعيد ممثلاً لجيل الشيوخ، وكان وقتها في حدود السبعين من العمر، واختارت

الدكتور عبد المنعم المليجي أستاذ علم النفس الذي يعيش اليوم في أمريكا بعد هجرته باعتباره من جيل الوسط إذ كان وقتها في حدود الأربعين من عمره، وكنت ثالثهما من جيل الشباب وكان عمري وقتها نحو ثلاثين عاماً.

ومع أن ثلاثتنا انتمينا إلى أجيال مختلفة، فقد تقاربت رؤانا ولم نختلف في آرائنا إلا قليلاً.

أما المكسب الرئيسي بالنسبة لي فهو الاقتراب من هذا العالم الجليل الدكتور محمد مظهر سعيد ومن أسرته بعد ذلك المكونة من زوجته المربية نظلة الحكيم وشقيقتها زينب الحكيم وهي مربية بدورها. كما حرص الدكتور مظهر على إهدائي ترجمته لجمهورية أفلاطون، وكان قد سبق إلى ترجمتها صديقي السوري حنا خباز.

كان الدكتور مظهر سعيد يمثل في حياته شخصية المربي الجليل الذي يفتح بيته لاستقبال مريديه من طلاب وأساتذة، فلا يضن عليهم بآرائه وتجاربه في الحياة، وذلك امتداداً لعمله الجامعي بين الطلاب، فلا حياة لمظهر سعيد إلا مع الناس، حيث يعتقد بأن رسالة المربى الجامعي هي رسالة مستمرة ولا تنحصر في قاعات الدرس أو المدرجات الجامعية.

ولأن الدكتور مظهر سعيد لم يكن يرفض أي دعوة، سواء لإلقاء محاضرة أو للمشاركة في ندوة، فقد رحب بالدعوة التي تلقاها من الأديب حليم متري ـ وهو من مظاليم الأدب ـ للمشاركة في مناظرة حول علم النفس وهل يجوز تطبيق نظرياته ومعاييره على الأدب أم لا.. ولم يتردد مظهر سعيد هو وزوجته نظلة الحكيم في قبول هذه الدعوة مع علمه بأن الجمهور الذي سيحضرها قوامه موظفون وعمال في شركة «ماتوسيان» للسجاير. ولم يكتف حليم متري بدعوة الدكتور مظهر سعيد وزوجته بل دعا أيضاً الدكتور محمد مندور وزوجته الشاعرة ملك عبد العزيز والناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي كما حشرني بينهم حشراً.. وقد صارحت حليم متري بأنني أتوجس من احتمال توريط كل هؤلاء الأساتذة في مناظرة أدبية قد لا يحضرها إلا قلة من عمال وموظفي ماتوسيان، ولكن لدهشتي امتلأت القاعة بالحاضرين، ولدهشتي

الأكبر وجدتهم جميعاً ينصتون لكل كلمة تقال، وإنهم لم يجيئوا لمجرد «التفرج» على هؤلاء الأساتذة المرموقين، وإنما جاؤوا لمتابعة هذه المناظرة الحية.

وقد انقسم المتناظرون إلى فريقين، فريق يرى تطبيق مبادىء علم النفس على الأدب وفريق آخر ـ كنت من جملته ـ يرى أن الأدب لا يحكم عليه إلا بمبادىء أدبية. والذي حدث أن الشاعرة ملك عبد العزيز اختلفت في الرأي مع زوجها محمد مندور، وهو أمر طبيعي في مناظرة علمية.

وعندما توفيت السيدة نظلة الحكيم عانى مظهر سعيد من وحشة الوحدة، ولم يجد خلاصاً منها إلا مع الناس، فكان يلبي كل دعوة يتلقاها من أي جهة لكي يلقي محاضرة أو يشارك في ندوة، وكانت كلها تقام في الأماسي. وقد أشفقت عليه بعدما شارف الثمانين من عمره من هذا النشاط الشبابي، ورجوته أن يقلل منه، ولا سيما لأنه لا يعود إلى بيته القريب من فندق شيراتون إلا في ساعات متأخرة من الليل مستخدماً المواصلات العامة إذ لم يكن يملك سيارة. ولكنه كان يقول لي: إن حياتي مع الناس، وعمري كله مبذول لهم فأنا قبل كل شيء مُربٍ للأجيال، وواجب المربى أن يواصل أداء رسالته.

وليته استمع إلى هذه النصيحة الصادقة مني، إذ حدث في إحدى الأمسيات أن كان عائداً من ندوة، وهبط من سيارة الأوتوبيس أمام منزله، ثم أراد أن يعبر شارع الجيزة العريض في ليل بهيم متجهاً إلى بيته، فصدمته سيارة مقبلة، ثم تلقفته سيارة مدبرة، وبقي جسمه الضئيل ينزف طول الليل في عرض الشارع، ولم يهتد الناس إلى شخصية هذا «المبطط» في الشارع إلا من الأوراق التي كانت في جيبه. وهكذا انتهت حياته بفاجعة أفجع منها ما يلقاه اليوم مظهر سعيد من جحود بل نسيان حتى من أوساط المشتغلين بعلم النفس.



ألقاب ونعوت

إذا استعرضنا الكنى التي أطلقها بعض الشعراء على أنفسهم، ألفينا أنفسنا أمام حشد كبير منها قد يعز على الحصر

تدوولت في حياتنا العامة ألقاب ونعوت أطلقت على الشعراء وسواهم من الأدباء وغيرهم، وهي ألقاب ونعوت أريد بها أن تكون علماً على أصحابها، وإن استخدم بعضها على سبيل الانتقاص من قدر صاحبها.

فإذا استعرضنا الكنى التي أطلقها بعض الشعراء على أنفسهم، ربما رغبة في التميز على أقرانهم، ألفينا أنفسنا أمام حشد كبير منها قد يعز على الحصر. ولكن لا بأس من إيراد بعضها من قبيل التمثيل، فهناك الشاعر البدوي محمد عبد المطلب وبدوي الجيل محمد سليمان الأحمد وشاعر الأقطار العربية خليل مطران، وشاعر الحضرة الملكية عبد الله عفيفي، والشاعر القروي رشيد سليم الخوري، وشقيقه الشاعر المدني قيصر سليم الخوري، والشاعر محمود رمزي نظيم الذي كان يضيف إلى اسمه كنية «أبو الوفا» حتى ولو اختلط اسمه باسم الشاعر محمود أبو الوفا، وشاعر النيل حافظ إبراهيم، وشاعر البراري محمد السيد شحاتة، وشاعر آل البيت محمود جبر وشاعر الشباب، وهو لقب تنازعه ثلاثة من الشعراء هم أحمد رامي وعادل الغضبان وصالح جودت، وشاعر الكرنك أحمد فتحي، والأخطل الصغير بشارة عبد الله الخوري، وبين الكاتبات أوليفيا عويضة التي اختارت لنفسها كنية «الآنسة الزهرة» تخفي وراءها اسمها الحقيقي لأنها تعيش في صعيد مصر.

على أن هناك ألقاباً أطلقت على المشتغلين بالحياة الأدبية إما لتعظيم دورهم وتضخيم شخصياتهم مثل لقب «الكاتب الجبار» لعباس محمود العقاد،

وإما للسخرية منهم مثل لقب «بائع الخردة» الذي أطلق على حبيب الزحلاوي.

ويدعونا استطراد الحديث إلى إيراد الملابسات التي اقترنت بإطلاق بعض النعوت على حملة الأقلام من أدباء وشعراء.

صنم الآلاعيب

كان الشاعر عبد الرحمن شكري أستاذاً لإبراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد باعترافهم، وكان على ثقافة واسعة وإحاطة بآداب الغرب سابقاً في ذلك كل أدباء عصره. وكان هذا الثالوث ـ الذي يشار إليه أحياناً: بـ «جماعة الديوان» ـ يحمل رسالة التجديد في الشعر ويدعو إلى نبذ الطرائق المعهودة في الشعر التقليدي وصوغ القصائد التي تعبر عن العاطفة والوجدان في وحدة عضوية تشمل القصيدة كلها. وكان شكري، بحكم أستاذيته، لا يسكت على انحراف، فلما اكتشف أن المازني يغترف من آداب الغرب وينسب كل هذا إلى قريحته الوقادة، عوّل على فضحه، فكتب فصولاً عن سرقات المازني زلزلت منزلته الأدبية، مما أوغر صدر المازني عليه، فعقد عليه فصلاً في كتاب «الديوان» هاجمه واتهمه بالجنون ووصفه بأنه «صنم الآلاعيب». فكانت هذه هي بداية القطيعة بين شكري ـ الذي اعتكف في بيته إلى آخر العمر ـ وبين تلميذيه المازني والعقاد.

وعندما عاودت شكري الرغبة في ولوج باب الأدب، صار يوافينا في مجلة «المقتطف» بفصول عنوانها «نظرات في النفس والحياة» يوقعها بالحرفين الأولين من اسمه «ع.ش» ويشدد علينا في عدم الإفصاح عن كاتبها.

الشاعر الرهيب

كان الشاعر عبد الله شمس الدين الذي اشتهر بنشيده الثوري «الله أكبر فوق كيد المعتدي» ضخم الجثة طولاً وعرضاً، وكان يمارس رياضة حمل الأثقال، وكان جهير الصوت، فإذا أنشد قصيدة كان إنشاده لها هديراً أو زئيراً كصوت الأسد. وكان زواجه من الشاعرة جليلة رضا الضئيلة الحجم الرقيقة

الحاشية زواجاً بين ضدين، ولهذا لم يعمر طويلاً. وقد أطلق عليه الدكتور محمد مندور لقب «الشاعر الرهيب» وهو وصف يطابق التكوين الجثماني والحنجرة القوية لهذا الشاعر.

الشاعرة الفحلة

كانت الشاعرة الرقيقة روحية القليني على وفرة في الجسم دون أن تؤود حركتها أو تنعكس بالسلب على روحها المعنوية أو نفسها المرحة حيث كانت تشارك الشعراء والأدباء في مجالسهم وتجاريهم في ميادين الفكاهة والنكتة. وكانت في شعرها رصينة اللغة، تحترم قواعد العروض وتلتزم بها ولا تخرج عليها. وكان الشاعر صالح جودت معروفاً بأنه يتسم بالخفة في كثير من تصرفاته وكتاباته مما أورثه عداوات كثيرة. وهو قد وصف روحية القليني في بعض مقالاته بأنها «الشاعرة الفحلة»، وهي مداعبة ـ قد تكون ثقيلة ـ ولكن روحية تقبلتها بروح رياضة مرحة، مفترضة أنه حسن النية وأنه إنما يريد تصنيفها ضمن فحول الشعراء الكبار.

هذا وقد سمعت الشاعر العوضي الوكيل في بعض مجالسه يستغل طيبة روحية القليني في التندر عليها، ولعلها لو سمعت «تريقاته» لما ضاقت بها على اعتبار أنها من قبيل التدليل الذي لا يضر.

الكاتب المراحيضي

كان سلامة موسى يعالج مشكلات المجتمع في المقالات التي ينشرها في الصحف، ويعرف مواجع الناس ولا سيما لأنه عاش طوال عمره في الأحياء الشعبية ولم يقتن سيارة بل كان يمتطي الترام في الدرجة الثانية (الترسو) مع أنني كنت في تلك الأيام لا أركب الترام إلا في الدرجة الأولى! وشأن سلامة موسى في هذا شأن الأديب يحيى حقي، فقد صادفته غير مرة راكباً مع زوجته الفرنسية في الدرجة الثانية من سيارات الأوتوبيس وكان يرفض الانتقال إلى الدرجة الأولى للجلوس إلى جواري فيها، يا للمفارقة!

ومن الموضوعات التي عالجها سلامة موسى في الصحف مشكلة الحاجة إلى إقامة دورات مياه كثيرة في أنحاء القاهرة حتى لا يضطر الناس إلى تحويل الشوارع إلى مراحيض عمومية. ومؤكد أن دعوته هذه كانت في محلها، وكان يستهدف بها الحفاظ على المظهر الحضاري للعاصمة، ناهيك عن الجوانب الصحية الواضحة.

ولكن مناوئي سلامة موسى ـ وما أكثرهم في كل تاريخه ـ أطلقوا عليه لقب «الكاتب المراحيضي» ظناً منهم بأنهم إنما يحطون بذلك من قدره. والعجيب أن سلامة موسى فرح جداً بهذا اللقب واعتبره اعترافاً به بوصفه مصلحاً اجتماعياً يغار على مصلحة الشعب وصحته.

وهو لو عاش إلى يومنا هذا، فلعله كان يدعو إلى تنظيف القاهرة من القمامة، فيطلق عليه مناوئوه لقب «الزبال الكاتب»!

أمير البيان

أطلق هذا اللقب على الأمير شكيب أرسلان الذي سخر بيانه لخدمة أمته العربية التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار في مشارقها ومغاربها. وقد اختار الإقامة في جنيف بسويسرا كمنفى اختياري يطلق منه صيحاته لإيقاظ الأمة واستنهاض همتها في طرد المستعمرين. وقد اشتهر هذا الأمير بالرسائل الضافية التي كان يبعث بها إلى المجاهدين في الوطن وفي المهاجر، وهي رسائل لم يعرف بين المعاصرين من استطاع أن يحاكيه فيها، ربما باستثناء عجاج نويهض.

وكان عجاج نويهض قد ترجم كتاباً صغيراً لكاتب أمريكي اسمه «ستودارد» وطلب من الأمير شكيب أرسلان أن ينظر فيه. فتحول هذا الكتاب بفضل تعليقات الأمير شكيب إلى مجلدين ضخمين نشرا بعنوان «حاضر العالم الإسلامي».

وعندما اعتزم الأمير شكيب العودة إلى لبنان بصورة نهائية، رتب له المجاهد الفلسطيني الكبير محمد علي الطاهر المكنى بأبي الحسن احتفالاً

كبيراً يقام في القاهرة بحيث يترجل الأمير شكيب من سفينته في ميناء الإسكندرية ويتوجه إلى القاهرة لحضور هذا الاحتفال ثم يسافر إلى بور سعيد ليلحق بباخرته قبل إبحارها إلى بيروت. وكنت من جملة المدعوين إلى هذا الاحتفال. ولكن السلطات في ميناء الإسكندرية رفضت نزول الأمير شكيب لأنه محرض جبار على الكفاح ضد الاستعمار. وبُعيد وصول سفينته إلى لبنان وافته منيته.

وقد وصف الشاعر المهجري جورج صيدح عهد الأمير شكيب بقوله:

رحم الله عهده كان فيه قولة الحق لا تشكل تهمة.

واليوم، إذا قيل: «أمير البيان» لم ينصرف الكلام إلا إلى شكيب أرسلان.

شاعر الملاحم

يتنازع هذا اللقب شاعران، أحدهما مصري هو كامل أمين والآخر لبناني هو بولس سلامة، وهذا وذاك أوتيا قدرة عارمة على صوغ الملاحم ذات النفس الطويل، فبولس سلامة نشر ملحمة «عيد الرياض» و«عيد الغدير» وعندما بلغ الستين من عمره نشر ملحمة «عيد الستين» وملحمة «فلسطين وأخواتها». أما كامل أمين فقد نشر ملحمة «السموات السبع» و«الملحمة المحمدية» وملحمة «عين جالوت» وملحمة «حطين» وملحمة «أكتوبر» وملحمة «القادسية». وبهذين الشاعرين انقرض زمن الملاحم وشعراؤه.



صافي ناز كاظم
تستعير كتب سيد قطب من المؤلف

إنها يا سيدي أيام كأيامك، عاشها طفل في القرية، في بعضها من أيامك تشابه، وفي سائرها عنها اختلاف.

كنت كلما قرأت عن الشهيد سيد قطب ألحظ إشارة إلى كتاب له عنوانه: «طفل من القرية». ولم أستطع أن أضع يدي على هذا المرجع المهم، الذي يُستشهد به في الدراسة عن حياته وطفولته، حتى تمكنت أخيراً من الحصول على نسخة مصورة منه أهداها إليّ أستاذي وصديقي وديع فلسطين. كان سيد قطب قد أهداه الكتاب في ١٩٤٦/٣/٢٨: «هدية إلى الأديب الفاضل الأستاذ وديع فلسطين مع مودتي، المخلص سيد قطب».

ولا أدري لماذا لا يعيد ناشر شاطر طبع هذا الكتاب الأدبي الفني الاجتماعي الشيق، وقد تبين أنه ليس متاحاً في قائمة كتب الشهيد المتداولة حالياً. يهدي سيد قطب كتابه «إلى صاحب كتاب الأيام الدكتور طه حسين بك، إنها يا سيدي أيام كأيامك، عاشها طفل في القرية، في بعضها من أيامك تشابه، وفي سائرها عنها اختلاف. اختلاف بمقدار ما يكون بين جيل وجيل، وقرية وقرية، وحياة وحياة، بل بمقدار ما يكون بين طبيعة وطبيعة، واتجاه واتجاه، ولكنها - بعد ذلك كله - أيام من الأيام»، ويسجل تاريخ انتهائه من العمل ١٩٤٥/٧/١. يكتبه مشيراً إلى أنه يرجع بذكرياته إلى «ربع قرن من الزمان»، فهي «صور من حياة القرية التي عاصرت طفولتي... ولم أصنع أكثر من نقلها من صفحة الذاكرة إلى صفحة القرطاس...» وهذا يعني عام ١٩٢٠، تقريباً، الذي رحل فيه عن قريته لاستكمال دراسته بالقاهرة، وقد بلغ من عمره ١٤ سنة. كتب سيد قطب هذا الكتاب وهو على مشارف سن النضج ٣٩ سنة،

وقد رأى أن تسجيل تلك الصور من قرية طفولته: «... احتفاظ بصفحات من الحياة القومية والتاريخ الحديث في سجل الفنون، والكثير منها لا يزال يعيش، ولكن أهل المدينة المترفين لا يكادون يتصورونه، لا في عالم الواقع ولا في عالم الخيال، وفي تسجيله هنا ما يطلع الجيل الجديد على صور من الريف القومي بخيرها وشرها لعل لهم رأياً فيما ينبغي أن يبقى منها وما ينبغي أن يزول!». يقدم سيد قطب ١٢ صورة هي: «المجذوب، ضابط الجمباز، المدرسة المقدسة، بعثة طبية، سيد الحكيم، العفاريت، حركة ثقافية، قانون اللصوص، جمع الأسلحة، الحصاد وأحزان الريف، الرحيل». إذا كنا نعرف أن سيد قطب قد ولد في ١٩٠٦/١٠/٩، فهذا يعني أنه حين يعود إلى بداية وعيه الطفولي في سن الرابعة يكون قد بدأ تسجيل صور من حياة قريته من سنة ١٩١٠، ويكون كتابه قد غطى عشر سنوات من تلك الذكريات التي ينهيها بأسطر من فصل «أحزان الريف» كاتباً: «وترتد القرية إلى ظلامها الدامس، وإلى حرمانها الموروث، وإلى أحزانها التقليدية فتجتر هذه الأحزان التي تسميها: أغلاب الزمان. أغلاب الزمان: غلب الفقر، وغلب الحرمان، ثم غلب الجور من الحكام، فالريفي مرهق أبداً بالحكام... ثم سخرة الجسور، وسخرة تنقية الدودة في مزارع الأثرياء، وتفاتيشهم خارج القرية، ومكافحة الجراد، وما لا يحصى من هذه المأموريات التي يحس القروي فيها أنه سائمة أو حمار شغل على الدوام، ثم غلب الكد المتواصل في الأرض والزرع لتوفير قوته من الذرة ويا ليته يجدها على مدار العام، ثم غلب التقاليد ـ وبخاصة على المرأة ـ التي لا ترتفع في نظر الرجل عن السلعة...».

بعد أن كتب سيد قطب كتابه «طفل من القرية»، قدم كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» سنة ١٩٤٧، ولا أدري هل قرأ عبد الناصر هذه الكتب كما قرأ للحكيم «عودة الروح»؟ وكيف هان عليه بعد ذلك أن يظلم نفسه بقتل الرجل في ١٩٦٦/٨/٢٩؟ مسكين عبد الناصر!





جوانب مجهولة
عن حياة الشاعر إبراهيم ناجي

كنت ما زلت غارقاً في أعمالي الصحفية عندما تلقيت في نوفمبر ١٩٤٥ دعوة من شاعر لم أسمع باسمه من قبل هو خليل جرجس خليل، القادم لتوه من الصعيد الجواني والذي يتكلم باللهجة الصعيدية، لحضور اجتماع في بيت متواضع في حي شبرا للنظر في تأسيس رابطة للأدباء. وهو لم يكن يعرف عنواني، ولكن لأنني كنت أنشر مقالات في جريدة «منبر الشرق» لصاحبها الشيخ علي الغاياتي صاحب ديوان «وطنيتي» الثوري، فقد توهم أنني موظف في هذه الجريدة ووجه دعوته إلى هذا العنوان، وبادر الشيخ الغاياتي بالاتصال بي لتسلم الدعوة.

وبالفضول الصحفي وحده دون أي ادعاء بانتمائي إلى «فصيلة» الأدباء، توجهت إلى العنوان المذكور في الدعوة فوجدت عدداً من الحاضرين لا يزيد على عدد أصابع اليدين، ولا أعرف منهم أحداً. فاستقبلني الشاعر خليل جرجس خليل وقدمني إليهم. وبعد قليل حضر الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي، ولم أكن اعرفه بصورة شخصية، فرحب به الحاضرون. وهنا أعلن الشاعر خليل جرجس خليل عن انتخاب أول مجلس لإدارة الرابطة، فأجمع الحاضرون على اختيار الشاعر إبراهيم ناجي رئيساً لها وفوجئت باختياري وكيلاً لها مع انتخاب خليل جرجس سكرتيراً لها.

أية ورطة هذه التي ورطت نفسي فيها دون قصد؟ ولكنني لم أشأ أن أخيب ظن الناخبين، حتى وإن كانوا قلة قليلة، ووافقت على أن أقف مع الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي كتفاً بكتف مع أنني «لا شيء» بالنسبة إليه.

كذا ولدت رابطة الأدباء ولادة متواضعة في بيت قديم في حي شبرا الشعبي دون أن يكون لها أي مقر أو أعضاء دائمون أو ميزانية، ولا كان مطلوباً وقتها التسجيل في وزارة الشؤون الاجتماعية، ولا حصلنا عنها أو من أية جهة على مليم واحد اعتماداً على الاشتراكات الشهرية وقدرها عشرة قروش. وحتى هذه لم تكن تدفع بانتظام إلى الأديبة الشاعرة أماني فريد التي اخترناها فيما بعد أمينة للصندوق.

ولأن الرابطة كانت تعيش «على باب الله» فقد كنا نجتمع «حسب التساهيل» مرحبين بأي دعوة لاستضافتها. فاجتمعنا في بادىء الأمر في قاعة بجزيرة بدران بحي شبرا، ثم في مدرسة في حي السيدة زينب، ثم في مكان طلق بين عمارتين في الجيزة، ثم انتقلنا إلى شقة في باب اللوق، واستضافتنا الأديبة سنية قراعة صاحبة المكتب الدولي للأدب في مقرها بميدان سليمان باشا (طلعت حرب) ورحب بنا الصحفي المحامي محمد زكي عبد القادر للاجتماع في قاعة ملحقة بمكتبه أمام البنك الأهلي في شارع شريف. وكان آخر مقر للرابطة في نادي الموظفين بعمارات الخديو في شارع عماد الدين.

ولأن الصحف كانت ترحب بنشر تنويهات بالبرنامج الأسبوعي لرابطة الأدباء في باب «محاضرات اليوم» بالمجان، وهو باب اختفى من حياتنا المادية المعاصرة، فقد كان الراغبون في متابعة نشاط الرابطة يفدون على أي عنوان لها بناء على الإعلان المجاني في «الأهرام».

استمر نشاط هذه الرابطة دون توقف من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٥٢، وكنا نجتمع أسبوعياً في أماسي الآحاد، ولم نتخلف مرة واحدة سواء بسبب حلول فصل الصيف أو مراعاة للإجازات السنوية. وبتنا نستقبل وأحياناً ندعو أدباء معروفين لكي يحاضروا في الرابطة مثل «الدكاترة» زكي مبارك والشاعرة جميلة العلايلي والشيخ محمد القاياتي والشاعر محمد عبد الغني حسن وغيرهم.

وكانت الرابطة تنعقد في موعدها في الساعة السابعة مساء فيضطلع وكيلها بإدارتها إلى أن يتمكن رئيسها الدكتور إبراهيم ناجي من الفراغ من

استقبال آخر مرضاه في عيادته بشارع شبرا ويستقل أول سيارة أجرة للحاق باجتماع الرابطة.

هذه مقدمة قد تكون طويلة قبل الحديث عن علاقتي الوثيقة بالشاعر إبراهيم ناجي طوال تسع سنين. كان إذا ما أطل على اجتماع الرابطة يتدفق في الكلام شعراً ونثراً ويسمعنا نماذج من شعره من حافظته مستعيناً بيديه في التعبير عن انفعالاته. كان ناجي موسوعياً، فلا يستعصي عليه أن يرتجل الحديث. في أي موضوع علمي أو أدبي أو ينتمي إلى علم النفس، كما كان واقفاً وقوفاً تاماً على أخبار النشاط الأدبي وكذلك الفني في مصر. وقد يعاب عليه أنه لم يكن على هذا القدر من المتابعة للنشاط الأدبي في البلاد العربية برغم انتمائه السابق إلى جماعة أبولو التي كانت مجلتها الشهرية تحتفي بآثار جمهرة من أدباء وشعراء العالم العربي والمهاجر.

وعندما تشككت الزميلة الكبيرة صافي ناز كاظم في «التهمة» التي وجهها أنيس منصور إلى ناجي بأنه كان يتهته في الكلام، أكدت لها أن الشاعر ناجي كان «إكسبريس» في الكلام، ولم يكن يتهته أو يتلعثم أو يعاني من أي مشكلة في النطق.

وخرج علينا الشاعر صالح جودت بقائمة من «زوزوات» الفن زاعماً أن الشاعر إبراهيم ناجي كان متيماً ولو بواحدة منهن: زوزو ماضي زوزو حمدي الحكيم وزوزو شكيب وزينب صدقي. وزعم أن «زوزو» معينة هي بطلة ملحمة «الأطلال» التي غنتها أم كلثوم لا في حياة ناجي كما كان يتمنى بل بعد وفاته. ولكن الذي أعرفه وأكاد أؤكده أن الشاعر ناجي كان مقصد هؤلاء الفنانات بل والأديبات أيضاً لاستشارته في أعراض صحية يعانين منها، وكان من جملة مرضاه الشاعرة جليلة رضا والأديبة منرفا عبيد محررة مجلة «الطالبة». وكان ناجي يستقبلهن بحفاوة وروح ودية حانية ويصف لهن العلاج كطبيب وليس كعاشق. فإن تلقى بعد ذلك رسالة من إحداهن، رد عليها بهذه الروح الإنسانية الشفيقة. فالزوزوات جميعاً خارج نطاق «الأطلال» وإنما البطلة الحقيقية هي جارة قديمة لناجي عندما كان يقيم في حي شبرا.

كان ناجي ضعيف البنية ـ رغم طبه ـ ولهذا سقط صريع مرض داء الرئة أي السل، فزرته في بيته في مصر الجديدة بصحبة الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي للاطمئنان عليه.

وكان ناجي إلى جوار مزاولته الطب في عيادته الخاصة بشارع شبرا، يعمل موظفاً حكومياً في وزارة الأوقاف باعتباره طبيبها. ولم تكن الوزارة في ذلك الوقت تعرف «الغزو» النسائي فتطول قائمة «حبيباته» المزعومات من موظفات الأوقاف.

وهو لم يعمل بالسياسة ولا كانت له أي صلة أو أي نشاط يورطه بالسياسة، فهو طبيب بحكم مهنته، وهو بحكم أدبه وشاعريته لم يعرف إلا مجتمعات الشعر والأدب. وأطل على الصحافة مرة واحدة بإصداره مجلة «حكيم البيت» الطبية. وبحكم اختلاطه بالمجتمع الفني مثلت له مسرحية من تأليفه. . . أي أن كل المجتمع الذي كان ناجي يغشاه هو مجتمع الطب والأدب والفن دون أي اهتمامات أخرى بالسياسة ومزالقها.

ولهذا أصيب ناجي بصدمة العمر عندما قام ثوار يوليو بإعلان أول قائمة لتطهير موظفي الدولة، وقد تصدرها محمد فتحي بك مدير الإذاعة المعروف بكروانها وعلي خليل بك وكيل الإذاعة والشاعر صالح جودت لأنه ألف أغنية لعبد الوهاب عن الفن قال فيها: «الفن مين يعرفه إلا الفاروق اللي رعاه» وكان اسم الشاعر إبراهيم ناجي الرابع في قائمة التطهير، مع فصله من عمله الحكومي في وزارة الأوقاف.

أما وكيل الرابطة ـ منذ إنشائها ـ فقد تم اعتقاله بعد ثلاثة أشهر من قيام ثورة يوليو دون أن يوجه إليه أي اتهام ودون أن يعرف إلى هذا اليوم سبب هذا الإجراء، ولا سيما لأنه بدوره لم ينتسب إلى أي جهة سياسية.

كانت هاتان الواقعتان المتزامنتان كفيلتين بإنهاء حياة «رابطة الأدباء» فقد هجرها مؤسساها وتوقفت اجتماعاتها دون أن يبكي عليها أحد أو ينعاها أحد.

وعندما زارني ناجي بعد ذلك في مكتبي بجريدة «المقطم» قال لي: لقد تحريت أسباب تطهيري فقيل لي إنني قليل الإنتاج!! ثم سخر من هذا الاتهام

بقوله: أنا طبيب أعالج موظفي وزارة الأوقاف، فهل شكا موظف بأنني امتنعت عن الكشف عليه أو وصف العلاج له؟ وهل المطلوب من الطبيب أن يمرض كل موظفي الوزارة لكي يقال عنه إنه كثيف الإنتاج لا قليله؟

ثم طلب وريقة، وكنت وقتها قد منحت نيشاناً من الحكومة الإسبانية بمناسبة زيارة السنيور أرتاخو وزير خارجية إسبانيا لمصر، وكتب عليها هذه الأبيات، وهي:

قد هنأوك بمجدك الإسباني
فمتى تكون مصارع الثيران؟
أمنحت أوسمة ومجدك أول
ماذا يهمك من وسام ثان؟
إني أهنيك الغداة لأنني
أهواك من قلبي ومن وجداني

ظل ناجي يعاني من حالة اكتئاب بسبب وصمة التطهير الظالمة... وفي ليلة من ليالي شهر مارس ١٩٥٣ وإذ كان يطبب مريضة في عيادته في شبرا سقط ميتاً.

وعندما التقيت بحفيدته الدكتورة سامية محرز الأستاذة بالجامعة الأمريكية سألتها عما تعرفه عن جدها الدكتور ناجي، فقالت: إن كل ما أعرفه عنه هو ما قرأته عنه، لأنني ولدت بعد وفاته فلم أتواصل معه شخصياً.



أيام زمان

المخضرمون من أمثالنا لا يملكون إلا أن يأسوا على أشياء جميلة كانت تميز حياتنا، ولكن استبحار العمران قضى عليها.

كنا في ذلك الوقت نركب الترام رقم ١٤ فيخطر بنا في طريق الأهرام وسط مروج خضر وبساتين ممتدة وأشجار باسقة، فإذا أطللنا من نافذته رأينا الأهرام بكل شموخها واضحة المعالم تحتل هضبتها السامقة في نهاية الطريق. أما اليوم، فقد اختفى هذا الترام الجميل، لا من طريق الأهرام وحده، بل من معظم شوارع القاهرة، مع أنه كان مواصلة مريحة للنزهة والانتقال من مكان إلى مكان. وأما المروج الخضر، فقد عدت عليها العمائر الأسمنتية بمنظرها القبيح. وأما الأهرام نفسها، التي كنت من فراشي في منزلي في أول طريق الأهرام أراها تطل على القاهرة بكبرياء الدهور وعظمة الفراعنة، فقد اختفت تماماً ولم تعد ترى إلا عند الاقتراب منها.

وكانت حديقة الأزبكية مرتاداً جميلاً لأهل القاهرة، يقضون فيها أوقات تنزههم أو يقصدونها في عطلات الأعياد، فيجدون فيها مقاعد متناثرة تريح الجالسين، وتمتد في وسطها قنوات مائية رقراقة، وتنتصب في وسطها منصة تحتلها فرقة الموسيقى العسكرية، فتعزف أعذب الألحان لرواد الحديقة. أما اليوم فقد تقلصت الحديقة وأحيطت بأسوار عالية تحول دون غشيانها، واختفت المنصة بموسيقاها العذبة، وأصبحت الحديقة متعة ولكن لمن ينظرون إليها بعيون تتسلل من بين أسوارها، وكأنها أرض حرام غير مصرح للبشر بأن يطئوها.

وكانت هضبة المقطم قبل أن يزحف إليها العمران، ما كان منه نظامياً أو عشوائياً، تتميز بوجود تكية للبكتاشية الذين أحسنوا تنسيقها على الطراز

العربي، وجعلوها معلماً من معالم القاهرة يقصدها من يطلبون صفاء النفس وهدوء البال. وقد زالت هذه التكية، وذهب أصحابها البكتاشية إلى حيث لا نعلم.

وكانت ضاحية حلوان مشتى للقاهريين، فانتشرت فيها الفنادق والبنسيونات المعتدلة الأجر المحاطة دائماً بالحدائق يقصدها الذين يعانون من أمراض الشيخوخة حيث ينعمون بأشعة الشمس ودفء الجو وخلوه من الرطوبة. وما أكثر ما ترددت على حلوان في الشتاء لزيارة أصدقاء من رواد هذه الضاحية، ومنهم الشاعر خليل مطران بك والاقتصادي الدكتور يوسف نحاس بك ووزير الري الأسبق عبد القوي أحمد باشا والمؤرخ البحاثة عزيز خانكي بك. أما اليوم فقد طاردت الأتربة المنبعثة من مصانع الأسمنت والعوادم المتصاعدة من مصانع الحديد والصلب حتى السكان الأصلين لحلوان، فهجروها، ولم يعد يقصدها طالبو الدفء والجو الجاف.

وكانت ضاحية المعادي تدل على سكان المدن بفيلاتها الأنيقة وحدائقها المزهرة. وكنا نزور المعادى ولو للاستمتاع برؤية هذه الفيلات الساحرة، ولو من الخارج ـ والسير في شوارعها الهادئة التي لا يخشى فيها على حياة الأطفال إن هم لعبوا فيها. أما اليوم، فقد صارت الفيلات معدودة على أصابع اليدين، إذا قامت في مكانها عمائر شامخة، وضاقت الشوارع بحركة مرور السيارات، ولم تعد المعادي تفترق كثيراً عن حي شبرا.

وبديهي أن حركة العمران ماضية في طريقها، ولا يسع أحداً أن يوقفها، ولكن ألا من سبيل للحفاظ على الخصائص البيئية الأصلية للقاهرة التي عرفناها، فيبقى لها جمالها ورونقها وصفاؤها، وكذلك صداقتها العميقة للبيئة ـ حسب التعبير الدارج اليوم؟



الصحفي قرياقص ميخائيل
صاحب «دوار العمدة» في لندن

عرفت اثنين من الصحفيين الصعايدة، أولهما صادق سلامة صاحب جريدة «الإنذار» التي كان يصدرها في المنيا والذي كان يتوالى انتخابه عضواً في مجلس إدارة نقابة الصحفيين بسبب شخصيته الودودة وحسن علاقاته مع الجميع. وكان يطلب مني أن أوافيه أسبوعياً بمقال عنوانه: «سوانح» طيرلي شهرة في الصعيد. وعندما التقيت بالشاعر عزيز أباظة باشا للمرة الأولى، وقد كان مديراً لمديرية أسيوط، قال لي: إن هناك سمِيّاً لي يكتب في جريدة «الإنذار». فقلت له: وهل كنت تقرأ هذه الجريدة الإقليمية؟ فقال: طبعاً، فهي جريدة محترمة توزع في كل الصعيد. فقلت له (وأنا الصعيدي)، ولهذا السبب صرت من كتابها الدؤوبين، فأنا هو الكاتب وليس سمياً لي.

أما الصحفي الصعيدي الثاني الذي عرفته فهو قرياقص ميخائيل الذي لم يمارس الصحافة في الصعيد كزميله صادق سلامة، وإنما قرر وهو شاب أن يمارسها في لندن، عاصمة الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس بعدما حاول قبل هجرته أن يراسل بعض الصحف الإنجليزية للرد على افتراءاتها على مصر التي تعاني من الاستعمار البريطاني، فنجح مرة وخاب مرات.

ذهب هذا الصعيدي الخارج من بلده المراغة إلى عرين الأسد بعدما تسلح بدراسة اللغة الإنجليزية على يدي مدرس أيرلندي. وفي لندن أنشأ مكتباً مصرياً للأنباء والاستعلامات في عام ١٩١٠، وهو الذي تحول مع الوقت إلى ما يشبه «دوار العمدة» لكل المصريين والعرب وغيرهم من الذين كانوا يقصدون العاصمة البريطانية، إما بقصد التفاوض لانتزاع الحقوق من مغتصبيها

الاستعماريين وإما لمجرد النزهة أو لطلب العلم. وهؤلاء جميعاً كانوا يجدون من قرياقص ميخائيل وكيلاً مسخراً لخدمتهم، فيضع سيارته الخاصة بسائقها تحت تصرفهم، ويدعوهم إلى ولائم تقدم فيها المأكولات المصرية التي تدربت ربة بيته الإنجليزية على طهوها. وكان ممن استقبلهم في ضيافته الأمير السعودي سعود بن عبد العزيز عندما كان ولياً لعهد المملكة العربية السعودية، والحاج محمد أمين الحسيني مفتي القدس الأكبر، والإمبراطور هيلاسلاسي إمبراطور الحبشة (إثيوبيا الآن) الذي لجا إلى لندن عندما غزت الحكومة الإيطالية الفاشية بلاده.

وكان قرياقص ميخائيل قبل هجرته إلى إنجلترا قد انضم إلى حركة الزعيم سعد زغلول باشا ـ وصار بعد ذلك ممثلاً لهذه الحركة في لندن ـ وبسبب انتمائه إلى هذه الحركة اعتقل في مصر مع ٢٨ شخصاً من أعضاء «جماعة الانتقام» وهي جهاز سري كان يأتمر بأمر زغلول باشا، وكان على رأسه عبد الرحمن فهمي بك مدير بني سويف السابق وهو خال علي ماهر باشا، والدكتور أحمد ماهر باشا. ومنهم إبراهيم عبد الهادي باشا، وتوفيق صليب الذي أصبح فيما بعد مديراً للمطبوعات في عهد الحكومة السعدية، وقد حوكم المتهمون أمام محكمة عسكرية بريطانية يرأسها جنرال بريطاني، الذي أعرب لقرياقص ميخائيل عن غيظه الشديد لأن أدلة إدانته لم تكن كافية، فأفرج عنه مضطراً، وأمر بإخلاء سبيله.

كيف كان هذا الصعيدي «القح» يمارس مهنة الصحافة في «أدغال» صحافة الإمبراطورية البريطانية؟ كان يتابع جميع الصحف مركزاً على ما تنشره من أخبار أو تعليقات حول مصر. وعندئذٍ ينبرى للرد عليها. وسواء نشر رده أو أهمل فلديه نشرة خاصة يصدرها باللغة الإنجليزية عنوانها «نشرة مصرية» يدرج فيها مقالاته ويبعث بها إلى أعضاء البرلمان البريطاني. وكثيراً ما كان يتحدى المناوئين لمصر فيدعوهم إلى حلبة نقاش «يصارعهم» فيها حتى وإن لم يفز. وحسبه ـ في أقل القليل ـ أنه دافع دفاع المستبسل عن مصر وقضاياها.

كان قرياقص ميخائيل متفرغاً تماماً للدفاع عن قضايا مصر والعروبة،

سواء بقلمه أو بالاتصالات الشخصية التي كان يجريها مع المسؤولين، أو بالخطب التي كان يلقيها، حتى داعبه صديقه مجد الدين حفني ناصف بقوله: مَنِّيش قادر أفسر وجود الاحتلال دا حتة صعيدي فتح لندرة. ولندرة هي لندن! ولأن في لندن وكالات لقصاصات الصحف، فقد كان يشترك فيها فتوافيه بكل حرف ينشر في الصحف البريطانية عن مصر، حتى ولو ورد اسمها عرضاً في مقال أو قصة. وكان يستعين بهذه القصاصات في معرفة الاتجاهات العامة حول مصر، كما كان «يزأر» بقلمه في وجه كل من يجرؤ على الانتقاص منها. و«النشرة المصرية» التي كان يصدرها حافلة بهذه المقالات، ما نشر منها وما حيل بينه وبين نشرها. وكان قرياقص ميخائيل يتنازل لي عن هذه القصاصات بعدما يفرغ منها، فأستعين بها في عملي الصحفي ليعرف القارىء المصري - بعد ترجمتها - ما تقوله الصحف البريطانية الاستعمارية عن مصر.

لم يتزوج قرياقص ميخائيل في غربته، ولكنه تبنى طفلاً اسمه علي التوني كان ثمرة زواج بين مصري وإنجليزية. فلما توفي أبوه قام قرياقص بكفالته إلى أن فجع بمصرعه في الحرب العالمية الثانية. وقد يسأل المرء: وماذا كانت هواية قرياقص ميخائيل في غربته المختارة؟ كانت هوايته إنشاء مكتبة جامعة للكتب والمجلات التي تتناول مصر، وكان في حالات كثيرة يضطر - إذا تعذر عليه الحصول على كتاب أو مجلة - أن ينشر إعلاناً في الصحف فيتلقى رداً ربما من أستراليا أو من كندا من شخص يقتني الكتاب المطلوب فيبادر بشرائه منه بأي ثمن.

وعندما كان طه حسين باشا وزيراً للمعارف، أمر بشراء هذه المكتبة بعدما تقدمت السن بقرياقص ميخائيل وخشي أن تتبدد بعد وفاته، وتم ضمها إلى دار الكتب.

وعندما توفي المحامي البريطاني برودلي الذي ترافع عن أحمد عرابي باشا في قضيته وألف كتاباً باللغة الإنجليزية عنوانه «كيف دافعت عن عرابي وبرأته»، فقد عرضت مقتنياته للبيع بالمزاد العلني ومنها رسائل عرابي باشا إليه، وقام قرياقص بشراء هذه الوثائق وأودعها في خزانة في بنك حتى

لا تتعرض لمكروه. وقد أمر طه حسين باشا بشراء هذه الرسائل بدورها لتكون في حوزة مصر. وعندما دفع ورثة عرابي باشا بأنهم أحق بثمن هذه المذكرات والرسائل التي تخص عميدهم، حكمت المحكمة بأن الرسائل ملك لا لمرسلها بل لمن أرسلت إليه، طالما أن مرسلها تنازل طوعاً عن ملكيته لها وأصبحت بالتالي ملكاً خالصاً للمرسل إليه.

وكان قرياقص ميخائيل يمتلك بيتاً على نهر التاميز فيه حديقة وحمام سباحة وملحقة به زوارق، فقرر أن يهديه إلى السفارة المصرية لتحويله إلى ناد للطلبة المصريين الذين يدرسون في إنجلترا. ولكن المسؤولين خشوا من أن يتحول هذا النادي إلى «بؤرة» لتجمهر الطلبة، فأهملوه. واضطر قرياقص إلى استرداده. كما كان يملك بيتاً رغب في إهدائه لمصر ليكون داراً لإقامة الطالبات المصريات اللائي يدرسن في إنجلترا، ولكنه عدل عن ذلك بعد تجربته مع النادي.

وعندما كان المهندس عثمان محرم باشا وزيراً للأشغال عرف مما تناقلته الصحف أن حكومة الحبشة (إثيوبيا) تتفاوض على إنشاء سد «تانا» على نهر النيل مما قد يحرم مصر من وارد المياه وهي دولة زراعية أساساً. وكان محرم باشا قد التقى في بيت قرياقص ميخائيل في لندن بالإمبراطور هيلاسلاسي إمبراطور الحبشة، واكتشف ما كان بين الاثنين من صداقة وود وثقة. فاستدعى قرياقص من لندن وطلب إليه أن يسافر إلى أديس أبابا لبحث هذه القضية مع الإمبراطور. وفي العاصمة الحبشية رحب الإمبراطور بصديقه المصري الذي آواه وهو طريد، وأكد له أن الحبشة لن تنفذ أي مشروع على النيل إلا بموافقة مصر. وقال: إنه أصدر أوامره إلى جميع المسؤولين في حكومته لمراعاة ذلك. ولم يكتف بهذا، بل حمل قرياقص رسال شكر موجهة إلى الحكومة المصرية لأنها وقفت إلى جانب الحبشة في حربها مع فاشيي إيطاليا.

(وأذكر بين عضادتين أن النظام الشيوعي الذي أطاح بهيلاسلاسي وقتله لم يجد سبيلاً للتنكيل به إلا دفن جثمانه تحت مرحاض قصره!!).

سئل قرياقص عن المحن التي مرت بحياته فقال: إنه اعتقل مرتين

وحوكم مرة بتهمة تآمرية عقوبتها الإعدام، ونجا من الغرق ثلاث مرات، وهبطت طائرته هبوطاً اضطرارياً مرتين، ودس له السم مرتين من جانب «أصدقاء»!.

وإذا كان الصحفي العجوز توفيق حبيب صاحب العمود اليومي في الأهرام بعنوان «على الهامش» قد ألف كتاباً عن قرياقص ميخائيل عنوانه «جهاد شاب وطني» فإن اثنين من رجال الدين، أحدهما مسيحي هو القس الدكتور إبراهيم سعيد رئيس الطائفة الإنجيلية في مصر والآخر هو الشيخ أبو الوفا المراغي مدير المكتبة الأزهرية قد قاما برثاء قرياقص ميخائيل في «الأهرام» بعد وفاته في سبتمبر ١٩٥٦ بمقالين ضافيين. حيث قال القس إبراهيم سعيد، بعدما أطرى صفاته وحرصه على صعيديته حتى في عقر الإمبراطورية البريطانية، «إن نسيت لن أنسى يوماً تصدى فيه للورد بيفربروك ملك الصحافة السكسونية، فذكرت إحدى الجرائد الناطقة بلسانه خبراً غير صحيح عن مصر، فتحداه قرياقص تحدياً جريئاً حتى أرغمه على الاعتذار. ومتى علمنا أن اللورد بيفربروك تحدى يوماً سراي بكنجهام ـ القصر الملكي ـ أدركنا ما له من سطوة ونفوذ. غير أن قرياقص علمه كيف يحترم المصري وكيف يرى الحق في الكلام عن مصر».

أما الشيخ أبو الوفا المراغي ـ وهو بلدياته ـ فقال عنه: «من آيات نبله وإتصافه أنه تزعم ـ وهو القبطي ـ حملة للدفاع عن الإسلام وعن الأزهر ضد بعض الإنجليز في الجرائد الإنجليزية، واستطاع بسلوكه النبيل أن يحتل مكاناً ممتازاً في المجتمع الإنجليزي..».

ومع أنني مارست الصحافة على مدى ٦٧ عاماً وقمت بتدريس علومها، فلست أدعي أنني من مؤرخي الصحافة، فهم المنوط بهم تسجيل هذه السيرة العطرة لصحفي سخر نفسه غير مأجور ولا مأمور للدفاع عن قضايا أمته، فكان أبرع وأكفأ من مكاتب الصحافة الرسمية وموظفيها البيروقراطيين.

كانت ولادة قرياقص في عام ١٨٨٧ ووفاته في عام ١٩٥٦ عن ٦٩ عاماً، وتم دفنه في ثرى مصر إنفاذاً لوصيته.

حكايات عن الأديبة مي
عندما قال العقاد... آه من هذا التراب

ما زالت الأديبة مي زيادة شاغلة الناس ليس بأدبها ولكن بأسرار شخصيتها، وعلى وجه أدق بأسرار قلبها من ناحية وبحكاية محنتها في مستشفى العصفورية في لبنان من ناحية أخرى. وقد ذهب الباحثون كل مذهب في التخريج والاستنتاج، ولكن هل من سبيل إلى «شق قلب» مي بعد أكثر من سبعين عاماً على وفاتها لمعرفة الحقائق القاطعة عن ميولها وعواطفها ومنازعها، وهل أحبت هذا أو ذاك من رواد ندوتها أو ممن كانت تراسلهم عبر البحار؟ المؤكد أن مياً نفسها لم تصرح قولاً أو كتابة أو فعلاً بشيء جازم عن الحب الذي كان يستأثر بكل عاطفتها، سواء انصرف هذا الحب إلى جبران خليل جبران في مهجره الأمريكي أو انصرف إلى سواه من الندماء في ندوتها، وهم كثيرون، منهم: خليل مطران وولي الدين يكن وعباس محمود العقاد وأنطون الجميل ومصطفى صادق الرافعي وأحمد لطفي السيد وغيرهم. ولعلها لو تزوجت واحداً منهم أو من خارج هذه الدائرة «لقطعت جهيزة قول كل خطيب».

وقد روى لي الصديق الصحفي أسعد حسني أن مياً كانت تستعين به في شبابه في ترتيب كتبها وفي تعاملاتها مع البريد والبنوك، وكان بالتالي يقضي أوقاتاً في بيتها لأداء هذه الخدمات إليها. وفي صباح أحد الأيام، كان أسعد يرتب الكتب حين دق جرس الباب، فهرعت مي إليه ولما فتحته وجدت أديباً صحفياً قادماً لزيارتها وهمّ بتقبيلها ولكنها صدّته. وقد رأى أسعد هذا الموقف وهو واقف بين خزائن الكتب لا يراه الطارق، الذي كان شاباً جميل الصورة. ودلل أسعد بذلك على مدى تعفف مي.

أما فيما يتعلق بالمرض العصبي الذي قيل إنه كان السبب في إدخالها مستشفى العصفورية في لبنان، والذي جعل واحداً من المؤلفين ـ هو خالد غازي ـ يختار لكتابه عن مي عنوان «جنون امرأة»، فهو لم يكن في حقيقته مرضاً عقلياً أو جنوناً، بل كان نوبة من نوبات «سن اليأس» أو عرضاً من أعراضها. والمعروف بل المؤكد أن مياً ظلت تقيم صالونها في موعده الأسبوعي المعتاد، وظلت تتابع أنشطتها الثقافية محاضرة وكاتبة إلى أن بوغتت ببعض ذوي قرباها يقتحمون عليها حياتها ويحاولون الاستيلاء على ثروتها ـ فكل مشهور في عرفهم لا بد أن يكون واسع الثراء ـ ولما أعيتهم وسائلهم السلمية عن تحقيق غايتهم استدرجوها إلى لبنان وزجوا بها في هذا المستشفى زاعمين أنها إلتاثت، في حين أنها كانت حتى ذلك الوقت في كامل قواها العقلية وصحتها النفسية. وليس ثمة ريب في أن معايشة المرضى في هذا المستشفى قد تركت آثارها في تصرفات مي، حيث قالت الممرضة المكلفة بخدمتها: إن مياً لم تكن مجنونة، بل فرضوا عليها الجنون، وكانت تدخن بشراهة، وتمتنع عن مقابلة أحد، وترفض زيارات الأطباء، وتعاف الخبز والطعام من جميع الأنواع حتى أصابها الهزال. وعندما جاء أقرباؤها إلى المستشفى خاطبتهم بقولها: أنتم هم المرضى لا أنا، وأنتم هم الذين يحتاجون إلى التطبيب. وقالت الممرضة: أن مياً صارت تتحدث معها بصورة طبيعية عندما اطمأنت إلى رفقتها في حين كانت ترفض التحدث حتى مع الأطباء. وعندما نقلت من العصفورية إلى مستشفى خاص ثم إلى مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت، قرر الأطباء في تقاريرهم أنها سليمة تماماً، ولكنها تحتاج إلى رعاية بسبب الهزال الذي أصابها نتيجة لمحنة العصفورية.

وقد يبرز سؤال يفرض نفسه فرضاً وهو: ما دام الأطباء في العصفورية وسواها لم يكتشفوا في مي علةً تسوّغ بقاءها بين المرضى بأعصابهم، فلِمَ لم يبادروا إلى تسريحها، ويعلنوا على الملأ أنها في غير حاجة إلى أي علاج عصبي؟

والجواب عن هذا التساؤل كامن في أن أقرباء مي، ومنهم طبيب يتزعمهم، كانوا على استعداد لأداء النفقات الخاصة بالمستشفى بعدما أفلحوا

في إيقاع حَجْرٍ على مي ومدّ أيدهم إلى أموالها. كما أنه كانت لهذا الطبيب دالة مهنية على زملائه فانصاعوا لرغبته في الإبقاء على مي بين جدران العصفورية على الرغم من أن فيلسوف الفريكة أمين الريحاني قرر عندما زار مياً في المستشفى أنها كانت تتحدث معه بصورة طبيعية وأنها استنكرت محاولات وصمها بالجنون.

وليس أدل على أن مياً كانت مالكة تماماً لقواها العقلية من أنها ألقت محاضرة في جامعة بيروت الأمريكية بعد خروجها من المستشفى، وألقت محاضرة ثانية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة بعد عودتها إلى مصر كان موضوعها «عش في خطر»، وهي محاضرة كنت أعتزم الاستماع إليها إذ كنت وقتها طالباً في تلك الجامعة، وكان من عادة الجامعة أن تكلفني مع بعض الزملاء استقبال المدعوين وإجلاسهم، لولا أنني كنت مرتبطاً بامتحان في اليوم التالي، فرجوت الجامعة إعفائي من هذا التكليف. وقد بحثت عن نص هذه المحاضرة في جميع الصحف والمجلات التي كانت مي تخصّها بنشر كتاباتها، وهي المقتطف والهلال والمقطم ومجلة التربية الحديثة ومجلة الطالبة فلم أقع لها على أثر.

ولعل أهم شخص دُعي لحضور هذه المحاضرة والإصغاء إلى صوت مي وهو يجلجل في قاعة يورت التذكارية المكتظة بالجمهور هو القاضي المنظورة أمامه قضية رفع الحجر الظالم المفروض علي مي بدعوى جنونها، فخرج القاضي بعد المحاضرة يقول: إنها أعقل مني! وفي أول جلسة أصدر حكماً برفع الحجر عن هذه الأديبة التي طبقت شهرتها الآفاق، وفتنت العقول والأفئدة لجيل كامل من أعلام عصرها، وخيف عليها في محنتها من أن تقدم على الانتحار لأن الموت ـ في اعتقادها ـ أهون عليها وأشرف من أن توصم بالجنون من ذوي قرباها.

وعند وفاتها رثاها العقاد بقصيدة متفجرة بالحزن كرر فيها عبارة:

كل هذا في التراب، آه من هذا التراب!

عندما تتطابق الأسماء

استدعيت منذ سنوات إلى مباحث أمن الدولة العليا وبادرني الضابط بسؤال: «إنت مين فيهم؟». وعجبت لسؤاله، واستوضحته عما يريد، فقال: لقد راجعنا السجل المدني فوجدنا أن هناك ثلاثة أشخاص يحملون اسمك... فمن تكون بينهم؟! فقلت له: إنني لا أعرف الشخصين الآخرين، ولكن المؤكد أنني ثالثهما، وكنت حتى ذلك الوقت أعتقد أن اسمي قلّ أن يتكرر، ولكن ها قد اكتشفت أن هناك من يشاركني فيه.

ومنذ ١٦ عاماً دعاني مجمع اللغة العربية بدمشق، وأنا الآن أقدم عضو مصري فيه، للمشاركة في احتفاله بمرور ٧٥ عاماً على إنشائه، فلبيت دعوته، وسافرت إلى دمشق ومكثت هناك أسبوعاً انقطعت فيه عن قراءة الصحف المصرية. وعند عودتي إلى القاهرة قرأت في صفحة «المناعي» تعزية لشخص في وفاة أبيه، وكان اسم أبيه يتطابق مع اسمي. وفوجئت بالهاتف يرن، وكان المتحدث يسأل عمّا إذا كان هذا هو بيت المرحوم فلان؟ فقلت له: نعم، وأنا هو المرحوم! فتلعثم متحرجاً ولم يكتم فرحته عندما اكتشف أن الراحل شخص آخر غيري. وقال: إنه عندما توهم أنني هو المقصود، انبعث بأريحته إلى تدبيج مقال في رثائي أزمع نشره في إحدى المجلات، ولكنه أراد أن يستوثق من تاريخ الوفاة بهذا الهاتف. وبعدما هناني على السلامة، شكرته على مشاعره وقلت له: إياك وتمزيق ما كتبت، فقد تحتاج إليه في غد قريب!

ومن المفارقات أنني أنا الذي قرأت بعد ذلك نعي هذا الصديق مع أنه يصغرني بخمسة عشر عاماً.

ومن نحو شهرين نُعي في الصحف شخص آخر يتطابق اسمه مع اسمي، فتوّهم البعض أنني هو المقصود بهذا النعي. وعندما هاتفت زميلة قديمة

للسؤال عنها قالت: أأنت ما زلت على قيد الحياة؟! لقد تصورت أنك سبقتنا إلى دار الخلود. فقلت لها: إن «عمر الشقي بقي»، ثم أوضحت لها أننا معاشر الصحفيين نُختص بمعاملة كريمة من نقابة الصحفيين والمجلس الأعلى للصحافة عند الرحيل، فينشران نعياً في الصحف للزميل الراحل. وما دامت هاتان الهيئتان لزمتا الصمت، فمعنى ذلك أن الخبر لا يخصني! فقالت: لم أكن أعرف ذلك، وسألاحظ هذا في المرة المقبلة!

وقد قال الشاعر زكي قنصل (١٩١٦ ـ ١٩٩٤):

لا، لم أمت لكنني سأموت	فعلام يستبق الردى عكروت؟
كذب النعي، ولو تحقق لانطوى	للشعر بند، وانقضى ملكوت





الشهرة العالمية التي ضيعتها

كلما قرأت في صحيفة من الصحف أن الاختيار قد وقع على السيد فلان أو السيدة فلانة لإدراج سيرته أو سيرتها في الكتاب السنوي الصادر عن معهد التراجم والسير في المدينة الجامعية البريطانية، لم أملك لهؤلاء إلا الدعوات الصادقات بأن يكون حظهم من الشهرة العالمية والشرف الدولي أفضل من حظي.

وبوصفي مجرباً مع هذه المعاهد البريطانية والأمريكية والأسترالية واللبنانية أسوق للقراء كيف ضيعت بجهلي أو حماقتي أو تقتيري الشهرة العالمية التي سعت إليّ عن طريق هذه المعاهد الموقرة!

فمن بضع سنين تلقيت من المعهد البريطاني في المدينة الجامعية الشهيرة رسالة جاء فيها أن صديقاً لي زكاني للانضمام إلى سجلات التراجم والسير التي يصدرها. وطلب مني أن أملأ استمارة بالبيانات المتعلقة بي، وأن أقوم بدوري بتزكية عشرة من أصدقائي أعتقد أنهم يستحقون شرف الاندراج في هذه السجلات. فبادرت باستيفاء الاستمارتين، وبعثت بهما إلى المعهد المذكور. وبرجوع البريد تلقيت منه رسالة مؤداها أن اللجنة المشرفة على السجلات أعجبت بسيرتي وقررت إدراجها في الكتاب السنوي الذي أستطيع حجز نسخة منه حالاً مقابل ٤٠ جنيهاً إسترلينيا، وهو امتياز لي لأن ثمن النسخة بعد النشر سيكون ٥٠ جنيهاً إسترلينيا. فتجاهلت هذه الرسالة، ولكنني تلقيت بعدها رسالة أخرى جاء فيها أن المعهد ـ تقديراً منه لمؤهلاتي ـ على استعداد لأن يمنحني شهادة رسمية موقعة من المسؤولين فيه ومختومة بخاتم المعهد تشهد على عبقريتي وتميزي، وأن الأمر لن يكلفني إلا خمسين جنيهاً إسترلينياً. أما إن رغبت في الحصول على لوحة من والخشب الفاخر يحفر عليها اسمي بماء

الذهب باعتباري واحداً من العباقرة العالميين، فتكلفة ذلك بسيطة جداً وهي ١٠٠ جنيه إسترليني.

وبعد استشارة ميزانيتي التي تنتمي إلى العالم الثالث، قررت أن أقنع بمنزلتي المحلية المتواضعة، والتضحية بالعالمية التي سعت إليَّ سعياً، ولكن طريقها مفروش بعشرات من الجنيهات الإسترلينية!

ولم ألبث بعد ذلك أن تلقيت رسالة من معهد ثان جاء فيها أنه يصدر كتاباً سنوياً عن ٢٠٠٠ شخصية عالمية، وأن عنوان الكتاب «رجال حققوا منجزات»، وأن المعهد يتوسم في بناء على ما تلقاه من تزكيات ـ بأن أكون واحداً من هذه الصفوة القليلة التي تتربع على قمة الدنيا، وأن تكلفة النشر زائداً ثمن حجز نسخة من الكتاب هي مبلغ رمزي لا يزيد عن ١٠٠ جنيه إسترليني!

ولأنني أعرف أن الجلوس على قمة الدنيا يعرضني لتيارات هوائية لا قِبل لصحتي باحتمالها، فقد طويت هذه الرسالة واستغنيت عن العالمية.

ثم جاءتني رسالة من معهد آخر، ولكن في الولايات المتحدة، تدعوني إلى الانضمام إلى موسوعته السنوية عن أعلام العصر، وطلب مني استيفاء البيانات الواردة في الاستمارة المرفقة. وقيل لي إنه نظراً للإقبال الساحق على الموسوعة، فيحسن بي أن أبادر إلى حجز نسخة منها فوراً مقابل ١٥٠ دولاراً شاملة رسوم الإرسال بالبريد!

وكان مصير هذه الرسالة كمصير ما سبقها من رسائل مقومة بالإسترليني، ويا ضياع العالمية!

وبعد فترة تلقيت رسالة من أستراليا من جمعيّة تطلق على نفسها اسم «برلمان منظمة الفروسية الملكية الدولية»، جاء فيها أن هذه المنظمة تسعى إلى إحياء الأخلاق التقليدية التي اندثرت للفروسية الحقيقية من شهامة ونبالة وأريحية، وأنها توسمت في ـ من واقع التزكيات التي تلقتها ـ بأنني أتحلى بهذه الصفات السامية التي قضت عليها المادية، وأنها لهذا تتشرف بدعوتي إلى قبول عضوية مجلسها الأعلى ـ وهو مجلس عالمي وإن يكن مقر الجمعية في

أستراليا۔ عليّ أن أسهم في تحقيق غايات المنظمة ونشر رسالتها السامية بالتبرع لها بمئة دولار أسترالي! وقالت: إنها ستمنحني شهادة بأنني من الفرسان النبلاء العالميين!

ولأنني لم أمتط في حياتي ظهر جواد كفارس مغوار، فقد احتفظت بهذه الرسالة للذكرى. ومؤخراً تلقيت رسالة مشابهة من بيروت تشتمل على استمارة بيانات يرجى استيفاؤها للإنضمام إلى موسوعة ستصدر باللغة الإنجليزية شاملة سير الأمراء والشيوخ والوزراء بالدولار الأمريكي ومقدماً. وترشيداً للإنفاق ـ بلغة هذه الأيام ـ استغنيت عن الظهور في الموسوعة.

وهكذا اكتشفت أن أبواب الدنيا العريضة قد فتحت أمامي ـ تحقيقاً لمبدأ العولمة ـ وإن كان أدهشني أن كل هذا التشريف ـ المدفوع الثمن بالعملات الصعبة مقدماً ـ قد انهال عليّ من الخارج لا من الداخل.

وأقول استطراداً: إننا إلى عهد قريب كنا نصادف في الأسواق كتاباً سنوياً يصدر في طبعتين إحداهما عربية والأخرى إنجليزية عنوانه «الدليل المصري» وكان يقع في نحو ٢٠٠٠ صفحة ويضم بيانات وافية عن جميع مظاهر الحياة المصرية، زائداً تراجم مختصرة لآلاف من المقيمين في مصر من المصريين والأجانب، وهي بيانات كانت تنشر بالمجان، وكانت النسخة من الدليل تباع بجنيه واحد؛ لأن الإعلانات تتكفل بتغطية النفقات. وقد توقف صدور هذا الدليل الفذ بعد عام ١٩٦٤.



أزمة الكتاب.. وعقلية الروتين الجامد

عندما كان الكتاب يتمتع بحرية التداول في العالم العربي، كان الناشر يطبع في المعدل خمسة آلاف نسخة من الكتاب تنفد في خلال عامين أو ثلاثة على أكثر تقدير. أما اليوم فلم يعد ناشر فطن يطبع هذا القدر من النسخ، وهبط بالمطبوع إلى ما أقصاه ثلاثة آلاف نسخة لن تباع في كل العالم العربي - وعدد سكانه يربو على ٢٠٠ مليون نسمة إلّا بعد عشر سنوات في أحسن الفروض. والسبب الرئيسي في ذلك هو أن الكتاب بات يعامل معاملة الفسيخ، فتفرض عليه قيود بيروقراطية ورسوم جمركية والتزامات مالية فضلاً عن الرقابة الحتمية، ممّا يحدّ من تداوله ويكاد يقتله.

من أيام تلقيت إخطاراً من البريد بأن لي طرداً وارداً من بلد عربي وأن عليّ التوجه إلى مكتب البريد لتسلمه. وفي المكتب طالبني الموظف بتسديد جمارك قدرها عشرة جنيهات عدا الرسوم التكميلية التي ترتفع بالمبلغ إلى خمسة عشر جنيهاً. وطلبت من الموظف أن يريني هذا الطرد الباهظ التكاليف، فألفيته مجرد كتاب أدبي مهدى إليّ من مؤلفه بعدما طرزّ عليه عبارات الإهداء الكريمة. وقلت للموظف: هذا كتاب وليس فسيخاً أو بصلاً، فلم تفرضون عليه كل هذه الضرائب والرسوم؟ فقال: أنا مجرد موظف أنفذ التعليمات، فإما أن تدفع المطلوب وتتسلم الكتاب وإمّا أن نلقي بهذا الطرد في مهملات البريد! فقلت له: أتعني قمامة أو زبالة البريد؟ قال: نعم. فانصرفت قائلاً له: فلتهنأ زبالتكم بالكتب في عصر تقام فيه مهرجانات القراءة للجميع ومعارض للكتب يقال إنها معارض دولية!

بدأت أزمة الكتاب منذ ما سيطرت عقلية «الفسيخ» على مقدراته، فاخترعت استمارة أطلق عليها اسم «ت ص» أي تصدير يستوفيها كل ناشر

عندما يطلب الموافقة على تصدير ولو نسخة واحدة من أي كتاب. وكانت هذه الاستمارة تتضمن البيانات المطلوب استيفاؤها عن اسم المصدّر واسم الكتاب ومؤلفه وثمنه وعدد صفحاته وهكذا. ورغب ناشر في تصدير بضع مئات من نسخ القرآن الكريم إلى الشرق الأقصى، فاستوفى البيانات المطلوبة في هذه الاستمارة ما عدا اسم المؤلف الذي بقي على بياض. ولكن البيروقراطيين المتبقرطين رفضوا إجازة الاستمارة إلّا بعد استكمال بياناتها المنقوصة. فأوضح لهم الناشر أنه يقوم بتصدير مصحف وليس كتاباً عادياً. ولكنهم أكدوا له أن التعليمات المشددة تقضي بعدم ترك خانات بيضاء في الاستمارة. فما كان من الناشر إلّا أن كتب اسم الجلالة أمام عبارة «المؤلف»؟

وحكاية أخرى كان بطلها نفس هذا الناشر الذي تخصص في طباعة القرآن الكريم وتصديره إلى الشرق الأقصى: ماليزيا وجاوا وسنغافورة وإندونيسيا والفلبين وغيرها. فقد تقدم بطلب لاستيراد ورق أصفر يخصص لطباعة المصحف لاعتقاد سكان هذه المناطق بأن اصفرار الورق معناه أن المصحف عتيق ودقيق وخال من التحريف. ولكن طلب الناشر رفض، ونصح باستخدام الورق الأبيض المتوافر في السوق المحلية. وحاول الناشر إقناع البيروقراطيين المتبقرطين بأن لون الورق عنصر حاسم في الثقة في المصحف في هذه البقاع، ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح.

واضطر في آخر الأمر إلى طباعة المصحف على ورق أبيض وشحنه إلى أسواقه المعهودة التي رفضته قائلة إنه محرّف فلا يطمئنون إلى صحته وسلامته.

وإلى وقت قريب كانت المطبوعات كلها ـ بما في ذلك الكتاب ـ تعامل معاملة خاصة، فتنخفض أجور التخليص عليها إلى الحدود الدنيا وتعطي أولوية في التوزيع ـ ولا سيّما الصحف والمجلات ـ لأن من غير المعقول أن يقرأ المشترك الجريدة الصادرة اليوم بعد أسبوع مثلاً، ولكن هذه المعاملة الخاصة التي اشترطتها هيئة اليونسكو على جميع الدول من أعضائها أبطلت ـ بعدما تحكمت عقلية الفسيخ في عملية تداول الكتب ـ وصار الكتاب ـ يعامل بوصفه خطاباً ثقيل الوزن، تقتضي عليه رسوم تخليص كثيراً ما تزيد على ضعفي ثمن الكتاب. ومع ذلك لا يُطمأنّ إلى وصوله إلى غايته.

ومن قبيل المفارقة الصارخة أذكر واقعة أعرف تفاصيلها لأنني كنت طرفاً فيها. فعندما هاجر الأديب الدكتور أحمد زكي أبو شادي (رائد جماعة أبولو) إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٤٦ عبّأ مكتبته الخاصة داخل صناديق توطئة لشحنها إلى أمريكا. ولكن البيروقراط المتحكم رفض تصدير الكتب، فبقيت مخزونة في مخازن الاستيداع (ويسمونها البوند) في ميناء الإسكندرية، وظل أبو شادي يبعث بالرسائل والبرقيات من أمريكا لاستعجال شحن الكتب إليه دون جدوى. وبقيت الكتب عرضة للأمطار والرطوبة والرياح أربع سنين وهي لا تتحرك من مكانها. وعندما شرح لي أبو شادي هذه المشكلة، بعثتُ برسالة بالبريد العادي (لا تحمل أي طوابع دمغة) إلى وكيل وزارة المالية (المرحوم الدكتور محمد توفيق يونس) ـ وكان صديقاً لي ـ وقلت فيها إن أبا شادي يقوم بدور السفير العلمي لأمة العرب في أمريكا، فيلقي محاضرات في الجامعات والمعاهد والإذاعة، ويكتب في الصحف ويشارك في المنتديات العلمية، وهو بالتالي في حاجة إلى مكتبته الخاصة التي تضم مراجعه حتى يؤدّي رسالته العلمية والوطنية والقومية على خير وجه. وشرحت للدكتور يونس أن هذه المكتبة تكاد تتلف في مخازن الاستيداع في الميناء بسبب الإجراءات المعقدة، ورجوته أن يحسم هذه المشكلة فوراً.

وبمجرّد أن تسلم الدكتور يونس خطابي هاتفني قائلاً: إنه أمر بتصدير الكتب فوراً دون أي إجراءات ما عدا ضرورة عرضها على الرقيب لأن الرقابة ليست من سلطته. وتوجهنا إلى الرقيب في الإسكندرية وقلنا له إن هذه الصناديق تضم آلافاً من الكتب، والمطلوب من سيادتك أن تقرأها كلها وتوافق على شحنها. ولكن نرجو التعجيل بقراءتها حتى لا يتعطل شحنها أكثر من ذلك! فطلب الرقيب الأوراق ووقع عليها بالموافقة على التصدير دون أن يقرأ حتى عناوين الكتب! وهكذا تسلم أبو شادي مكتبته الخاصة في أمريكا بعد خمس سنين من هجرته، وكان فرحه بها عظيماً.

وهكذا تغلبت عقلية العلم والفهم على عقلية الفسيخ!

وقد يسأل سائل عن مصير مكتبة ابي شادي بعد وفاته في عام ١٩٥٥، لقد آلت هذه المكتبة إلى جامعة يوتا UTAH الأمريكية مهداة من صفية أبي شادي كريمة الشاعر، فخصص لها جناح مستقل وصارت مرجعاً للباحثين.

عندما عدت إلى ارتداء الطربوش!

حوالي عام ١٩٤٥ كنت واقفاً في مطبعة جريدة «المقطم» أقوم بتنضيد الصفحة الأولى، عندما جاءني رئيس التحرير كريم ثابت باشا وسألني: هل لديك طربوش؟ فدهشت لسؤاله، وقلت له: إنني طلقت الطربوش منذ بداية المرحلة الجامعية. فقام بنفسه بخلع طربوش زميلي الواقف معي ووضعه على رأسي. ولأن الطربوش كان كبير الحجم فقد أملته قليلاً لا من قبيل الوجاهة كما كان يفعل علي ماهر باشا رئيس الوزراء العتيد، بل حتى لا يختفي وجهي كله تحت «كبسة» الطربوش. ثم قال لي: خذ معك كمية من الورق الأبيض ولا تنس القلم وتعال معي.

فركبنا سيارته وأمر سائقه محمد صالح بأن يتوجه إلى الطريق الصحراوي. وبعدما خرجت السيارة من حدود مصر الجديدة، وجدنا أنفسنا في قطعة من الصحراء الجرداء، يخترقها طريق مرصوف رصفاً خشناً، وليس من حولنا أي أثر للحياة فلا مساكن، ولا أشجار، ولا مارة، فإلى أين نحن ذاهبون؟ لم أجرؤ على توجيه هذا السؤال إلى رئيس التحرير. ولكن لما رأيت من على بعد برجا يشبه أبراج المطارات أيقنت بأننا ذاهبون إلى مطار وهو ما تحقق عندما اقتربت السيارة من المطار العسكري الأمريكي المسمى «بين فيلد» الذي أطلق عليه اسم أول طيار أمريكي لقي مصرعه في الحرب العالمية الثانية التي كانت ما زالت مشتعلة الأوار. وانطلقت السيارة إلى أرض المطار، لا تعترضها نقاط حراسة أو تفتيش.

ولما ترجلنا من السيارة رأينا طائرة ضخمة جاثمة على أرض المطار عرفنا بعد ذلك أنها من طراز «كونستلليش» وأنها أحدث وأضخم طائرة عسكرية أمريكية. وكان يقف إلى جانب الطائرة قائد جوى أمريكي يرتدي بذلته

العسكرية التي تزدان بعشرات من النياشين والرصائع، وبالقرب من الطائرة احتشد عدد من رجال القصر الملكي منهم أحمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان ومحمد حيدر باشا ياور الملك ووزير الدفاع والدكتور حافظ عفيفي باشا وإكرام عرفان سيف النصر بك وهو من التشريفياتية، أو الأمناء بلغة هذه الأيام، وكان هناك صحفيان كبيران هما أنطون الجميل باشا رئيس تحرير «لأهرام» وفكري أباظة باشا رئيس تحرير «المصور».

وكان من الطبيعي مع وجود هؤلاء جميعاً أن يكون الجميع في انتظار وصول جلالة الملك فاروق، الذي وصل وهو يقود بنفسه سيارة جيب بلا حراسة، وكان يرتدي بدوره زي القائد الأعلى للقوات الجوية ويضع على عينيه نظارة شمس. فهب الجميع لاستقباله يتقدمهم القائد الجوي الأمريكي الذي دعا الملك إلى الصعود إلى هذه الطائرة الضخمة لتفقد أجهزتها، ولحق به رجال القصر. وعندما هبطوا من الطائرة توجه الملك مع القائد الأمريكي إلى برج المراقبة مع رجال القصر ولم أجرؤ على صعود البرج، ولكن محمد حيدر باشا ـ ولم أكن أعرفه ـ أمسك بيميني وصعدنا معاً لنتابع شرح القائد الأمريكي لأجهزة البرج. وعندما انتهت هذه المرحلة من الزيارة توجه الملك مع مضيفه ورجال القصر إلى «ميس» الضباط ـ أو المقصف ـ لتناول المشروبات والمرطبات، وكنت أنا واقفاً في الخارج أسمع قهقهات الملك فاروق المرتفعة تجلجل مخترقة جدران المقصف.

وكان كريم باشا قد أشار إلى جهاز تليفون قريب وطلب ألا أبتعد عنه. وكان طوال مدة الزيارة يقترب مني ويملي عليّ وصف هذه الزيارة ويطلب إملاءه على الجريدة من خلال التليفون، وهو ما تكرر أربع مرات أو خمساً. بل إنه كان يخرج من المقصف ليواصل إملاءه فأقوم بدوري بإملائه على الجريدة.

وفي ختام الزيارة أملى لي عناوين الموضوع وحدد المساحة التي ينشر فيها في الجريدة فنقلت ذلك فوراً إلى الجريدة.

وبانتهاء الزيارة غادر الملك أرض «بين فيلد» مشيعاً بعبارات الشكر على تشريفه، وقاد بنفسه السيارة الجيب عائداً إلى القصر الملكي.

وكان هناك المصور الخاص لجلالة الملك واسمه رياض شحاتة، وقد التقط عشرات من الصور في هذه المناسبة. وقد عنّ لي بعد ذلك أن أزور الاستوديو الخاص به في ميدان الأوبرا - مكان سينما أوبرا التي هدمت مؤخراً، وإن أطلب الاطلاع على مجموعة الصور التي التقطها واقتنيت منها صورتين ظهرت فيهما وكأنني واحد من الحاشية الملكية!

ومما يذكر أن مطار «بين فيلد» آل إلى السلطات المصرية بعد انتهاء الحرب وأصبح مطار القاهرة الدولي، وببناء المطار الجديد أصبح يعرف بالمطار القديم.



أغلقنا المقطّم في نوفمبر والمقتطف في ديسمبر ٥٢

ذات يوم زارني في الجريدة رجل يوناني لا أعرفه قال إن اسمه إدريان دانينوس وإنه مهندس مدني، وأخرج من حقيبته خرائط وأوراقاً كثيرة، وقال لي إن لديه مشروعاً يحقق لمصر الاستفادة الكاملة من مياه النيل. وأخذ يشرح لي مشروعه قائلاً إن وراء أسوان جبلين على جانبي نهر النيل، ولو أنشىء سد من هذا الجبل إلى ذاك لأمكن حجز ماء الفيضان كله عوضاً عن اندفاعه إلى البحر المتوسط. وأطلعني على شهادات من كبار مهندسي الري البريطانيين تشهد له بسلامة مشروعه، ورجاني أن أتناول هذا الموضوع الحيوي في مقالاتي. فقلت له: إنني لست خبيراً ولكنني سأطالب الخبراء بأن يهتموا بدراسة هذا المشروع، وفعلاً كتبت عدة مقالات قامت وكالة اليونيتدبرس بترجمتها ونشرها في الخارج كما علمت من مدير مكتبها في القاهرة. وعندما قامت الثورة وأنشأت مجلساً للإنتاج القومي توجه دانينوس إلى هذا المجلس ومعه مشروعه، فأخذوه منه ثم صرفوه وصاروا يتهربون من مقابلته. وقد تحول مشروعه بعد ذلك إلى السد العالي الذي أقيم في أسوان. وآخر مرة رأيت فيها دانينوس كان يسير في شارع الجمهورية ـ حيث كان يقيم ـ وهو يكلم نفسه!

وكانت القضيتان الرئيسيتان اللتان استأثرتا بكثير من كتاباتي، قضية الاحتلال البريطاني لمصر، وكنا قد اختصرناها في عبارة موجزة هي «وحدة وادي النيل تحت تاج الفاروق». أما القضية الثانية فهي قضية فلسطين، وكنا وقتها نرفض جميع مشروعات التقسيم وتدويل القدس ولا نشير إلى إسرائيل إلا بوصفها «مزعومة». واليوم إذ أعود إلى ما كتبته عن هاتين القضيتين، أكاد

آسف على الجهد والعناء الذي بذلته بلا طائل. فأين وحدة وادي النيل؟ وأين تاج الفاروق؟ وهل يزعم أحد اليوم بأن إسرائيل مزعومة؟

ولأن الولايات المتحدة في عهد الرئيس ترومان كانت منحازة إلى إسرائيل انحيازاً مطلقاً، فقد هاجمت السياسة الأمريكية في كثير من مقالاتي. وذات يوم تلقيت رسالة من المستشار الثقافي للسفارة الأمريكية يقول فيها: إن الحكومة الأمريكية وضعت برنامجاً لزيارة «قادة» من بلدان مختلفة أطلقت عليه اسم Grant leader وأنها قد اختارتني لزيارة الولايات المتحدة ضيفاً على الحكومة لمدة ٣ أشهر قابلة للامتداد إلى ٦ أشهر. ولم يكن من سداد الرأي أن أهاجم أمريكا في مقالاتي ثم أقبل دعوتها لأكون ضيفاً على حكومتها، فبادرت بالاعتذار من عدم قبول هذه الدعوة في حين قبل غيري.

ترجمة مقالاتي

ظلت قضية تصفية «المقطم» متداولة في المحاكم وارتأينا نحن العاملين في التحرير والإدارة أن أرزاقنا مهددة بالضياع فطلبنا إعفاء أصحاب الجريدة من كل مسؤولية عن تحريرها وإدارتها وأنشأنا فيما بيننا مجلساً للتحرير والإدارة كنت عضواً فيه. تكفلنا بجميع أمور الدار ونفقاتها وتحملنا أعباء دفع مرتبات العمال والصحفيين والإداريين، وتوافقنا مع الحكومة على أن ننشر لها إعلاناتها أيا كان حجمها، ونوافيها بجميع طلبات الاشتراك أيا كان مقدارها مقابل مبلغ شهري مقطوع هو ٥٠٠ جنيه، وأفلحنا فعلاً في تسيير أمور الدار حتى بعد وفاة مؤسسها فارس نمر باشا في ديسمبر ١٩٥١ وكان عمره ٩٥ عاماً. وكانت الصحف الأجنبية الصادرة في مصر (الجازيت، والأجبشيان ميل، والبروجريه، والجورنال ديجبت، ولابورص ايجبسين» تترجم مقالاتي يومياً في أبوابها الخاصة بأقوال الصحف المصرية.

كنا متفائلين بالنسبة للمستقبل حتى جاء يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عندما أذاع الراديو في الصباح الباكر بياناً بتوقيع اللواء محمد نجيب مؤداه أن الجيش قام بحركة. كانت صحف الصباح قد صدرت خلواً من أي إشارة إلى هذه

الحركة، وفوجئت عند دخولي إلى مكتبي في الثامنة صباحاً بمكالمة تليفونية من نجيب كنعان سكرتير تحرير «الأهرام» يسألني عما سنفعله في شأن بيان حركة الجيش. فقلت له: إننا أوفدنا مندوباً إلى رياسة مجلس الوزراء، وكان رئيس مجلس الوزراء وقتها هو أحمد نجيب الهلالي باشا، للوقوف على التفاصيل. ولكن مجلس الوزراء أحال مندوبنا إلى قيادة الجيش في العباسية التي تحولت إلى ثكنة مسلحة. وحاول مندوب الجريدة الاستفسار عما حدث، فطردوه عندما علموا أنه يمثل جريدة «المقطم».

في ذلك الوقت كان هناك ثلاث صحف مسائية متنافسة هي «المقطم» و«البلاغ» لصاحبها عبد القادر حمزة باشا و«الزمان» لصاحبها إدجار جلاد باشا، وكانت الصحف الثلاث تتسابق على الظهور قبل الساعة الثانية بعد الظهر، وهو موعد انصراف الموظفين من مكاتبهم، إذ كان الموظفون هم القراء الرئيسيين للصحف، فيشترون صحف الصباح وهم ذاهبون إلى مكاتبهم، وصحف المساء وهم منصرفون إلى دورهم. وفي يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أحجمت صحف المساء عن هذا السباق بسبب غموض الموقف تماماً من حركة الجيش. فالملك فاروق ما زال جالساً على العرش، والحكومة الشرعية ما زالت تمارس عملها برياسة أحمد نجيب الهلالي باشا وحركة الجيش مجهولة الهوية إلا من البيان الذي أذيع على الناس، وإن كان واضحاً أنه بيان عام غامض وأن الحركة لم تنل «بركة» النظام القائم، وخشي المسؤولون عن الصحف الثلاث من سوء المصير إذا ما احتفوا بهذه الحركة، ثم أصيبت بنكسة تطيح بالرقاب.

وعقدنا في «المقطم» اجتماعاً قررنا فيه عدم إمكان تجاهل البيان الذي أذيع فعلاً، وتكررت إذاعته، فنشرناه في الصفحة الأولى بنصه وبعناوين منقولة حرفياً من نصه. وفي الساعة الثانية بعد الظهر كانت جريدتنا هي أولى صحف المساء في الصدور، وبالتالي أولى الصحف المصرية قاطبة في نشر أخبار الحركة المباركة كما باتوا يسمونها.

كتبت عن مشكلات مصر

وفي الأيام التالية استمر طرد مندوب الجريدة من القيادة، فكان يتسقط الأخبار من زملائه الصحفيين. ووقع عليّ بوصفي كاتب مقالات الصدر الافتتاحية بتوقيعي عبء التعليق على هذه الأحداث، فاخترت أن أتحدث عن مشكلات مصر وهي ثالوث أثيم: الفقر والجهل والمرض... وأشير إلى ضرورة توجيه العناية إلى معالجة هذه المشكلات. واستمررت أعالج مشكلات مصر بصورة عامة فكتبت عن التمثيل الدبلوماسي وخطورة خفضه اقتصاداً للنفقات وعن الاستقرار الداخلي وعن أصوات دعاة التطهير التي انبعثت منذ انتهاء حرب فلسطين، وعن الإصلاح ومن أين يبدأ، وعن النهوض بالزراعة وأمل الصناعة في مصر، وعن إلغاء عقلية الألقاب، وعن السيد الذي ولد مع الثورة «أعني أن السيد هو الشعب»، وعن النظام البرلماني في مصر وعن النظام الحزبي في مصر، وعن الاستقرار الإقتصادي، وعن تجنيد العقول الكبيرة في عصر الانبعاث القومي الجديد، وعن الرجعية المقيتة في مصر، وعن محاذرة التسرع عند تنفيذ مشروعات الإصلاح الداخلي. وكتبت مقالاً بعنوان: «فليكن تنافسنا على الخدمة والعمل لا زحاماً على الكسب والغنم».

ولكن هذا التناول الموضوعي لمشكلات مصر لم يعجب المسؤولين الجدد لأنه خلا من أي محاولة للتزلف لهم أو مداهنتهم. فجاءني رئيس التحرير فزعاً وهو يقول لقد كلمني الضابط المسؤول عن الصحافة مهدداً وقائلاً: ما هذا الكلام الفارغ الذي تكتبونه؟ سأبعث بدبابة تعتقلكم! فقلت لرئيس التحرير ما دام الأمر كذلك فسأتحول بكتابتي إلى الشرق الأقصى حيث كانت رحى الحرب تدور في الهند الصينية ومنشوريا. وعاد الضابط يهدد رئيس التحرير: بقوله ما هذا الكلام الفارغ الذي تكتبونه؟ ألا تعيشون في مصر؟ سأبعث بدبابة تعتقلكم!

ولم يبعث حضرته بدبابة، وإنما بعث بمخبر وشاويش انتظراني عند باب بيتي وساقاني إلى المبنى المجمع بميدان التحرير، وكان المبنى ما زال في طور التشطيب باستثناء الطابق العاشر الذي احتلته النيابة العسكرية. وحبست

في إحدى الغرف مع فيليب حنين سكرتير تحرير جريدة الجازيت ـ وكنت أعرفه ـ وفرانسوا حداد وهو صاحب وكالة فرنسية لترجمة أقوال الصحف المصرية، ولم أكن أعرفه. وكانت الغرفة تطل على الجامعة الأمريكية، وكنت وقتها أقوم بتدريس علوم الصحافة في الجامعة إلى جانب عملي الصحفي. ونظرت من النافذة في موعد إلقاء محاضرتي ورأيت طلابي يصعدون درج المبنى الرئيسي ثم ينحرفون يساراً إلى القاعة التي كنت ألقي فيها محاضراتي حيث اكتشفوا غيابي للمرة الأولى منذ ما بدأت التدريس، وخرجوا من القاعة وهم في دهشة من أمري.

بقيت محبوساً في هذه الغرفة في الطابق العاشر بكل ثيابي دون أن يقدم إليَّ أي طعام أو شراب، ودون حلاقة ذقني ثلاثة أيام. وكنت إذا رغبت في التوجه إلى دورة المياه استأذنت من الشاويش الحارس فكان يتبعني وبندقيته مسلطة عليَّ. وعندما استدعاني المحقق للمثول أمامه في اليوم الثالث وجدت في غرفته مراسلاً صحفياً من أبناء جنوب إفريقيا البيض ـ وكنت أعرفه وقد نسيت اسمه ـ فانتفض هذا المراسل واقفاً وخاطب المحقق تلقائياً مدافعاً عني قائلاً: إنه يتطوع بالشهادة على حرصي على شرف المهنة وأمانتها وأنه دهش لكونه رآني موضوع شك أو اتهام. وقال: إنه انبرى لتقديم هذه الشهادة من تلقاء نفسه خشية أن يصيبني ظلم أو إساءة.

اقتصر المحقق على سؤالي عما إذا كنت أعرف زيداً أو عبيداً، وكان ينقل من قائمة تضم نحو عشرين اسماً، فقلت له: إني لا أعرف معظمهم في حين كنت أعرف أسماء قلة منهم دون أن تكون لي بهم أدنى صلة، فأمر بتسريحي.

وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى الجريدة وأنا عازم على ألا أكتب فيها حرفاً بتوقيعي، واقتصرت على عملي في ترجمة التلغرافات الخارجية. وكان آخر مقال نشر لي في صدر الجريدة بإمضائي يحمل تاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٥٢ وهو يوم اعتقالي، وكان موضوعه «دور هيئة الأمم المتحدة: تحذير للعرب من تعليق آمال عليها».

خالفت الحكومة اتفاقها معنا وقطعت عن الجريدة المبلغ الشهري الذي كانت تسدده مقابل نشر الإعلانات الحكومية وتوريد الاشتراكات إلى مصالحها وهو ٥٠٠ جنيه وزعمت أنه يمثل «مصروفات سرية» كانت تقدم إلى الجريدة، رغبة في التشهير بها. وتدهورت الأوضاع المالية للجريدة وانفض المحررون عن السفينة الغارقة بقبول العمل في صحف أخرى، ورفض أصحاب الجريدة أن يمدوا إلينا يداً، واستمر مندوبو الجريدة يعاملون معاملة سيئة من الحكام الجدد، ولم يكن هناك مفر من إغلاق الجريدة في أواسط شهر نوفمبر ١٩٥٢. أما مجلة «المقتطف» فقد أغلقناها بعد صدور عدد ديسمبر ١٩٥٢ استكمالاً لعامها السابع والسبعين، وحتى يحصل المشتركون على أعداد السنة كاملة.

أنت مغضوب عليك!

حاولت بعد ذلك أن أعمل في الصحف فكان يقال لي: أنت مغضوب عليك من الثورة؟! لماذا؟ لا أدري. فلم أكتب حرفاً واحداً ضدها، وإن كانت المعاملة التي عوملت بها أورثتني شكوكاً كثيرة من ناحيتها. كنت وأنا أعمل في «المقطم» أتلقى عروضاً للعمل في صحف أخرى فاستدعاني الدكتور السيد صادق أبو النجا مدير جريدة «المصري» وعرض عليَّ أن أعمل معه في الإدارة فشكرته وقلت له: إنني سعيد بعملي الحالي في التحرير، واستدعاني عزيز ميرزا بك، وكان مع زميليه أحمد الصاوي محمد ومحمد زكي عبد القادر يرأسون تحرير جريدة «الأهرام» بعد وفاة أنطون الجميل باشا وعرض عليَّ أن أعمل معه في تحرير الأهرام اليومي والأهرام الاقتصادي الشهري، فأبديت له زهدي في تغيير عملي الحالي، وإن كنت تعاونت معه في إخراج ثلاثة ملاحق للأهرام الاقتصادي عن اليابان وألمانيا الغربية وإندونيسيا. أما الآن فجميع الأبواب موصدة في وجهي إلا باباً واحداً هو باب الترجمة زائداً التدريس في الجامعة الأمريكية.

قررت بعد هذا أن أمتنع نهائياً عن كتابة الموضوعات السياسية، وتحولت إلى الاقتصاد حيث عرض عليَّ أن أحرر «مجلة الاقتصاد والمحاسبة»

التي كان يصدرها نادي التجارة الملكي، فأشرفت عليها عامين كاملين وحولتها من مجلة شهرية إلى مجلة نصف شهرية. ولكن الشباب من خريجي كلية التجارة عز عليهم أن يشرف على مجلة ناديهم من ليس منهم فدسوا له لدى إدارة النادي، وقررت الانسحاب بعدما تسمم الجو، وفوجئت بتعيين شيوعي رئيساً لتحرير المجلة التي لم تلبث أن توقفت!

وكنت طوال عملي في الصحافة أشغل نفسي بالأدب باعتباره هواية، فقررت الانصراف إليه تماماً، وجعلت متنفسي الكتابة في المجلات الأدبية خارج مصر مما أنشأ لي صداقات واسعة مع معظم أعلام عصري من الأدباء والكتاب والشعراء في مصر وفي البلاد العربية وفي المهاجر الأمريكية. و«الأحاديث المستطردة» التي نشرتها لي جريدة «الحياة» في لندن منذ سنوات تحوي طرفاً من هذه العلاقات الأدبية الواسعة التي أنشأتها، ولا أظن أن هناك كثيرين يزاحمونني فيها.

بعد إغلاق «المقطم» بقيت في بيتي ثلاث سنين بلا عمل نظامي وبلا دخل منتظم معتمداً على الترجمة في المقام الأول. وتأكد لي أن عودتي إلى الصحافة العملية باتت شبه مستحيلة، ولا سيما بعدما صارت المقاليد الرئيسية في الصحف في أيدي العسكريين، بل صار نقباء الصحافة منهم (صلاح سالم ويوسف السباعي).

وبفضل الترجمة وقع عليَّ الاختيار لأكون كبير المترجمين في التحكيم الدولي المعروف باسم «قضية أوناسيس». وتتحصل هذه القضية في أن المليونير اليوناني المعروف أوناسيس وقع عقداً مع الحكومة السعودية يحتكر بموجبه نقل البترول السعودي بناقلاته الخاصة وفقاً لما يمليه من شروط، فاعترضت شركة أرامكو صاحبة الامتياز على هذا العقد لتعارضه مع الحقوق الممنوحة لها بموجب امتيازها. . . وتقرر تسوية هذا النزاع عن طريق التحكيم الدولي المنعقد في جنيف باللغتين العربية والإنكليزية. وهكذا وجدت نفسي مسؤولاً عن فريق من المترجمين من لبنان والأردن والسعودية وسورية والعراق والعرب المتأمركين، كما وجدتني أتعامل مع رجال قانون ذوي قامة شاهقة

منهم رئيسان سابقان لمحكمة العدل الدولية في لاهاي، ومنهم لورد بريطاني، ومنهم الشريك السابق للرئيس نيكسون في مكتب المحاماة، فضلاً عن أقطاب القانون المصريين الدكتور سابا حبشي باشا، والدكتور حامد سلطان، والدكتور حلمي بهجت بدوي، ومحمود حسن باشا.

كان لا بد بعد انتهاء هذا التحكيم من أن أغير اتجاهي، فعملت في إدارات العلاقات العامة والقانونية في شركات البترول الأجنبية في مصر والخارج، وعملت في بعض هيئات السلك الدبلوماسي، وواصلت اهتماماتي الأدبية بالكتابة في المجلات التي تصدر في البلدان العربية كمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ومجلة «الأديب» اللبنانية، وغيرهما. ولأنني هاجرت بقلمي إلى الخارج فقد توهم بعض الأدباء أنني صرت من «سقط المتاع»!

وأذكر في هذا المقام واقعتين لهما دلالتهما:

قصيدة فرحت بها!

كان الشاعر عامر محمد بحيري قد حياني بقصيدة طويلة بمناسبة صدور أول كتاب لي، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أراني فيها موضوع اهتمام الشعراء، ففرحت جداً بقصيدته، ونشرتها هنا وهناك. ثم كتبت مقالاً عن عامر أشدت فيه بشاعريته عند صدور أول ديوان له. كان هذا في عام ١٩٤٥، وعندما نشر عامر ديوانه المجموع في عام ١٩٨٢، وكان هو قد أصبح شاعراً عظيماً في حين أصبحت في رأيه من سقط المتاع، أعاد نشر قصيدته العصماء في الديوان، ولكن بعد أن تحولت إلى مجرد ثلاثة أبيات بعنوان «تحية أديب» مجهول ومع ذلك فإن الشاعر لم ير بأساً من أن ينقل شهادة هذا الأديب المجهول في آخر ديوانه لأنها تنطوي على تمجيد لشاعريته!

أما الواقعة الثانية فتخص أديباً أردنياً زارني على غير معرفة سابقة وقال: إنه يعد رسالة دكتوراه في جامعة القاهرة عن الشاعر المهجري إلياس فرحات. وقال: إنه بحث في كل مكان عن دواوينه فلم يعثر على شيء منها، وهو بالتالي عاجز عن الشروع في بحثه. وسألني عما إذا كان في وسعي توجيهه،

فقلت له: إن جميع دواوين فرحات عندي، وعندي كذلك ديوانان مخطوطان كان قد رغب إليّ في السعي في نشرهما في مصر، فلم أوفق. وقلت له: إنني لن أعيره كتبي ولكنني سأطلب من صديقي فرحات المقيم في البرازيل أن يهديه جميع دواوينه وأن يرد على جميع استفساراته ويساعده في إنجاز رسالته. كما أعطيت عنوان الشاعر فرحات في البرازيل إلى هذا الشاب حتى يكون الاتصال بين الطرفين مباشراً. وبهذا سهل على هذا الشاب أن ينجز رسالته وأن ينال درجة الدكتوراه، ووُفِّق في طبع رسالته قبل عودته إلى بلده. ورغب في زيارتي لإهداء الكتاب إليّ فشكرته على فضله، ولما انصرف، تصفحت الكتاب عساي أجد فيه إشارة إلى اليد التي قدمتها إليه فلم أعثر فيه إلا على إشارة بأن مخطوطات دواوين فرحات موجودة عند «صديق في القاهرة»، ولا بد طبعاً أن هذا الصديق من سقط المتاع ولا يستحق التنويه باسمه.

ومما عزاني عن هذا الجحود، الذي تكرر في حياتي، أن مجمع اللغة العربية بدمشق كرمني بانتخابي عضواً مراسلاً فيه منذ عام ١٩٨٦ ودعاني للمشاركة بكلمة في احتفالاته بعيده الماسي، كما اختارني مجمع اللغة العربية الأردني عضواً مؤازراً فيه منذ عام ١٩٨٨.

ولم أشأ أن تكون الصحافة هي ميدان تخصصي الأول دون أن تكون لي مساهمة في الكتب التي تتناولها. فترجمت ثلاثة كتب عن الصحافة، أشاد بها أستاذ أستاذ الصحافة الدكتور خليل صابات هي: «استقاء الأنباء فن ـ صحافة الخبر» بمقدمة لمحمد زكي عبد القادر، و«مقدمة إلى علوم الاتصال» و«العلاقات العامة فن» وقد تعاون معي في ترجمته زميلي الدكتور حسني خليفة.

وأصدرت كتباً أدبية منها «قضايا الفكر في الأدب المعاصر» و«مختارات من الشعر المعاصر وكلام في الشعر» و«مي: حياتها وصالونها وأدبها» و«ناجي: حياته وأجمل أشعاره»، وترجمت كتباً متعددة، وحققت ديوانين مخطوطين للشاعر الدكتور أحمد زكي أبي شادي رائد أبولو، واشتركت في إعداد «الموسوعة العربية الميسرة» بإشراف الدكتور محمد شفيق غربال.

و«موسوعة تاريخ الأقباط» التي صدرت في أمريكا باللغة الإنجليزية في ثمانية أجزاء بإشراف الدكتور عزيز سوريال عطية وموسوعة «كومبي» الإسبانية المصورة.

وفي عام ١٩٤٩ فزت بجائزة فاروق الأول للصحافة الشرقية، وهي جائزة كانت تمنح للصحفيين المتفوقين دون الثلاثين من العمر.

ومنحتني حكومة إسبانيا نيشان الاستحقاق المدني من طبقة كوماندور عام ١٩٥٢.

وأعود فأعتذر للقارىء عما قد يكون في هذا الكلام المرسل من حديث شخصي قد لا يهمه في القليل أو في الكثير. وأعترف بأنني ما كنت لأكتبه لولا الثقة الغالية التي أنستها من محرر «الهلال» مصطفى نبيل ومن الزميلة العزيزة صافي ناز كاظم.



صاحب الديوان اللعين

يوافق عام ٢٠١٠ مرور قرن كامل على ميلاد الشاعر محمود حسن إسماعيل في قرية النخيلة في صعيد مصر. ومع أن هذه المناسبة كانت كفيلة بإثارة الاهتمام بهذا الشاعر على المستوى الثقافي العام، ولا سيما من جانب لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة أو كلية دار العلوم وهو من خريجيها، غير أنه لم تبد حتى الآن أي بادرة على الاحتفاء بذكرى شاعر من أكبر شعراء مصر، حتى وإن كاد النسيان يبسط أستاره عليه.

عرفت محمود حسن إسماعيل في عام ١٩٤٦ عندما عرض عليَّ صديقي الشاعر الدكتور مختار الوكيل أن نزوره في مكتبه بوزارة الشؤون الاجتماعية، وكان يعمل وقتها سكرتيراً لتحرير «مجلة الشؤون الاجتماعية» الشهرية التي كانت الوزارة تصدرها.

تهيبت لقاء الشاعر دون معرفة سابقة ودون موعد مضروب سلفاً، ولكن مختار الوكيل أكد لي أن مقابلته لا تخضع لأي بروتوكول أو مراسم تحتم تحديد موعد مسبق للقاء.

وفور وقوفنا بباب مكتب محمود حسن إسماعيل هرع لاستقبالنا بحفاوة نلت حظاً منها لأنه، وإن كان يعرف الشاعر مختار الوكيل، فلقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يراني فيها ولعله لولا صحبة مختار الوكيل لأغلق الباب في وجه هذا الطارق المجهول.

ولم نكد نجلس في مكتبه، حتى فتح درجاً واستخرج منه نسختين من ديوانه الجديد «ديوان الملك» المطبوع طباعة فاخرة تتصدره صورة الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان، وكتب إهداء كريماً على كل نسخة. ولعله بسبب صحبتي للشاعر مختار الوَكيل قد جاملني بعبارات لا أستحقها.

وكان طبيعياً أن أهتم بالكتابة عن هذا الديوان لإعجابي به شكلاً وموضوعاً. وسألت محمود حسن إسماعيل من يكون رئيس تحرير «مجلة الشؤون الاجتماعية» فقال: إنه حسن الشريف. يا له من اسم لأديب كبير طالما تابعت كتاباته وترجماته في مجلة «الهلال» بإعجاب شديد بأسلوبه الأدبي البليغ. ولم أكد أبدي هذا الإعجاب بحسن الشريف ـ وهو مع الأسف من مظاليم الأدب ـ حتى نهض محمود حسن إسماعيل وفتح الباب بين غرفته وغرفة حسن الشريف، وبقدر اغتباطي للقاء هذا الأديب الكبير صدمت إذ رأيته يعاني من فالج في نصفه الأيسر، وكان يتحرك بصعوبة، ومع ذلك نهض للترحيب بنا، بل دعانا إلى الكتابة في «مجلة الشؤون الاجتماعية»، فلبيت دعوته حيث نشر لي مقالين فيها. وهذه المجلة، التي لم تعمر طويلاً كانت تحتفي بمقالات كاتبين دؤوبين هما سيد قطب وسلامة موسى، وكان كلاهما يكتب عدة مقالات، فيوقع واحدة باسمه الكامل ويوقع بقية المقالات بالحرفين الأولين من اسمه. والغريب أن سكرتير تحرير المجلة محمود حسن إسماعيل لم ينشر شيئاً في هذه المجلة، لا من شعره ولا من نثره القليل.

وكان محمود حسن إسماعيل قبل التحاقه بهذه الوزارة قد عمل فترة في التدريس وفي إدارة الثقافة بوزارة المعارف العمومية.

ثم إن الإذاعة المصرية كانت في ذلك الوقت تابعة لشركة ماركوني، فلما آلت إلى الحكومة المصرية ألحقتها بوزارة الشؤون الاجتماعية حيث لم تكن هناك وزارة للإعلام ولا للثقافة. وعندما تولى عبد الجليل أبو سمرة باشا وزارة الشؤون الاجتماعية، طلب من معاونيه أن يعدوا له كلمة لإلقائها في المذياع، وكان ممّا جاء فيها استشهادٌ بقول الشاعر:

أواه لو عرف الشباب

وآه لو قدر المشيب

فقرأ الوزير البيت على النحو التالي:

واحد وخمسون وواحد من عشرة لو عرف الشباب وواحد وخمسون لو قدر المشيب!

ولعل صحافة تلك الأيام هي التي تندرت على الوزير بهذه الحكاية.

وعندما أغلقت مجلة الشؤون الاجتماعية، نقل محمود حسن إسماعيل داخل نفس الوزارة إلى الإذاعة في وظيفة تتفق مع وضعه الوظيفي. وكان خبر صدور «ديوان الملك» قد سبقه إلى الإذاعة فتوهم العاملون فيها بأن الموظف الجديد سيحظى بمنصب كبير. ولكن الواقع أن محمود حسن إسماعيل لم تنفتح أمامه أبواب الحظ، فلا نال رتبة من الرتب الكبيرة التي كانت تمنح في ذلك الوقت وهي البكوية والباشوية، ولا جنى أرباحاً طائلة من ديوان يحمل اسم الملك. بل واقع الأمر أن هذا الديوان تحول إلى ما يشبه العقدة النفسية للشاعر، ولا سيما بعد قيام الثورة وانخراطها في عمليات فرز بين العاملين في الدولة لاستبعاد من يشتبه في انتمائهم إلى العهد البائد البغيض.

ومؤكد أن «ديوان الملك» يعتبر وثيقة دامغة تدين الشاعر. ومن هنا حرص الشاعر حرص البخيل على أن يكتم خبر هذا الديوان ويكاد يحذفه من إنتاجه. بل إنه فاجأ المجتمع الأدبي بديوان جديد عنوانه «نار وأصفاد» وهو ديوان ثوري يمجد الكفاح والجهاد أراد به صاحبه أن يمحو تماماً آثار الديوان اللعين «ديوان الملك»، حتى وإن كان هذا الديوان قد خلا من النفاق الرخيص والزلفى البغيضة.

وأكاد أجزم بعد هذه السنين بأن المتهورين من الثوار عندما أعدوا القائمة الأولى للتطهير وشملت العاملين في الإذاعة توهموا أن الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي هو وحده الشاعر المقصود بالتطهير، في حين أنهم - لولا تهورهم - لصبوا جام غضبهم على محمود حسن إسماعيل ولحل اسمه محل اسم إبراهيم ناجي في قائمة التطهير الأولى.

كان محمود حسن إسماعيل يشرف في الإذاعة على الأحاديث الثقافية التي يدعى إلى إلقائها كبار الأدباء والمفكرين، ومنهم الأديب إبراهيم عبد القادر المازني. وكان النظام المتبع في ذلك الوقت هو أن يقدم الكاتب

كلمته لمراجعتها قبل السماح له بإلقائها في المذياع للتأكد من سلامتها من جميع الوجوه. ولسبب ما لم يشأ محمود حسن إسماعيل السماح لإبراهيم عبد القادر المازني بإلقاء كلمته، فزعم أنها فقدت! واغتاظ المازني ولا سيما لأنه كان قادراً على إلقاء كلمته ارتجالاً دون قراءتها من نص مكتوب. ولكن القواعد الصارمة التي وضعها المشرف على الأحاديث حالت دون ذلك. فما كان من المازني إلا أن قاطع الإذاعة ونشر مقالاً في جريدة «البلاغ» هاجم فيه محمود حسن إسماعيل دون أن يذكر اسمه، وختمه ببيت من الشعر لابن الرومي نصه:

طول وعرض بلا عقل ولا أدب
وليس يحسن إلا وهو مصلوب!

قضى محمود حسن إسماعيل كل عمره الوظيفي في الإذاعة، وتخطته جميع المناصب العليا، ولكن الذي كان يهمّه في المقام الأول هو الاحتفاظ بهذه الوظيفة لينفق من إيرادها على أسرة كبيرة هو وحده عائلها. وكان يعيش - وهو صاحب ديوان «أغاني الكوخ» في الأحياء الشعبية لمدينة الجيزة ولا ينتقل إلا بوسائل المواصلات العادية لأنه لم يكن يملك سيارة. وكثيراً ما كنت اصادفه في «الترولي باص» قبل إحالة هذه الوسيلة النظيفة إلى التقاعد - وهو متجه إلى بيته بعد إنهاء ساعات العمل، وهو لم يكن اجتماعياً بطبعه - ربما بسبب صعيديته الفاقعة! ولست أذكر أنه أختير عضواً في لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة عند إنشائه ولا عضواً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية - وكانت دواوينه تصدر على استحياء، فلا تقام حولها ندوات لمناقشتها، ولا حتى في الإذاعة نفسها - ربما بسبب عناوينها غير الشعرية مثل «أين المفر» و«قاب قوسين» و«لا بد» و«صلاة ورقص» و«هدير البرزخ»، و«نهر الحقيقة» و«التائهون». ولعل غرابة هذه العناوين كانت سبب تجاهلها، فهي لا تتحدث عن الحب والهيام والعشق وربات الخدور، ولكنها تتناول قضايا شبه فلسفية «صعبة الهضم».

وعندما تقرر إيفاد الأديب الناقد سيد قطب إلى الولايات المتحدة في بعثة دراسية مفتوحة، أقامت له جماعة خريجي كلية دار العلوم حفلاً لتوديعه ـ كنت من شهوده ـ تبارى فيه الخطباء شعراً ونثراً في الحديث عن المحتفى به، وكان من جملتهم محمود حسن إسماعيل الذي أنشد قصيدة تكريمية لزميله وصديقه. ولكن يبدو بسبب النهاية الأسيفة التي لقيها سيد قطب، تعمد محمود حسن إسماعيل إغفال هذه القصيدة ولم ينشرها في أي من دواوينه.

وقد سمعت أن الكويت ـ التي استضافت محمود حسن إسماعيل بعد تقاعده من الإذاعة باعتباره خبيراً في المناهج التعليمية وتوفي هناك ـ قد نشرت أخيراً المجموعة الكاملة لدواوين الشاعر، بما فيها «ديوان الملك» الذي طالما حاول الشاعر في حياته أن يتناساه وينكره. ولا أستبعد أن تكون قصيدته المحجوبة في سيد قطب قد أندرجت بدورها في هذه المجموعة الشعرية الكاملة التي لم أطلع عليها.

ولد محمود حسن إسماعيل في عام ١٩١٠ وتوفي في عام ١٩٧٧ ولم نعرف من نسله إلا ابنته الوفية المذيعة سلوان محمود زوجة الأديب فاروق خورشيد، رحمهما الله.



نصحت مصطفى أمين... فلم ينتصح

عقب حصولي على درجة البكالوريوس في الأدب مع التخصص في الصحافة من الجامعة الأمريكية في عام ١٩٤٢، زكاني أستاذي فؤاد صروف لدى قريبه فريد بك شقير ـ ابن سعيد شقير باشا والليدي صروف، للعمل في جريدة «الأهرام» حيث كان شقير بك مديراً لها، وكان أنطون الجميل باشا رئيساً لتحريرها، وكان كلاهما معيناً من قبل صاحب «الأهرام» جبرائيل تقلا باشا. وكانت الجريدة تحتل وقتها عمارتين في شارع مظلوم باشا، وقد هدمت العمارتان فيما بعد وتحولت أرضهما إلى موقف للسيارات.

وبعد الإجراءات المعتادة السابقة على التعيين في الجريدة، ومنها إجراء امتحان في الترجمة بين اللغتين العربية والإنجليزية ثم الكشف الطبي، ألفيت نفسي معيناً لا في قسم التحرير كما كنت أريد وأتمنى، ولكن في قسم التوزيع. وظننت أنه سيكون في وسعي فيما بعد الانتقال بصورة طبيعية إلى التحرير، ولا سيما بعدما عقدت صداقات وثيقة مع كبار المسؤولين في التحرير، ومنهم سكرتير التحرير نجيب كنعان والشاعر محمد الحناوي وصالح البهنساوي وغيرهم. ولكن قيل لي إن هناك سداً منيعاً بين التحرير والإدارة، ولا سبيل إلى اجتيازه، وهو وضع شاركني فيه الشاعر صالح جودت الذي كان يعمل وقتها في قسم الإعلانات بالجريدة.

عملت على مدى ثلاث سنين مفتشاً للتوزيع أشرف على توزيع جريدة الأهرام إلى جانب نحو أربعين جريدة ومجلة باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية واليونانية، مما أكسبني خبرة في توزيع الصحف والمجلات في مصر.

وعندما اعتزم مصطفى أمين بك إصدار جريدة «أخبار اليوم» في عام ١٩٤٤ استدعاني لمقابلته باعتباري خبيراً في التوزيع. وكنت أعرف مصطفى

أمين من أيام الدراسة الجامعية لأن أساتذتنا كانوا يدعونه ليحدثنا عن تجاربه ونصائحه، كما أنه كان يستعين بي وبمجموعة من زملائي الطلاب في إجراء استفاءات بين طلبة كليات جامعة فؤاد الأول، وكنا نوزع عليهم أوراق الاستفتاء لملئها متضمنة أسئلة حول التعليم المشترك بين الطالبات والطلاب، ومدى استعداد الطالب الجامعي للزواج من زميلته بعد التخرج، وشعور الطالب إذا ما تقرّبت منه زميلته، إلى آخر أمثال هذه الأسئلة مع نشر نتيجة الاستفتاء في مجلة «الاثنين» التي كان مصطفى أمين يرأس تحريرها. وكان يري كسر القاعدة الصلبة وهي أن قراء الصحف هم موظفو الحكومة وحدهم، وحسب أنه يستطيع بهذه الاستفتاءات اجتذاب الطلاب والنساء بصورة خاصة لقراءة مجلة «الاثنين». ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً إذ رفع توزيع المجلة إلى أكثر من مائة ألف نسخة، بل لقد استعان بليلى حبيب كمحررة في مجلة «الاثنين» - ولعلها أول صحفية مصرية محترفة - كي ما تتابع أخبار المرأة في المجتمع، وهي قد التحقت بدورها في قسم الصحافة بالجامعة الأمريكية لكي تزداد تأهيلاً مهنياً لممارسة العمل الصحفي.

كما كنا نجتمع مع مصطفى أمين في ملتقيات خريجي الجامعة، وكان هو يثابر على حضورها.

وعندما اختلف مصطفى أمين مع صاحبي دار الهلال إميل بك وشكري زيدان، استقال من الدار واعتزم مع شقيقه علي أمين إصدار جريدة «أخبار اليوم» واستأجرا طابقاً يضم نحو عشر غرف على عمارة تقع في شارع جانبي من شارع قصر النيل. واتخذ مصطفى أمين مكتبه في غرفة تقع إلى أقصى اليمين في حين احتل علي أمين غرفة تقع في أقصى اليسار.

أعود إلى لقائي بمصطفى أمين عندما رغب في استشارتي باعتباري خبيراً في توزيع الصحف، وكان سؤاله الملح هو عن عدد النسخ التي يمكن طباعتها من جريدته في أول أعدادها. ورجوته ابتداءً أن يعطيني فكرة عن مشروعه أستعين بها في الرد على استفساره، فقال: إن جريدة «أخبار اليوم» تجمع بين خصائص الجريدة اليومية من حيث نشر الأخبار اليومية الدارجة التي لا تخلو

منها جريدة يومية، ولكنها تضيف إلى ذلك خصائص المجلة الأسبوعية بما تنشره من موضوعات طريفة FEATURES وبما تنفرد به من تحقيقات يجريها مندوبوها في الداخل والخارج إضافة إلى عنصر الكاريكاتير الذي لم تكن الصحف اليومية تهتم به. وقال: إن جريدة «أخبار اليوم» ستكون شبيهة من حيث منهاجها بجريدة «نيوز أوف ذي ويرلد» البريطانية الواسعة الانتشار التي أغلقت مؤخراً.

فقلت لمصطفى أمين: إن العدد الأول من الجريدة قد يكون حاسماً في مستقبلها، فإذا نجح كان ذلك إيذاناً بنجاح الجريدة في المستقبل، أما إذا تعرض للفشل فقد يتسبب هذا في خسائر فادحة وفي إجهاض المشروع كله، ولهذا لا بد من التوسط بين التفاؤل المفرط والتحفظ المفرط حتى لا يكون التفاؤل المفرط سبباً في تحميل الجريدة خسارة باهظة من أول أعدادها، كما أن التحفظ المفرط قد يضيع على الجريدة فرصة الوصول إلى طالبيها من القراء. ثم قلت له إن من غير المعقول أن تحقق «أخبار اليوم» من عددها الأول توزيعاً يضاهي توزيع الصحف اليومية المستقرة مثل «الأهرام» و«المصري»، وكانت كلتاهما توزع يومياً ما معدله ١٢٠ ألف نسخة. ولهذا، ففي تقديري أن الاقتصار على طباعة ٨٠ ألف نسخة يمثل التقدير المعقول لجريدة ناشئة.

فشكرني مصطفى أمين وانصرفت معتقداً أنني أسديت إليه نصيحة مستمدة من الخبرة يسترشد بها في القرار الذي يتخذه عند طباعة العدد الأول من جريدته.

ولكن شتان بين رأي الخبير ـ أياً كان ـ وبين الواقع العملي الفعلي. فقد نجحت جريدة «أخبار اليوم» في تجاوز تقديرات الخبير ووزعت من عددها الأول ١١٠ آلاف نسخة مبيعة فعلاً.

وبناء على رغبة مصطفى أمين زودناه من قسم التوزيع بشهادة رسمية بالرقم الفعلي الذي حققه مبيع العدد الأول من «أخبار اليوم» وهو ١١٠ آلاف نسخة، وهي شهادة جرى نشرها في الصفحة الأولى من العدد الثاني من الجريدة.

الشاعرة
نازك الملائكة

في عام ١٩٥١ كنت منصرفاً إلى عملي في جريدة «المقطم» عندما أطل من باب غرفتي الأديب العالم سلامة موسى وفي صحبته شابة ضئيلة الحجم شديدة الاحتشام والتحفظ توحي ملامح وجهها بالجدية، فلا تبتسم إلّا بحساب. وتوهمت لأول وهلة أنها ابنته وأنه ربّما يفكر في مشروع زواج، ولا سيما لأنني كنت أعرف أن لسلامة موسى قبيلة من البنات والأبناء، وسبق أن دعاني إلى عرس واحدة من بناته. ولمّا قمت لتحيته هو وابنته قال: يسعدني أن أقدم الشاعرة العراقية نازك الملائكة. فأدركت أن مشروع الزواج من هلاوسي! وكنت أعرف الشاعرة من ديوانها الأول «عاشقة الليل» ومما كانت تنشره من شعرها ونثرها في مجلة «الأديب» اللبنانية التي كنت بدوري من كتابها الدؤوبين، وكانت تعرفني من متابعتها لكلامي في نفس المجلة. أما المشافهة فلم تتحقق إلّا في هذه المناسبة السعيدة.

وأخبرتني نازك أنها عائدة من الولايات المتحدة حيث كانت تدرس في جامعة برنستن الشهيرة. فاستفسرت منها عن صديقي المؤرخ الدكتور فيليب حتّي وطمأنتني عليه. ولمّا أبديت دهشتي من كونها التحقت بجامعة كل طلابها من الشباب دون الشابات، قالت: إن الجامعة استثنتها من هذا القيد، فكانت الطالبة الوحيدة في الجامعة. وقالت: إنها تعرفت في الولايات المتحدة برائد جماعة «أپولو» الدكتور أحمد زكي أبي شادي الذي نصحها بالتوقف في القاهرة في طريق عودتها إلى العراق للتعرف بأدبائها، وأوصاها بأن يكون رائدها في غشيان المجتمعات الأدبية في القاهرة سلامة موسى.

وبعدما كانت نازك الملائكة مجرّد اسم لشاعرة يطالعني في الصحف

والمجلات الأدبية أصبحت شخصية معروفة لي من لحم ودم تمثل كياناً أدبياً يزداد شموخاً. وشتان بين الإعجاب من واقع الآثار المنشورة وبين الإعجاب بشخصية أدبية فرضت نفسها في عالم الضاد بما أنجزته من آثار شعرية ونثرية ملأت أكثر من ٢٤٠٠ صفحة من المجلدات الأربعة التي نشرها المجلس الأعلى للثقافة مؤخراً.

ولدت نازك الملائكة في بغداد في ٢٣ أغسطس ١٩٢٣ اي أنها استكملت عامها الثمانين في عام ٢٠٠٣، واختار لها والدها اسم نازك تيمناً بالمجاهدة السورية نازك العابد زوجة صديقنا العلّامة اللبناني محمد جميل بيهم.

وكانت الابنة البكر لوالديها اللذين رزقا بعد ذلك بثلاث بنات وولدين. وبعدما أنهت المرحلة الثانوية التحقت بدار المعلمين العالية ـ وكانت هي الجامعة الوحيدة في العراق وقتئذٍ ـ، وتخرجت من فرع اللغة العربية بمرتبة الامتياز في عام ١٩٤٤، وسافرت بعد ذلك لمتابعة الدراسة العليا في الولايات المتحدة مرتين. ففي المرة الأولى تخرجت من جامعة برنستن، وفي المرة الثانية نالت درجة الماجستير في الأدب المقارن من جامعة وسكنسن.

وعند عودة نازك إلى بغداد زاولت التدريس في كلياتها دون أن يصرفها ذلك عن إبداع الشعر ومعالجة النثر. واختارت أن تنشر آثارها في المجلات العربية التي تصدر خارج بغداد كي تتواصل مع أدباء العالم العربي. صحيح أنها أصدرت ديوانها الأول «عاشقة الليل» في عام ١٩٤٧، ولكنها بدأت نظم القصائد وهي في سن العاشرة، ولم يكن هذا نتيجة «لعدوى» من أسرتها العامرة بالشعراء أو من قبيل الوراثة لأن «جين» الشعر كان كامناً في والديْها وشقيقها وأخوالها، بل كان جدّها لأمها ـ المعروفة باسم أم نزار ـ شاعراً، وإنما اكتسبت موهبة الشعر ذاتياً وجعلته هواها الأوّل.

عملت نازك سنوات طويلة أستاذة للأدب في جامعة الكويت التي كرمتها بأن أصدرت كتاباً تذكارياً أهدي إليها، كما نالت جائزة الإبداع الشعري من مؤسسة البابطين. ومن حسنات صدام حسين النادرة أنه منحها أعلى وسام ثقافي من بضع سنين خلت.

لم تشغلها وظائفها التربوية عن تكوين أسرة خاصة بها، فتزوجت من

الدكتور عبد الهادي محبوبة مؤسس جامعة البصرة الذي توفي في القاهرة ودفن فيها، ورزقت منه بابنها الوحيد الدكتور البراق الذي ملأ حياتها في شيخوختها.

ومع أن نازك أدركت عهد الملكية في العراق ثم عهود الثوار الذين خرّبوا البلاد بدءاً بعبد الكريم قاسم وانتهاء بصدام حسين، فقد التزمت دائماً البعد عن الخوض في السياسة الكثيرة المزالق، ولم تتلّون كما تلون شعراء العراق الكبار: محمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السّياب وعبد الوهاب البياتي، فحافظت على اسمها نقياً من الشوائب السياسية والمذهبية والحزبية.

تعددّت دواوين نازك بعد «عاشقة الليل»، فأصدرت «شظايا ورماد» و«قرارة الموجة» و«شجرة القمر» و«أغنية للإنسان ـ في جزءين» و«للصلاة والثورة» و«يغيّر لونه البحر» و«الوردة الحمراء» و«مأساة الحياة». أما كتبها النثرية فهي «قضايا الشعر المعاصر» و«سيكولوجية الشعر» و«الصومعة والشرفة الحمراء»، وهو دراسة في شعر الملاح التائه علي محمود طه، و«التجزيئية في الشعر»، عدا مجموعة من الأقاصيص عنوانها «الشمس التي وراء القمّة».

ولئن أجادت نازك اللغتين الإنجليزية والفرنسية واطلعت على آثار الأدباء في الغرب، فإن ذلك لم يجعلها تتغّرب أو تحاكي أساليب الفرنجة في شعرها.. بل إنها لم تحاول تقليد حتى الشعراء العرب القدامى اعتقاداً منها بأن الإبداع ينبغي أن يتفرّد بخصائصه، فلا يكون مجرّد تقليد لشعر الأوائل. وفي سبيل تأكيد إبداعها المتفرّد، نشرت في عام ١٩٤٧ قصيدة «الكوليرا» متحررّة من ضوابط الشعر. إلا من التفعيلة والموسيقى، ففتحت الباب على مصراعيه أمام التجديد في الشعر، وشتان بين التجديد وبين الفوضى العارمة التي آل إليها حال الشعر في يومنا الحالي بتحررّه من كل خصائص الشعر. وحرصاً من نازك على تأكيد ريادتها في هذا الميدان، بعثت إلى صديقها الأردني عيسى الناعوري برسائل ـ نشرت مؤخراً في عمّان بتحقيق تيسير النجار ـ أوضحت فيها أنها سبقت بدر شاكر السياب في هذا الاتجاه الشعري الجديد، ودافعت بذلك عن حق التأليف Copyright الذي نازعها فيه عدد من الشعراء.

ولم تشأ نازك أن تجعل من هذه القضية معركة أدبية لأنها تفادت

المعارك الأدبية أياً كانت دوافعها، وحرصت دوماً على عدم الردّ على نقادّها حتى وإنْ كانت حججهم على قدرٍ من الضعف والهزال.

بل إن نازك لم تشارك في كثرة من المؤتمرات الأدبية التي عقدت هنا وهناك لنفورها الفطري من المظاهر المهرجانية واعتقادها بأن هذه المؤتمرات هي مجرّد ساحات للكلام الذي يتبدّد في الهواء.

وإذا كان هناك طابع عام يطبع شعر نازك، فهو طابع الحزن والألم. وآية ذلك قصيدتها المعنونة «جنازة المرح» أو قصيدة «كلمات مكتوبة على قبر شاعر محزون». وهذا اتجاه يصعب تحليله، لأن نازك لم تجرب ما جربته زميلتها الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان من قمع من جانب أسرتها. فقد كان طريق الحياة كله مفتوحاً أمامها، تتابع الدراسة بجميع مراحلها بل وفي الخارج أيضاً دون أن يعترض على ذلك معترض من أسرتها. ثم إنها لم تصادف رقابة عائلية على شعرها تضطرها إلى نشره بأسماء مستعارة كما كانت فدوى تعمل في بداياتها. ولعلّ نغمة الحزن التي تشيع في شعرها هي نتاج شخصيتها التي تؤثر الانطواء على النفس، وحسبها أن تتعامل مع المجتمع الأدبي من واقع كتاباتها المنشورة شعراً ونثراً.

وقد اختارت نازك أن تقيم في القاهرة لتتابع العلاج من أمراض الشيخوخة دون أن يحول ذلك من متابعتها للنشاط الثقافي في العالم العربي. ولكنها آثرت العزلة وعدم غشيان المجتمعات الأدبية بصخبها وضجيجها. وكم ساءها أن يفسرّ الصحفيون عزلتها وصمتها بأنها تعاني من غيبوبة أو أن وطأة المرض اشتدت عليها، فهذه قسوة غليظة من أقلام لا تستشعر مسؤوليتها ولا ترحم إنسانيتها، وهي التي لم تعرف العداوات في كل عمرها.

وقد قرأت نازك كل ما قيل عن تدهور صحتها فلم تخرج على الناس قائلة: خسئتم، فإنّي ما زلت على قيد الحياة، كلا. لقد آثرت الصمت والصبر مع الكبرياء إلى أن رحلت في عام ٢٠٠٧.

يا شاعرة العرب: إن منزلتك الأدبية السامقة وشخصيتك النبيلة الأصيلة وآثارك الإبداعية الباقية تكتب لك في صفحة الأدب المعاصر أنصع الآيات. فقرّي عيناً بما صنعت من تاريخ طويل خصيب شريف.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

منشورات مكتبة ومركز

فهد بن محمد بن نايف الدبوس

للتراث الأدبي ـ الكويت[1]

١ ـ **«حسن حسني باشا الطويراني، أديب موسوعي من القرن التاسع عشر»**، تأليف وإعداد فهد محمد نايف الدبوس.

٢ ـ **«الشيخ علي الليثي، شاعر الخديوي إسماعيل والخديوي توفيق»**، إعداد فهد محمد نايف الدبوس.

٣ ـ **«شعراء من الأمس القريب (الكويت ـ لبنان ـ ليبيا ـ مصر)»**، إعداد فهد محمد نايف الدبوس.

٤ ـ **«في الكتاب وأحواله»**، تأليف أحمد العلاونة (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م).

٥ ـ **«العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم مع الوثائق»**، تأليف أحمد العلاونة (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م).

٦ ـ **«نثر الأزهار، فيما وجد مكتوباً على القبور من الحكم والأشعار»**، تأليف عبد الرحمٰن يوسف الفرحان (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م).

٧ ـ **«ذهبية العصر»**، تأليف شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، تحقيق إبراهيم صالح (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م)

٨ ـ **«المجمع المفنن بالمعجم المعنون»**، تأليف العلَّامة الشيخ عبد الباسط الملطي، بتحقيق: عبد الله محمد الكندري (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م).

٩ ـ **«من مقالات وديع فلسطين في الأدب والتراجم»**، (١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م).

سلسلة نوادر الرحلات

١ ـ **«رحلة الشيخ علي الليثي ببلاد النمسا وألمانيا»**، تأليف علي بن حسن الليثي، اعتنى به فهد بن محمد بن نايف الدبوس (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م).

---

(١) من العدد (١) إلى (٣) يطلب من المركز في الكويت لمن يريد ذلك.
ومن العدد (٤) فما بعده، يطلب من دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.